دحّان

محمد ولد محمد سالم

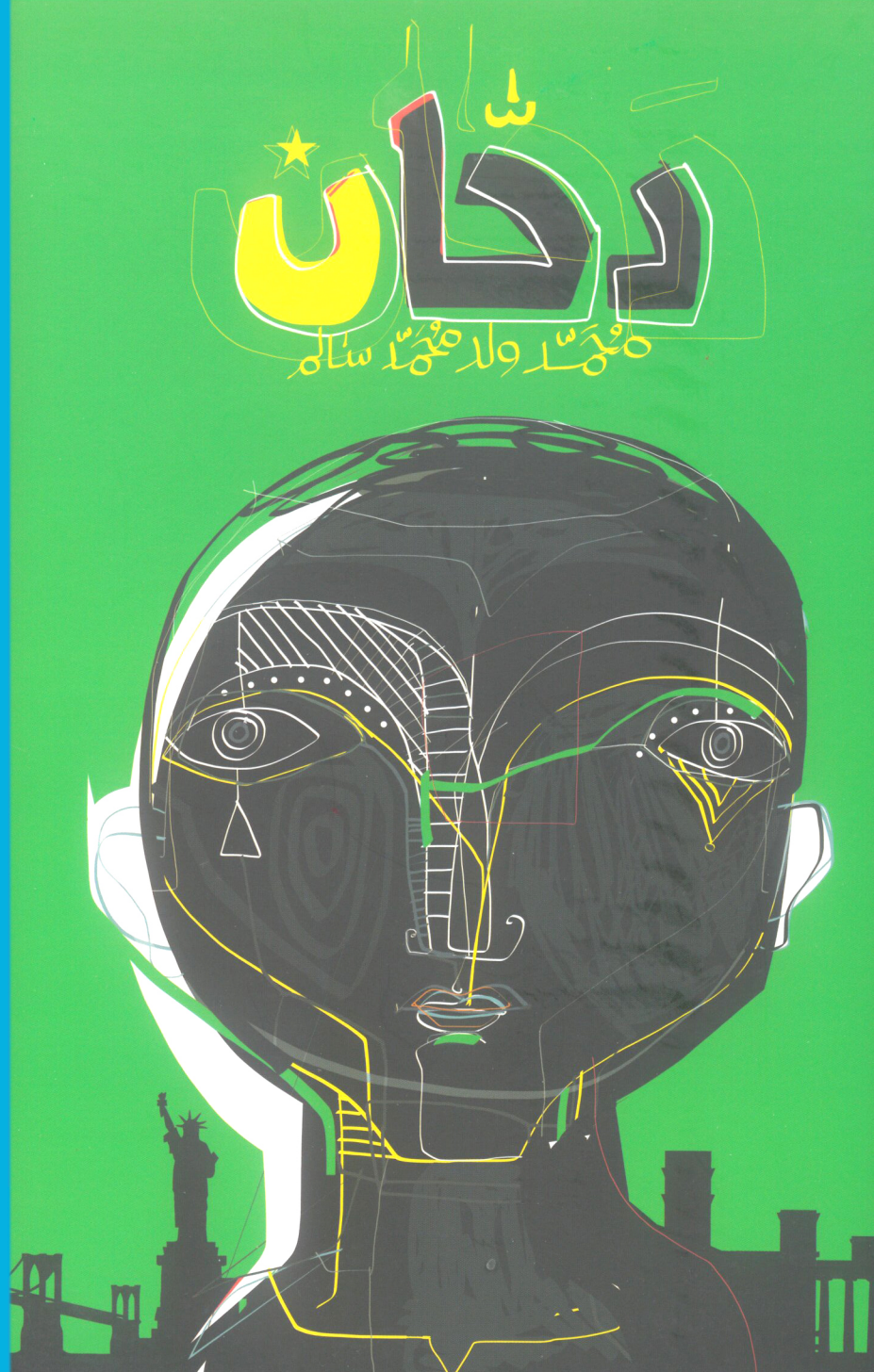

يواجه عبد الرحمن ما يواجهه أمثالُه في دول العالم الثالث من مشاكل واقعية ونفسيّة، والتي ينحصر معظمها بالفقر، والبطالة، وتغوّل الفساد، وارتباك العلاقات العاطفية، وتناقض النظرة إلى الغرب؛ وهذه الحواجز مجتمعةً جعلت حياته مضطربة وغير متّزنة، وصار يُنظر إليه النظرةَ إلى الممسوس.. ولكن ما العلاقة التي ستربط بينَ "دحّان" ومُدرّسَةِ اللغات، وكيف ستَحُوْلُ أحداث الحادي عشر من سبتمبر بينهما.. وهل صحيحٌ أن الشرق يكره الغرب مطلقًا، أم يبقى التقاء المصالح وانتفاؤها هو الميزان والحكم؟

روايات
REWAYAT

الغلاف: وليد طاهر

دحّان

محمد ولد محمد سالم

دحّان

تأليف: محمد ولد محمد سالم
الغلاف: وليد طاهر
مراجعة لغوية: ياسر الأطرش

الترقيم الدولي (ISBN): 978-9948-18-414-0

روايات
REWAYAT

إصدارات روايات (إحدى شركات مجموعة كلمات)
الطبعة الأولى 2015

القصباء - مبنى D
هاتف: 5566696 6 971+ فاكس: 5566691 6 971+
ص. ب. 21969 الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
info@rewayat.ae
www.rewayat.ae

جميع الحقوق محفوظة © روايات 2015
تمت الموافقة على المحتوى من قبل المجلس الوطني للإعلام
المرجع: 64436
محتوى هذا الكتاب لا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر

KALIMAT GROUP ▪ مجموعة كلمات

إهداء..

عزيزتي محمد سالم سنّاد

ليس (دخّان) هو المحسوس
لكنه جيلنا كله، ذلك
الجيل الذي عاش الأحلام
وانكسار الأحلام.

مع خالص محبتي

محمد

كاسترو

رفع عبدُ الرحمن يدَه ليجيب، فقالت له هيلين: "تفضّل.."
أجاب بهدوء وتركيز، فقالت له بشيء من السخرية المرحة، وهي تبتسم: "أحسنت.. أحسنت يا كاسترو.."
ضجّ الفصل بالضحك وانصبّت التعليقات:
"ها ها.. ها ها كاسترو.. الكهل ذو الشعر الأشعث."
"ها.. ها.. كاسترو.. كاسترو المناضل العظيم.. هنيئًا.. خذ السيجارة الكوبية والبسْ بزّة الثائر."
"كاسترو.. أعوذ بالله.. الشيوعي الكافر.. هذا تشبيه بشع.. لا تسكت لها عليه.. يجب أن تقابل الإساءة بالمثل.. لا تكن جبانًا."
"أنت جبان.. كيف تسمح لها بالتطاول عليك؟!"
تغيّر وجهُه بشتى الألوان، وانقبض حاجباه غضبًا، ثم جمع أوراقه ووقف مستعدًّا للخروج، وقال لها باللهجة الحسانية: "كنت أظن أننا في هيئة محترمة تقدم خدمة إنسانية، وإذا بنا في تمثيلية هابطة."

اتجه إلى الباب وهيلين تراقبه بذهول.. احتقن وجهُها بحمرة الحزن، لكن كان عليها أن تتصرف، فتبعته وهي تناديه: "سيد عبد الرحمن.. سيد عبد الرحمن من فضلك.. انتظر."

لم يكترث لندائها، ولا لنداء صديقه سليمان الذي حث الخُطا في إثره حتى استوقفه عند الباب الخارجي، لكنه تخلّص منه ودفعه بعنف وهو يقول، والشرر يتطاير من عينيه: "إياك أن تمسك بي ثانيةً، فلن أرجع."

قال له بيأس: "يبدو أن شياطينك قد عادوا إليك."

ردّ عليه وقد رفع إصبعه تجاهه:

"لذلك من الأحسن لك أن تبتعد عني."

"سأبتعد عنك.. الحقّ علي أنني أحرص على مصلحتك."

"أولى لك أن تحرص على مصلحتك.. اذهب حتى لا يفوتك الدرس."

قال سليمان يستفزه، ويخفف من وطأة الموقف:

"وحتى لا تفوتني صاحبة الدرس!"

التفت إليه من دون أن يتوقف وقال له:

"تلك أقصر طريق لتصبح جاسوسًا لهم."

"أنت سيّئ الظن، ولا فائدة منك."

لم يكترث بحدته وواصل طريقه مبتعدًا.. مرق من بين الدور في

الحي (س)، ومر بمحاذاة (الجامع السعودي)؛ كان الوقت عصرًا والشمس قوية حين نزل مارًّا من أمام بناية بنك الإسكان تجاه شارع جمال عبد الناصر، مستهلًّا مساره الطويل إلى أهله في (كبة المربط)، ذلك الحي العشوائي من أكواخ الخشب والزنك، وسقائف الخشب والقماش في الجنوب الغربي من نواكشوط من جهة البحر جنب (المربط)، حيث سوق المواشي الرئيس في نواكشوط، وحيث الأرض الطينية المالحة الرطبة، والعفونة الدائمة.

ضحكات الطلاب وسخريتهم تطنطن في رأسه، ومشهد هيلين وهي تسخر منه ماثل في ذهنه، فيخاطبها:

نعم أنا كاسترو.. كاسترو في حلقك وحلوق الأمريكيين كلهم، أيتها الساقطة.. لن أرجع إلى الفصل بعد اليوم.. أنت تمثيلٌ حيٌّ لتلك الكراهية التي تنظرون بها إلى كلّ من ليس أمريكيًّا.. نحن بدورنا نكرهكم.. كاسترو رجل شجاع لأنه يقف في وجهكم ويتحداكم، ولذلك تكرهونه.. لحيته أشرف من ملايين الذقون الحليقة من قومك.. أثره في الأرض أحب إلينا من رجالكم ونسائكم جميعًا، فهو على الأقل لم ينهب خيراتنا ولم يرهب حكامنا ولم يمكّن إسرائيل من اضطهاد أهلنا واحتلال أرضنا.. أعرف أنكم تنظرون إليه باعتباره ذلك الريفي الكوبي، رجل الأدغال والعصور الوسطى، الهندي أو

الرقيق أو المورسكي الإسباني أو حتى العربي.. لحية بشعة لأنها لحية شيوعي وتُذكِّر بلحى أولئك المسلمين الأعداء القتلة.. لماذا لا تكون لديك الشجاعة لقولها صراحة؟!.. أنا فخور بأنني أشبهه، يكفيني أنه لم يخضع لجبروت رؤسائكم المتتابعين، يكفيني أنه يناضلكم ويسخر من عنصريتكم البغيضة، التي جعلتكم لا ترون في الآخرين سوى حثالة وضيعة.. متى تستفيقون وتدركون أننا بشرٌ مثلكم ولسنا قطعانًا من البهائم المتوحشة؟!.. هل تظنين أنني بسبب دورة مجانية في الإنجليزية سأذلّ لكِ وأتركك تتطاولين عليّ؟!.. احمدي الله أنني لم أخنقْكِ كما خنقت ذلك الخبيث أستاذ النظم الزلزالية.. كانت سكينة ترتجف حين تذنب خوفًا من عقاب أبينا، أما أنا فكنت أسلم له نفسي صامدًا حتى ينتهي.. حين كنت طفلًا كانت لي عصابة من أبناء الحي، وكنا نشتبك مع العصابات الأخرى، كنت أقف في الخلف أحمي ظهورهم وأنتظر، فإن هزموا عصابة العدو تبعتهم، وإن رأيتهم يتقهقرون هجمت وسددت ضرباتي إلى الأعداء فيشجع ذلك زملائي ويثير حماسهم، فيكرّون معي وننتصر؛ وحين جاء إلى حيّنا ذلك الولد قريب عثمان، وأراد أن ينتزع زعامة العصابة من صديقي علي الأحيول، أعددت له خطة عنترة بن شداد، التي قرأناها في كتاب القراءة، وترصّدته

حتى وجدته صحبة عثمان، فهجمت على عثمان وأمسكت بتلابيبه وهززته بعنف وقلت له: "هاه.. يا عثمان صرت بطلًا، تهدّد أصدقائي وكأنك (بريسلي).. هل نسيت أنك ذليل، لا ترد الذباب عن فمك؟!" فأمسك الولد بساعدي مسكة غير قوية يريد أن يخلص عثمان من قبضتي وهو يقول بتردّدٍ: "انتظر.. ماذا فعل لك حتى تمسك به هكذا؟!"

رأيت تردّده فعرفت بحس الطفولة أنه مذعور، فليس في قوانين الأطفال التردّد، عندها حرّرت عثمان وفي طرفة عين نزلت بيدي على صفحة خدّ الولد، فجثا على الأرض وسال الدم من أنفه مدرارًا.. لن أنكر أن أبي أشبعني على إثر ذلك ضربًا، وحبسني في الكوخ يومًا كاملًا، لكنني حفظت كرامة العصابة وانتصرت لصديقي الأحيول؛ والآن تأتين أنت يا راعية البقر تظنين أنك تستطيعين أن تطأطئي رأسي.. حتى في المرات التي أُهزَم فيها وأُشبَع ضربًا كنت أقاوم وأتلقى الألم مطمئنًا إلى أنني غُلِبت وأنا شامخ الرأس.

لقد قلت لسليمان حين دعاني لألتحق بدورتكم التافهة هذه بأن مؤسستكم مشبوهة، ولن تكون دورتكم أكثر من وسيلة لاختبار من يصلحون ليكونوا عملاء لكم.. ربما يكون هذا الاستفزاز جزءًا من الاختبارات التي تجرونها على كلّ واحدٍ منّا، لكنك أخطأتِ

صيدكِ هذه المرة.. لقد أقالني ذلك الفرنسي المجرم بعد أن رفضتُ مساعدته في الاحتيال على خيرات وطني.

انتبه عبد الرحمن إلى عربة محمّلة بالبضائع يجرّها حمارٌ يسير بسرعة، وقد كادت تدهسه وصاحبها يصيح به في غضب: "هيْه.. ابتعد عن الطريق."

ابتعد عنه وتابعه بعينه وقد تجاوزه ورفع صوته بغضبٍ قائلًا: "أنت من يجب عليه أن ينظر أمامه.. نحن بشر ولسنا حميرًا."

لم يُعِرْه الرجلُ انتباهًا، فقد كان مشغولًا بتوجيه حماره المندفع بسرعة، وبضبْط البضاعة المضطربة على عربته.

مرّ من بين بنايات (بلوكات)، وأمسك بالشارع المحاذي لسوق العاصمة من جهة الشرق، لمح عن يساره دكاكين الحلاقين، فخطر له أن يتأمل قسمات وجهه ليعرف ما الذي دعا هيلين إلى تشبيهه بفيدل كاسترو.. توقف أمام أول واحد منها، ومسح بعض العرق عن وجهه، ثم دخل وسلّم على الحلاق الذي كان في الجانب الأيمن من المحل منهمكًا في الحلاقة لزبون.. اقترب من المرآة العريضة المثبتة على الحائط قبالته، وبدأ يتفحص وجهه، ركز أولا على لحيته، لم تكن كثيفة ولا طويلة مثلما هي لحية كاسترو، لكن كان هناك شبه فراغ في الشعر عند منتصف عارضيه يشبه الفراغ

الشهير في عارضي كاسترو، لولا أن شعر عارضيه هو كان قصيرًا جدًّا بالقياس للحية كاسترو، وربما زاد قليلًا بسبب إهماله له أكثر من عشرة أيام لم يشذبه فيها.. تأمل في قسمات وجهه الأخرى، أنف ناتئ وفي منخريه انفراج، وعينان تميلان إلى البروز، وشعر أسيل يحافظ على قصره دائمًا.. لم يكن يذكر من قسمات زعيم كوبا شيئًا محدّدًا غير تلك اللحية ليقارنه بقسماته، وربما لون بشرته القمحية يشبه لون بشرة كاسترو.. من يدري، ربما تكون له أصول قرابة مع كاسترو، فيكون أحد أجداده من العرب الأندلسيين الذين نزحوا إلى المغرب هربًا من محاكم التفتيش، ويكون له أخ تنصّر وخرج من سلالته كاسترو.

تبسم من طرافة الفكرة التي توازي الردّة عن الإسلام في عرف النّاه، فهل يعقل أن أهل بوكبش الصالحين يجتمعون مع نصرانيٍّ في جدٍّ واحد؟!.. لو سمعتْه فلن تتركه حتى يتوب ويذهب معها لزيارة قبر جدهم عبد الرحمن بوكبش تبرّكًا واعتذارًا.. ذكّرته جبهتُه العريضة بجبهة كاسترو فقدّر أن ذلك ربما يكون هو ما دعا هيلين إلى تشبيهه به.. انتبه إلى أنه أطال النظر بشكل غير لائق، مما جعل الحلاق يتابعه في المرآة التي أمامه مستغربًا، فأخرج من جيبه مشطًا سوى به شعر رأسه، ثم استدار مودِّعًا الحلاق بإشارة من يده.

انتقل إلى الجانب الأيمن من الطريق، وتوقف عند بائعة المشروبات الباردة التي تستظل بظل أشجار حائط (جمعية قدماء المحاربين)، استلّ قطعة العشرين أوقية اليتيمة من طيات قصاصات الورق التي يمتلئ بها جيب درّاعته.. أوراق كثيرة تتجمع في جيبه على مدى أشهر، بعضها يحمل ملاحظات أو معلومات أو عناوين، والبعض الآخر إيصالات تسليم ملفات لجهات عمل أو صور عن أوراق رسمية.. سيأتي يومٌ يجلس فيه ليفرزها ويمزق منها ما ينبغي تمزيقه ويرمي الباقي في قعر صندوق النّاه، فليس له مكان غيره للاحتفاظ بالأوراق. اشترى من المرأة قنينة من عصير (بِصام) المنعش بعشرة أواقٍ، ودس العشرة الباقية في جيبه.. جمع عليه أطراف درّاعته وجلس على شظية لبنة بجانب المرأة يحتسي الشربة وظهره للطريق ووجهه إلى بناية الجمعية.. شرب ببطء تاركًا جسمه يرتخي، وللنسيم البارد أن يخترق جسمه؛ لما تجرع آخر جرعة من القنينة وقف وتمغّط بجسمه رافعًا يديه إلى الأعلى حتى تمددت عضلاته، ثم استأنف سيره.

مرّ على مجموعة من الشيوخ جالسين أرضًا عند باب قدماء المحاربين، ذكّرته أوجهُهم المنطفئة بوجه محمود، ذلك الشيخ الأسود القصير الذي كان هو وأصدقاؤه من صبيان الحيّ يدفعون

له خمس أواقٍ ثم يتحلّقون حوله ليقلد لهم أصوات زخات الرصاص ودوي القنابل وهدير الماكنات وتغريد الحمام، وما شاؤوا من الأصوات، يصدرها من صدره الناتئ كأنها على أصلها، ويحكي لهم في كل مرة تلك الحادثة الوحيدة الماثلة في ذاكرته، لم يمحها الجنون ولا عتي الكبر.. يروي كيف مرّ الجنرال دغول بوحدتهم العسكرية وسلّم عليهم واحدًا واحدًا حين كان في زيارة لمدينة وجدة المغربية، ويقلد بمسرحيةٍ وتأثرٍ ظاهرٍ صوتَ الجنرال وصوتَ زوجته والجُمَل التي تبادلها معهما، والحركات العسكرية، والطريقة التي قلده بها الجنرال وسامًا.. كانوا يسمعون أنَّ محمودًا ذلك أصيب بالجنون في إحدى معارك حرب الجزائر بعد أن انفجرت بقربه قنبلةٌ تركت ثلاثة من زملائه أشلاء، وصكت أذنيه هو فأصيب ببَكَمٍ مدة طويلة، ثم خرج منه مختلَّ العقل وسُرّح على إثر ذلك من الخدمة في الجيش الفرنسي لما وراء البحار، ورجع إلى الوطن، فكان في مدينة (أمبود) أولًا، ثم نزح مع النازحين إلى نواكشوط في سنوات الجفاف، وبقي على تلك الحال يجوب الطرقات ولا يُعرَف له أهل.. يتسلّى به الأطفال، ويقتات على ما يُعطى له من بقايا طعام الأُسَر، وما تمتد له به يدٌ محسنةٌ من قطع نقدية؛ ثم اختفى، فلم يعد يظهر في حيهم.

لا تدرك هيلين بشاعة حضارة قومها، أوربما تتجاهلها، لكنه هو يدركها.. يستغلّون غيرهم ثم يرمونهم في الطريق قطع خردة خربة.. ماذا كان حصاد شباب هؤلاء المساكين؟.. كان دمارًا لشعوب برئية، ثم هذه الجلسة التعيسة أمام هذا الباب الصدئ.. خسروا أعمارهم وإنسانيتهم بخدعة كبيرة.. خدعة لا تزال مستمرة، ولن يرى أولئك المهاجرون المجندون الحالمون بالجنسية أمريكا.. ستُدمَّر بهم بلدانٌ وشعوبٌ بعيدة، ويعيشون حياتهم في تلك البدلة الرقطاء، تثقل كواهلهم الأسلحة التي يُدجّجون بها، ثم يموتون وحلوقهم غاصة بحسرة ضياع العمر والهوية.. لو رضي كاسترو أن يحمل السلاح من أجل أمريكا ويدمر به العالم الآخر لكان في نظرهم شجاعًا وبطلًا.. لكنه حين وقف في وجه قوتهم الفاتكة أصبح إرهابيًّا ودكتاتورًا وهمجيًّا متخلِّفًا.. كم من الأوصاف القذرة يصفونه بها جزافًا!

عرّج على مسجد (السمعة) ليصلي العصر، وأثناء الوضوء لاحظ أن أحد سيور فردة نعله اليسرى يتخلخل ويكاد ينفصل، وحين فرغ من الصلاة تضرّع إلى ربه أن يرزقَه رزقًا حلالًا ويغنيه.. ترقرقت في عينيه الدموع وقد طاف بذهنه ما مرّ به خلال السنوات الثلاث الماضية من مصاعب، ثم خرج وقد غمرته طمأنينة بأن الله

سيستجيب لدعائه.

في طريقه بحث عن إسكافيٍّ يُصلِح له نعله، ولم يفلح في العثور على من يقبل بإصلاحها بالعشر أواقٍ التي معه، فواصل سيره مع الطريق المار بين سوق الخضار ومسجد المغرب، وانحدر جنوبًا تجاه الميناء، ليظفر أخيرًا بشيخ هرم أعمش قد نشر أدواته على قارعة الطريق وجلس ينتظر من يصلح له نعاله.. أخذ الرجل يحفر في بقية غراء يابس حتى وصل إلى طبقة سفلية رطبة، وأخذ منها على لسان السكين ووضعها في فتحة النعل ليثبت بها السير الساقط.. كان زوجًا من نعال الجلد اشتراه مستعملًا بألف أوقية منذ ما يقارب السنة من سوق (التبتابة)، تلك السوق التي يُباع فيها المستعمل مما استغنى أصحابُه عنه من كل شيء، ومما هو مسروق؛ وكان قد تعود أن يشتري منها اللباس والنعال، ولكي لا يشتري شيئًا مسروقًا فقد كان يشتري من صاحب دكان ثابت، قدّر أنه لا يمكن أن يشتري المسروق، فمن شأن المضاربين في المسروقات ألّا تكون لهم دكاكين، وأن يكونوا باعة متجولين في السوق، يبيعون ويختفون بسرعةٍ، هربًا من أعين الشرطة.. كان ذلك في وجه عيد الأضحى، وقد أعطته النّاه خمسة آلاف أوقية، استطاع أن يحصل بها، على الرغم من زهدها، على ذينك النعلين ودراعة من (البزان) مستعملة معقولة،

غسل قميصه وسرواله القديمين، فكانت هيئتُه مُرضية في ذلك العيد.. ما كان يزعجه شيء أكثر مما تزعجه الحاجة إلى اللباس والنعال.. منذ أن تخرج من الجامعة صار يخجل من أن يمد يده إلى أهله.. دخلُ أبيه لا يفي بحاجتهم من الأكل فكيف بلباس شابٍّ عاطلٍ؟!.. حتى النّاه التي كانت وساطتَه إلى أبيه صار يخجل من أن يمد لها يده، ولاحظت هي ذلك فشقّ عليها، وأخذت تراقب أثوابه ونعاله بعناية، تصلح منها ما يمكن إصلاحه، وتلجأ إلى زوجها وأخيها حين يتحتّم شراء جديد، ويا فرحته حين تضع النقود في يده وهي تقول له: "خذْ.. اذهبْ إلى السوق لتشتري نعالًا.."

يومها تنقشع الغمة عن قلبه، ويبتسم لها خافضًا بصره، وهو يود لو يدفن رأسه في حجرها ويبكي كما كان يفعل في صباه، فتربت بيديها على ظهره حتى يهدأ.. لكنه ينسحب صامتًا، لا يريد أن يزيد عذابها بدموعه، كان عليه أن يبدو متماسكًا أمامها، وأمام إخوته، فهو رجلُهم الذي عليه المعوَّل بعد ذلك الوالد المرهق، لكن أي أمل له اليوم في أن يكون رجل الأسرة وقد نسجت البطالة خيوط حياته.

قال له الشيخ وهو ينفخ الهواء في النعل ليُذهِب لُزوجةَ الغراء: "فعالية الغراء تأتي من المعرفة الدقيقة بالكَمِّ المناسب للفتحة المراد سدها والوقت الذي يكون فيه جاهزًا لضم طبقات النعل

من حوله، وذلك لا يتعدى لحظة قصيرة، إذا لم تقدّرها بحسك واحترافك فإنكَ إما أن تسبقها أو تتعداها، وفي كلتا الحالتين يفسد الغراء ولا تعود له فعالية."

بدا له أن هناك تناقضًا بين منطق ذلك الشيخ وحالة أدواته الرديئة وجلسته في العراء على قارعة ذلك الطريق من أول مقاطعة الميناء، حيث تقلّ المنازلُ السكنية وتنتشر حيطان المخازن والمؤسسات المغلقة، وليس هناك من حركة سوى حركة السيارات والمارة العابرين؛ لكنه كان مستعِدًّا لسماع حديثه الفارغ ريثما يأخذ قسطًا من الراحة ويُتِمّ له إصلاح فردة نعله، ولمّا أتمّه دفع إليه قطعة النقد، وهبَّ مستأنِفًا سيرَه.

مرض سكينة

حين رجع عبد الرحمن مساء ذلك اليوم حبس نفْسَه في كوخ الضيوف ولم يخرج، وكان منزلُهم مؤلَّفًا من كوخين من الخشب والزنك وسقيفة من القماش والأعمدة الخشبية ومرحاض من قطع البراميل لا سقف له، وأحد الكوخين يُستعمل في النهار للضيوف وعند النوم يأوي إليه عبد الرحمن مع إخوته زينب والزهرة وعليّ، وأما الكوخ الثاني فكان مخصّصًا للوالدَين ينامان فيه ليلًا، وفي النهار للنساء، وقد تُرِكتْ السقيفة لحرارة الصيف وضغطه، وللضيف إذا بات عندهم؛ وفي تلك الأيام من شهر إبريل كانت الشمس تسطع وقت الزوال، فتنتقل حرارة الزنك إلى داخل الأكواخ، وقد أعادت أمُّه العالية، أو النّاه كما يلقبونها، تأهيلَ السقيفة باستبدال قماش من بقايا الملاحف والدراريع بما تَلِفَ من قماشها، وصاروا يلجؤون إليها زوالًا.

كان بين النوم واليقظة حين دخلت أمُّه ووضعت يدَها على جبينه

تجسّ حرارته، فوجدتْها طبيعية، لكنه يتصبّب عرقًا، وكان متّكئًا على جنبه الأيسر ووجهه إلى جدار الكوخ، فسألته:

"هل تتألم من شيء؟"

أجابها من دون أن ينظر إليها:

"أنا بخير، لكنني نعسان."

"أنت تتصبب عرقًا!"

"كنت ماشيًا على قدمَي، والشمس ساطعة بعض الشيء."

"اخرج إلى السقيفة لتجد الهواء البارد."

"الجو هنا بارد بما فيه الكفاية."

مرّرتْ يدَها على ظهر درّاعته فوجدتها مبللةً من العرق، فنادت ابنتها الزهرة وسألتها: "هل درّاعة نوم أخيك جاهزة؟"

ارتبكت البنت، ثم كأنما تذكرت، فقالت لها:

"لقد أنقعتها في الماء."

"وأين هي الآن؟"

"سأغسلها."

ثم ولت لكن أمها استوقفتها:

"لماذا لم تغسليها طوال هذا النهار؟"

كان أخوها الأصغر عليّ واقفًا في الباب، فقال لها:

"كانت مشغولة بلعب الورق مع صديقاتها عندما ذهبتِ أنتِ إلى أهل عبّود."

"كذبتْ، أيها المنافق."

"والله ما كذبت، وهل تنكرين أيضًا أنكِ ذهبت إلى أهل عبد الحي وقت القيلولة لمشاهدة مسلسل كاسندرا؟"

هجمت عليه، فراغَ منها، فهَوَتْ أرضًا، فأمسك عنقَها بكلتا يديه وضغطها بقوة حتى مس جبينُها الفراش، قبل أن يأتيه صوت عبد الرحمن ناهرًا: "أيها العاق.. تضربها وهي أكبر منك؟!"

تركها وابتعد وهو يقول:

"هي البادئة، والبادئ أظلم."

"ليس رجلًا من يمد يده بالضرب إلى امرأة."

جلست الزهرة محتقنة الوجه، تدعو على عليّ وتتوعده وقد انخرطت في البكاء، فقالت لها أمها متوعدة: "ليس ذلك هو مقدار جزائك، فما زال لي أنا معك حساب آخر على إهمالك."

قالت لها محتجّة:

"أنت التي تجعلينه يتجرّأ عليَّ لأنكِ تصدقين أكاذيبه.. الموت أريح من هذه الحياة."

"لن يصيبك شيءٌ إلا بسبب طول لسانك."

"لست أطول منه هو لسانًا ولا يدًا.. أسأل الله أن يقطعهما منه."

"سلبك الله الإجابة، أيتها العدوة."

مدّتِ الناه يدها لتضربها لكنها كانت قد ابتعدت، فقالت لها: "لي معك حساب، اذهبي وآتيني بدرّاعة أبيك."

قال لها عبد الرحمن:

"اتركيها له ليلبسها إذا رجع."

"لا بد لك من ثوب للنوم."

انتزعه أذان المغرب من نعاسه، فقام إلى المسجد، وبعد فراغه من الصلاة جاءه عليّ يلهث، وقال له:

"سكينة مريضة، وهي في المستشفى منذ ظهر اليوم."

"ماذا تقول.. سكينة أختي!"

"نعم.. لقد جاءتنا جارتُها عائشة منذ قليل لتخبرنا."

"وكيف تركتْها؟"

"تقول إنها بخير، وإن حالتها في تحسن."

كان مشهد أختيْه أمام السقيفة تبكيان وعائشة تحاول تهدئتهما كافيًا لجعله ينهار، لكنه تجلّد وسأل عائشة: "هل سكينة حية؟"

نظرت إليه باستنكار وقالت:

"أسأل الله لها طول العمر.. كانت تعاني من آلام وعالجوها، وقد

تركتها راقدة لترتاح."

"بشرك الله بالخير."

التفت إلى أختيه يلومهما:

"ما لكما تبكيان.. ألا تدعوان لها بالشفاء بدل هذا العويل."

خفَّ بكاء الفتاتين حتى أصبح نشيجًا خافتًا، عاد يسأل عائشة:

"ما الذي حدث لها؟"

"كنتُ معها البارحة إلى حدود منتصف الليل، كانت طبيعية، بيد أنها اشتكت مرة أو اثنتين من مغصٍ في معدتها، واليوم اشتدَّ عليها الألم مع الإسهال بعد أن تغدّت، فبعثت إلي فأخذتها إلى المستشفى، أعطوها فورًا حقنة مهدئة، وكلّفونا بفحوص عاجلة، لم تُظهِر الفحوصُ والحمد لله أيَّ مرض، وقرّروا أن يحتفظوا بها ساعاتٍ تحت المراقبة."

"ومحمد يحي، ألم يكن معكما؟"

"لا، هو غائب عنهم منذ يومين."

"وكيف أجريت لها الفحوص؟"

"وجدت طبيبة أعرفها وقبلت أن نجري الفحوص على ضمان بطاقتها، حتى نأتي بالنقود."

"هذا جميلٌ لا يمكن أن ننساه لك."

"سكينة تستحق أكثر من ذلك، وهي السباقة بالخير دائمًا."

"ولم تقل لك أين يمكن أن يكون محمد يحي؟"

"لا، ولا أظنها تعرف.. مسكينة أختك.. إنها تعاني كثيرًا في تربية الأطفال وهو لا يبالي.. لقد أصبح يتغيّب عنهم باستمرار، ولولا إخوته الذين تعودوا أن يأتوا إليها بالمؤونة الشهرية لقضت هي وأطفالها من الجوع."

قال مُسلِّمًا وهو ينسحب إلى الكوخ لكي لا تسقط دمعتُه أمام عائشة: "أسأل الله لها الفرج."

كان يعرف عن معاناة أخته أكثر من عائشة لأنه يعيشها بقلبه، فسكينة التي تكبره بأربع سنوات هي صنو روحه، وقد رعته في أدق تفاصيل حياته حين كان طفلًا صغيرًا.. لم يكن أحدٌ في حياته أقرب إليه منها، ولا حتى عبد الله الذي كان أخص أصدقائه قبل أن تفرق بينهما الحياة، ولا سليمان الذي تعرف عليه في الجامعة وأصبح هو الآخر قريبًا منه، ولا غيرهم من أبناء عمومته وأقاربه.

عادت العالية التي كانت قد خرجت تبحث في جاراتها عمن تسلفها أجرة التاكسي.. أصرّ الأطفال على مرافقتهم، وكان بكاؤهم يقطع الكبد، فتركهم عبد الرحمن ليستقلّوا هم جميعًا سيارة أجرة وقرر أن يمرّ بأبيه أولًا ليخبره بمرض سكينة.. استحيى أن يطلب من أمّه

نقودًا ليستقلّ بها سيارة الأجرة أو الباص.. لم تكن ترهقه المسافة بين الكبة والدكّان الذي يعمل فيه والده شمال سوق السبخة غير بعيد منها، فقد تعوّد على قطعها باستمرار منذ كان مراهقًا، وعلى مدى سنين عديدة لم يغير فيها والدُه مكان عمله، لكنه اليوم كان ينبغي أن يستقل سيارة حتى لا يتأخر عن سكينة.

حين بدأ يتوغل في الأزقة أحس أن أقدامه لا تسعفه كما ينبغي، وأنه عاجزٌ عن الإسراع.. سيطرت عليه كآبة قاسية، وخطر له أن يرجع إلى والدته لعله يجد عندها ما يُؤجّر به سيارة، لكنه لم يفعل.. سمحت ظلمة الزقاق بدمعة تحدرت حارة على خده، وسيطرت عليه الرهبة من معاينة سكينة وهي طريحة سريرٍ في المستشفى.. كان إحساسه بالعجز قاهرًا، لا يخفّفه إلا أن يذكّر نفسه بأنه ذاهبٌ إلى أبيه ليتولى أمرها، لكن إلى متى سيظل ذلك المسكين يتولى أمورهم؟ وهو نفسه بحاجة إلى من يتولّى أمرَه، بعد أن حفرت عجلاتُ الزمن أثارَها في جسده المُرْهَق.

الجرح الشاهد

جفل من صوت كلب نبح قريبًا منه، في مكان لم يعهد فيه كلبًا، فقد حفظ عن ظهر قلب تلك الأزقّة ومواقع كلابها وعددها، وما تسلم إليه من طرقات بين الأحياء الإسمنتية في الميناء، لأنها كانت طريقه اليومي إلى الثانوية، ثم الجامعة؛ وأسلمته الطرقات الجانبية إلى طريق الحمير الممتد من (كبة المربط) شاقًّا عرض مقاطعة الميناء، حتى ينتهي في شارع كندي، ويعج هذا الطريق بضجيج عربات الحمير الناقلة لنساء السوق جيئة وذهابًا.. كانت الحركة لا تزال في عنفوانها، وقد بدأت النساء رحلة العودة إلى منازلهن، واختلطت أصوات السائسين بلغط النساء وأزيز ماكينات الطحين وتسجيلات محلات الأشرطة ومحركات السيارة وصيحات الأطفال وهم يستغرقون في لعب الكرة أو (الغميضة)، ودخان أفران بائعات (بنية) وسمك (الياي بوي) المقلي، والغبار المتصاعد من الطريق الطيني تحت ضوء المصابيح، يلف ذلك كلّه بغلالة داكنة

تثير حساسية عبد الرحمن، فتغشاه نوبة من السعال، يزيدها سوءًا الرائحة المنبعثة من المقالي، وقوة البخور الإفريقي يتسرب من بعض المساكن المفتوحة على الطريق.. فجأة دوت في مسامعه فرقعة قوية صكت أذنيه، فارتجف فؤاده وجفل رعبًا، ثم سكن روعُه عندما رأى الشرارة في السماء وسمع الأطفال يضحكون ويفرون مبتعدين بمحاذاة حائط مسجد قطر، وعرف أنها مفرقعة نارية نصبوها كمينًا للمارة ليرهبوهم بها.. لم يكن يخيفه شيء أكثر مما كان يخيفه صوت المفرقعات والانفجارات، فقد لازمه منها رعبٌ منذ أن انفجرت بين قدميه إحدى قنابل الغاز المسيل للدموع، رماها عليهم شرطيٌّ حينما كانوا يشاركون في مظاهرة الاحتجاج على عدوان أمريكا على ليبيا سنة 1936، وقد وجد نفسه في مواجهة سيارة الشرطة التي اندفعت بسرعة لتشتت الصفوف الأمامية للمظاهرات، وكان هو على طرف، وبغباء طفولي انتهز فرصة اقتراب السيارة منه فأطلق تجاهها حجرًا ارتطم بجسمها ارتطامًا مُدوّيًا، جعل السائق يضغط على المكبح بقوة، ليتقافز الجنود تجاهه وهو يولي هاربًا، والتفت فرأى أحد الجنود وقد طوح تجاهه بقنبلة انتهت عند قدميه، ولا يعرف من أين وجد تلك القوة التي استطاع بها أن يقفز قفزة طويلة حمله فيها الهواء مسافة أمتار حتى انطرح بعيدًا،

ثم نهض مستأنِفًا جريه من دون أن ينتبه للرضوض في جسده، ولذلك الجرح فوق حاجبه.. ظل يعدو وواحد من الشرطة في إثره، ولا ينسى شجاعة صديقه عبد الله الذي كان يعدو أمامه ويتوقف ليراقبه، وحين تأكد من أن الشرطي سيمسك بعبد الرحمن هاجمه بالحجارة حتى عرقله ونجا عبد الرحمن.

مر في طريقه بالمكان الذي خلصه فيه عبد الله من الشرطي.. كان ذلك أمام مبنى الإطفاء في الميناء، ذلك المبنى الذي أُنشئ ليكون فيه فرع من الحماية المدنية، غير أنها لم تدخله قط، وقد حُوِّل إلى محلات تجارية.. توقّف واستدار إلى اليسار ليلقي نظرة على ذلك الزقاق الضيق، حيث اندفع هو وعبد الله ليفلتا من الشرطي، بدا المكان مظلمًا في تلك الساعة.. لو تجرأ ذلك الشرطي على دخول الزقاق في إثرهما لكان أمسك به لا محالة، لأنه انهار بمجرد أن خرجا من الزقاق وسقط مغشيًّا عليه.. شكر للزقاق ضيقه واستأنف سيره.. تحسّس مكان الجرح على حاجبه.. لا تدرك هيلين أن بينه وبين أمريكا دمًا وجرحًا غائرًا.. كان صبيًّا في الصف الخامس الابتدائي، وكانوا قد دخلوا لتوهم الفصول في الفترة المسائية حين اقتحم المدرسة بعضُ الفتيان وهم يصيحون: "إضراب.. إضراب.. إضراب."

وهاجموا الفصول الخشبية بالحجارة، فحدث هرجٌ اضطر المعلمون معه إلى ترك الأبواب مشرعة لأفواج التلاميذ المذعورين.. هكذا وجدوا أنفسهم في الطريق يهتفون مع الهاتفين: "تسقط أمريكا.. يسقط المجرم القاتل ريغان.. تحيا ليبيا.. تسقط إسرائيل." لم يكونوا يعرفون شيئًا عمّا يدور، لكن الحشد استهواهم بهتافاته الحماسية، وكان يزداد في كل مرحلة ويتقدم مع الطرق الداخلية لأحياء مقاطعة الميناء، حتى التقوا عند مسجد قطر بحشود تلاميذ الثانوية وجماهير من الناس.. تحركت الأفواج بسرعة مع طريق الحمير، ودخلت طلائعهم شارع كندي المؤدي إلى قلب العاصمة، حيث سمعوا أن التجمع الكبير سيكون في ساحة الاستقلال ومن ثم ستتجه المظاهرة إلى سفارة أمريكا وتدكّها، لكن تجمُّعًا من الشرطة تلقّاهم قبل أن يتجاوزوا مسجد السبخة وصدوهم وطاردوهم تلك المطاردة التي جُرِح فيها عبد الرحمن؛ وبمجرد انقطاع الشرطي عن مطاردته تهالك فوق ربوة من رمل البناء الناعم ظفر بها قريبًا منه.. كان مختنقًا وشبه غائب عن الوعي، وقد استبدت به موجة من السعال، أُصيب صديقُه بالهلع حين رأى وجهَه ملطَّخًا بالدم، وكان يحاول بصعوبة أن يسحب نفَسًا، وضع يده تحت رأسه ورفعه وهو يقول: "عبد الرحمن.. عبد الرحمن.. ماذا أصابك؟"

لم يُجبْه، وظلَّ محشرجًا يفتح عينيه ويغلقهما، والعرق يتصبب منه بغزارة؛ استنجد عبد الله بامرأة تجلس على باب غير بعيد منه، فأقبلت وبيدها كوب الماء، وأجلست عبد الرحمن، وأخذت ترش الماء على وجهه وتنش عليه الهواء بطرف ملحفتها.. بعد لحظات هدأت أنفاسُه واستعاد وعيه، فسقته المرأة جرعة من الماء، ثم ثانية وثالثة، وأمرته أنْ يغسل جبهته وأن يثبت إصبعه على جرحه ليوقف رشح الدم، وأوقفته واقتادته حتى أجلسته عن يسارها على طرف قطعة من حصير كانت تفترشها، قرب طاولة تعرض عليها البسكويت وحلوى الأطفال والتبغ والسعوط والمساويك وغيرها من الحاجات الزهيدة، تبيعها للمارة.. مالت المرأة عن يمينها ناحية باب منزلها، ونادت على ابنتها أن تجلب لها الماء واللبن، وبعد قليل خرجت صبية صغيرة تحمل في يدٍ قدحًا من الجير فارغًا وفي أخرى قنينة بلاستيكية خيط عليها غشاء من خنشات القنب يبرد فيها الماء، وحين وضعتهما بين يدي أمها رأت مشهد الدم على جبين عبد الرحمن، ففغرت فمها مذعورة، وتعلقت عينا عبد الرحمن بعينيها الواسعتين وبشرتها البيضاء النقية.. نهرتها أمُّها، فأسرعت إلى الداخل ثم عادت تحمل قنينةً فيها بعض اللبن الرائب، وعلبة سكر وكيس نايلون فيه شيء من مسحوق الحليب.. صبت المرأةُ الماءَ في

القدح وأضافت عليه من اللبن الرائب ومسحوق الحليب والسكر ثم خضّته بمِخَضٍّ عندها حتى استوى شربة من (الزريق) البارد وناولت عبد الرحمن، فشرب ودفع القدح إلى عبد الله.. سحب نفَسًا عميقًا وقد نزلت عليه راحة، فسألته: "ما الذي أصابك؟"
أخبرها أنهما اشتركا في المظاهرة، ووصف لها ما وقع له، فعلّقت: "هذا جنون، الأطفال الذين هم في سنكما لا يشاركون في المظاهرات."
قال مدافعًا:
"لقد أخرَجنا تلاميذ الإعدادية عنوة."
"ولم لم تذهبا إلى أهلكما عندما أخرجوكم."
أخذت تسألهما عن تفاصيل المسيرة، وهما يجيبانها.. استخدم عبد الله سعة خياله، فصوّر لها بطولاتٍ وهميّةً لبعض التلاميذ، بينما انشغل عبد الرحمن باختلاس النظر إلى الصبيّة؛ وجهها المدور الصبيح يتلون بألوان البراءة الجميلة مع هول المشاهد التي يصورها عبد الله، وعيناها الواسعتان اللتان تزيدهما جمالًا دهشة الموقف.
عادت المرأة تسأل عبد الرحمن مداعبة:
"هل ذهب عنك الخوف؟"
"لم أكن خائفًا."
"أستطيع أن أداويَك، لكن ذلك سيكون مؤلمًا."

"هل ستكوينني بالنار؟"

ضحكت من خوفه، وقالت:

"لا.. بل سأضع عليه المسك والسعوط."

"كثيرًا ما عالجتني أمي بهما."

سألت عبد الله: "هل تستطيع أن تثبّت يديه حتى أضع له الدواء؟"

قالت ابنتها وهي تنظر إلى ساعديه العاريين، وكان يلبس قميصًا قصير الكم: "أنا أستطيع أن أثبّت إحداهما."

نهرتها أمُّها بصرامة وطردتها إلى الداخل.. تمنى لو أن تينك اليدين الصغيرتين احتضنتا يده، فسيتحمل من أجلهما الألم مهما كانت شدته.. أسلم المرأةَ رأسَه، فوضعته على وسادة بجانبها وأمالته على خده.. كان الجرح يعلو حاجبَه الأيسرَ قليلًا، ومع صبّ قطرات المسك أحسّ بالنار تستعر في لحمه، فتحرّك عنوةً وصدرت عنه وحوحة، لكنه غالبَ حتى هدأ.. لم يشأ أن يضعف بين يدي والدة تلك الصبية الجميلة، وقد قالت له: "عليك أن تكون رجلًا."

وضعت السعوط، وشيئًا فشيئًا خمدت الحرقة، وظلت المرأةُ تضع أصابعها على مكان الجرح منتظرةً أنْ يمتص السعوطُ بللَ المسك ويلتصق بالجلد، وشقّت شريحةً من طرف ملحفتها، عصبت بها على الجرح.. فتح عينيه أخيرًا، وكانت جهته تجاه الباب، فلاحظ

من خلال فرجته عينَ الصبية وهي تراقبه، رجع ببصره إلى المرأة فإذا هي منهمكة في زجر عنز داجنة اقتربت من بضاعتها، رجع ببصره إلى الصبية وتبسّم لها وغمز لها بعينه، فأزاحت عينها عن الفرجة ثم ما لبثت أن عادت تسترق النظر، فوجدته بالمرصاد لها، فانسحبت ثانية ثم عادت ثم انسحبت.. تباطأ في القيام، لكنَّ عبدَ الله استحثّه، فنهض وشكر المرأة وودّعها، فقالت له متهكّمةً ومحذِّرة: "هذه المرة كان مجرد جرح.. لكن في المرة القادمة قد تكون سنًّا أو عينًا، لا قدّر الله."

وعدها، وهو يعرف أنه يكذب عليها:

"لن أشارك في المظاهرات بعد اليوم."

لم يُقدَّرْ له أن يرى تينك العينين الجميلتين ثانية، فقد مر من ذلك المكان بعد أسابيع فلم يجد المرأة ولا ابنتها، ثم تعوّد أن يمر بين فترة وفترة، لكنّ تلك المرأة الطيبة لم يعد لها أثر هناك، وقد اختفت طاولتها.. أخفى الأمر عن عبد الله مخافة أن يسخر منه ويفشي أمرَه بين أصدقائه، وكانوا وهم أطفال يتهكّمون على كل شيء، وقد عُرِف عبدُ الله ببراعته في السخرية اللاذعة، يتّخذُها سلاحًا لقمع الأطفال حين يعيّرونه بعنقه الطويل وأنفه الكبير البارز جدًّا. وعندما أعيته طريقة يراها بها.. أراد أن يستعين بعبد الله لجرأته ودهائه، فطلب

منه يومًا أن يرافقه إلى سوق السبخة بحجة أنه ذاهب إلى خاله، وحين كانا في رحاب حيها ذكّره بتلك المرأة وقال له:

"ليس من الوفاء أن ننسى جميلها."

"معك حق، لنمرّ بها، لعلنا أيضًا نشرب من زريقها الخاثر الحلو."

"يا لك من حيوان، لا تفكر إلا في بطنك."

"وأنت أيها الإنسان، فيم تفكر؟"

"أنا، على الأقل لا أفكر في بطني."

"ربما تفكر في شيء آخر!"

"وما هو."

"أنت أدرى."

حين دخلا الساحة المطلّة على المكان الذي كانت تجلس فيه المرأة لم يجدا لها أثرًا، فقال له عبد الرحمن كأنما يستنجد به: "ماذا نفعل؟"

وكأنما قد قرأ ما يدور في ذهنه، فقال له:

"كم ستدفع لي إذا أوصلتك إليها؟"

"ألا يهمك أنت أيضًا الوصول إليها؟"

"هل تظن أنني لا أعرف فيمَ تفكر؟"

"وفي ماذا أفكر؟"

"في الصبية."

أصرَّ على الإنكار، فقال له عبد الله بتحدٍّ:

"هيا، وسوف نرى أيّنا الكاذب."

تبعه حتى وصل إلى باب المنزل، فأشار إليه أن ينتظره، ودخل من دون تردّد، وغاب عنه، لحظات ثم عاد يحمل كوبًا من الماء دفعه إليه وهو يقول:

"لم أجد فتاتك، لكنني وجدت فتيات زنجيات أجمل منها، وأمهن أيضًا كريمة."

"هل أنت جاد؟"

تأمل المكان ليتأكد من أنهما لم يخطئا المنزل، فقال له عبد الله مبدِّدًا الشكَّ: "هذا بالضبط هو المكان الذي التقينا بهما فيه."

قال وهو يخفي حسرته: "هيّا بنا إذًا."

أحاط عبد الله عنق صديقه بيده، وقال له بسخرية: "لا تبكِ يا صديقي، سوف نجدها."

أبعد عبد الرحمن يدَه وابتعد وهو يقول بتوتر:

"أنت غبي."

"لا تغضب يا عزيزي، إنما كنتُ أمازحك."

أعاد عبد الله الكوب إلى أصحابه وغادرا المكان.

ضجة

كان عبد الرحمن قد تجاوز شارع كنيدي سائرًا مع الطريق المار بمحاذاة مسجد السبخة الكبير ثم سوق السبخة في اتجاهه إلى المستشفى، وقد سكنت الحركة حول السوق إلا من تلك الضجة غير العادية التي تناهت إلى مسمعيه.. رفع بصره فإذا أمامه تجمع من الناس في وسطه حركة دائبة تحت الأنوار الخارجية لدكاكين السوق، ورأى بين الجمع شرطيًّا يهشّ على الناس بحزامه في محاولةٍ لفضّ التجمع الذي لا ينفضّ عن موضع إلا ليشتبك في آخر، ورأى امرأةً سوداء طويلةً وقد نزعت طرف ملحفتها عن رأسها وتمنطقت به، وهي تصول في الجمع هادرة، وبعض الرجال يعترضون طريقها أينما اتّجهت.. تحاشى المعمعة، ورأى على مقربة منه فتاةً زنجيّةً تُراقب المشهد، فتضحك تارة وتضرب يدًا بيدٍ تارةً أخرى.. شجعته ملاحتُها وضحكتُها، فسألها بالحسانية مع لكنةٍ زنجية مقصودة، وفاجأته فصاحتُها حين ردّت عليه.. عرف منها أن سبب الحادثة هو

شجار بين صبيّين، وأن تلك المرأة تريد أن تنتقم لابنها من الصبي الآخر وأمه، ووصفت له فتكها ببعض الرجال الذين حاولوا صدّها، وكيف أنها انتزعت من الشرطي هراوتَه، وغير ذلك من التفاصيل التي كانت تسردُها بكل حواسها وببهجةٍ صافيةٍ لا تفارق وجهها.

شكرها وواصل طريقه معرِّجًا شرقًا بمحاذاة السوق ومبتعدًا عن الضجة.. أضاء مشهدها وهي تتحدث إليه جانبًا سحيقًا من نفسه.. أحس كأن نسمة باردة تهب عليه فتملأ رئتيه بهواء نقي، على الرغم من جو السوق الراكد إلا من غبار الحافلات على ذلك الشارع المترب.. أعجبه حديثها البريء الذي ترسله بأريحيّة خاليًا من أي معنًى غير معنى الجمال، فيدخل القلب من دون مقدمات، وتمنى لو ظل يراقب حركة شفتيها الغليظتين وهما تنفرجان وتنقبضان وتبرز من بينهما أسنانُها البيضاء الطويلة المتناسقة، وتتسع الجبهة وتضيق مع تلك الحركة، ومع كل ذلك تتحرك اليدان في رقصة متناسقة، فتبدو كأنها جوقة متكاملة من الحركة والنغم.. لماذا تتغطرس عليه هيلين وهي لا تساوي نعل تلك الفتاة الزنجية البسيطة؟!.. يظنون أن الجمال والحضارة هما ملْكٌ لهم وحدهم، وليس للآخرين منهما أيّ حظّ.. أيّ غرور.. حضارتهم لم تُصنَع إلا بالدم، وجمالها وهْمٌ يتلاشى أمام أزيز الطائرات المدمرة

والصورايخ العابرة للقارات والسلاح النووي الذي جعلوا العالم أسيرًا له.. لن يستطيعوا أن ينزعوا من أذهان الشعوب الأخرى حقيقة فظائعهم، وبشاعة تصرفاتهم، وسيبقى ذلك الجرح في جبينه شاهدًا على تلك الحقيقة.

أهل بوكبش

حين وصل عبد الرحمن إلى الدكان لم يجد أباه، فواصل سيرَه عابرًا مقاطعة (السبخة) تجاه مستشفى نواكشوط المركزي، مؤمِّلًا أنْ يكونَ أبوه قد سبقه إليه.. انقبضت نفسُه وأحسّ بقلبه يكاد يخرج من فمه عندما دخل المستشفى فوجد الساحة أمام جناح الحالات المستعجلة غاصة بأناسٍ على وجوههم هلعٌ وترقُّب، ورأى فتيات يبكين وحولهن نساء ورجال يسندونهن ويصبّرونهن، وداخل ممرات الجناح رأى حركة غير عادية للممرضين والأطباء، وعرف من خلال السيارات الفارهة المتوقِّفة في الساحة أمام الجناح، ومن خلال لباس الزوار ووجوههم النضرة، أنّ شخصيةً سامية دخلت إلى الجناح؛ وسمع جانبًا من حديث رجلين يقفان غير بعيد من الباب عن حادث سيارة، لكنه لم يكن مستعِدًّا للانتظار حتى يسمع بقية الحكاية، فقد ضاعف المشهدُ قلقَه على سكينة، وأزعجه صدُّ البوّاب له عن دخول الجناح، على الرغم من أن الوقت كان وقت

زيارة، لكنْ، يبدو أن هناك إجراءات غير عادية بسبب وجود تلك الشخصية، وحين رأى البوّابُ قلقَه وإلحاحه عليه سأله عن اسم أخته وصفاتها، فلما وصفها له، قال له البواب:

"لقد نُقِلتْ أختُكَ إلى جناح الحجز المؤقَّت."

"هل أنت متأكد؟"

"أليست هي تلك الشابة القادمة من بوحديدة؟ إنها تشبهك تمامًا لولا اللحية والشارب."

تعجب من دقة ملاحظة ذلك البواب.. وجه الشبه بينهما لا يخفى على ذي فراسة، وكانا قبل أن ينبت شعرُ وجه عبد الرحمن ربما يشتبهان على الناس إذا غطى الواحد منهما كامل جسده وترك وجهه، وهما أكثر إخوتهم شبهًا بالناه.

زال عن عبد الرحمن شيءٌ من الهم عندما تجاوز عتبة باب جناح الحجز المؤقَّت، ورأى أباه خارجًا من إحدى الغرف صحبة طبيبٍ وهو يحمل في إحدى يديه أوراق الفحوص والوصفات وفي الأخرى كيس أدوية، وقد ولّياه ظهريهما متّجهَين إلى غرف المرضين في آخر الدهليز.. توقف عند باب الغرفة التي خرجا منها، فكان قفا أمه هو أول ما وقعت عليه عيناه، فعرفها من ملحفتها وقامتها، كانت واقفة عند رأس السرير في حلقةٍ جُلُّها من النساء، فزع لتحلّقهن حول

السرير وهن واقفات، وتهيّب الدخولَ للحظةٍ ونظراتُه تخترق فروج الحلقة بحثًا عن سكينة، أسعفتْه أمُّه التي حانت منها التفاتةٌ فلمحته داخلًا، وأفسحت له مكانًا ليقف قبالة أخته.. كان جسدُها هامدًا وعيناها مغمضتين وعلى وجهها شحوب مخيف.. أحس بوخز الإبرة المغروسة في معصمها، فتملّكه الذعر، لكنه وجدها تتنفس بانتظامٍ فاطمأنَّ إلى أنها نائمة، واستجمع نفَسَه وزفر بقوة، ثم أجال بصره في الحاضرين الذين كانت أعينُهم تتابعه، وأخذ في السلام عليهم فردًا فردًا.

لما فرغ الغوث من إجراءات الدواء والحجز خرج يستروح أمام مبنى الجناح، وأخذ معه عبد الرحمن، ومشى به إلى جهةٍ شبه خاليةٍ من البناء، يصلُها الضوءُ خافتًا، وقال له من دون أن يتوقف أو ينظر إليه: "لقد استدنت عشرين ألف أوقية على أجل أيامٍ فقط، وليس عندي ما أسدّدها به، لذلك أريدك أن تذهب إلى سيد أحمد الكبير وتبلغه بمرض أختك، وأنني أريد منه أن يجمع لي من العشيرة ما يسدّ تكاليف دوائها."

ها هو وجهًا لوجهٍ مع اللحظة التي كان يهرب منها دائمًا.. الركن الذي استند إليه ينهار ليتركه على حافة الهاوية، بماذا سيتشبّث بعد اليوم؟.. بماذا سيحتال على حقيقته التي تجاهلها دومًا؟ توسّل

إليه: "أبي، أرجوك.. أعفني من هذه المهمة، فإني لا أستطيع."
ابتعد ودخل في ظلمة الأشجار الممتدة بمحاذاة حائط المستشفى، بينما بقي أبوه واقفًا دَهِشًا، ثم ناداه: "ارجع إلى هنا.. إلى أين أنت ذاهب؟"
قال وهو يختفي خلف الشجرات: "أريد أن أبول.."
في الظلمة ترك لعينيه أن تسيحا ولنشيجه أن يتواصل.. لم يسبق أن رأى أباه يلجأ إلى أحدٍ في حاجة من حاجات معاشهم.. كان دائمًا ذلك الرجلَ الطويلَ القويَّ الذي كانت أمُّه تحكي له بطرافةٍ نوادرَه معه وهو صغير لم يعقل الأحداث، حين كان يدلي له من طول قامته الموزة فيتطاول هو ليمسكها، فلا يستطيع، فيأتي بالوسادة ليقف عليها فتميد به، فيقول له بيأسٍ: "يا ويلي أنت طويل.. أعطني موزتي."
فيضحك الوالد ثم ينحني بها إليه، فيختطفها ثم يجري بعيدًا كأنما ظفر بصيد لا يريد أن يشاركه فيه أحد.. كان يسند ظهره الصغير إلى هيكله الضخم ثم يدفع سكينة بيديه بقوة فيكبها على وجهها بعيدًا، على الرغم من أنها كانت تصرعه حين يكون وحيدًا..
انتزعه صوتُ أمه وهي تناديه، فمسح دموعه وخرج إليها من بين الأشجار، ولما رأته بادرته:

"أبوك قلِق عليك، ويقول إنك فررت من بين يديه حين كان يحدثك."

"لقد قررت أن أبحث من الغد عن عمل أيًّا كانت طبيعتُه، حتى لو اضطررت إلى أن أعمل حمّالًا."

"أسال الله أن لا يحْوِجك إليه.. لا تستعجل حتى تجد ما يناسبك."

"وما الذي يناسبني غير أن أعمل بائعًا في دكان أو سائس عربة ماء أو غيرها من مهن المقهورين."

"أنت تحمل شهادةً، وستجد عملًا مناسبًا."

"نحن في بلد ليس للضعيف ولا الفقير فيه وظيفة، لأن الوظائف توزع على مقياس النفوذ والغنى."

"لا تقل هذا.. لقد حصل لك سيد أحمد الكبير من بعض مريديه النافذين على وعود بوظيفة، وعبد العزيز من جانبه، يبذل جهده بحثًا لك عنها، ولا بد أن سعيهما ذلك سيثمر."

"منذ ثلاث سنوات وأنا أنتظر.. سيد أحمد الكبير سمعته طيبة، لكنه فقير، ولا أحد يهتم بطلبات الفقير، كما أن لديه من مشاكل أبنائه ما يشغله، وأما عبد العزيز فمجرد موظفٍ صغيرٍ في الحكومة، ولا يملك أي تأثير.. لقد انتهت أسرة أهل بوكبش.. انتهى ذلك الزمن الذي كان الناس فيه يطلبون بركتكم، ويتقرّبون إليكم

بالهدايا طلبًا لصلاح الأمر.. البَرَكة الوحيدة اليوم هي ما في جيب الإنسان من نقود، أو ما تحت كرسي وظيفته من منافع."

"لا حول ولا قوة إلا بالله.. سلم الأمر لله وتوكل عليه فإن فرجه قريب."

"قد فعلت، لكنني سأنخرط في أول عمل أجده."

"دعك من هذا الآن، وهيا لتسلّم على عمتك وأقاربك."

"عمتي! أنا مشتاق لرؤيتها."

"سيد أحمد الكبير هو الآخر موجود."

كان أهل بوكبش يُعرَفون بأنهم أبناء الوليّ الصالح محمد عبد الرحمن بوكبش، ويُروى أنه سُمّي بوكبش لأنه كان لا يركب الدواب في أسفاره، ولكن حين يخرج مسافرًا يأتيه كبشٌ فيحمل عليه سجادة صلاته وإبريق و(كنَاشه) الذي يجمع فيه شوارد العلوم، ويظل ذلك الكبش يتبعه حيثما سار، حتى يعود إلى أهله فيختفي الكبش؛ ويُقال إنه دابة من دواب الجنة، لا يأكل ولا يشرب، كما قيل أيضًا إنّه أحدُ أتباعه من مسلمي الجنّ يكون في خدمته في أسفاره. وكان للشيخ بوكبش مريدون يتلمسون دعاءه ويتبركون بزيارته، وورث أبناؤه عنه ذلك، فكان الناس يطلبون بركتهم ويهدون لهم الهدايا والنذور وحلوان الحجابة، لكن سنوات

الجفاف الشديدة التي ضربت البلاد جعلت الكثير من أهل البادية، ومنهم أسر أهل بوكبش، ينزحون إلى نواكشوط الفتية آنذاك، وفي نواكشوط تغيرت أشياء كثيرة في حياة تلك الأُسَر، فقد تبعثر معارفهم ومريدوهم، ولم يعد لهم كبير ارتباط بهم، وكان عليهم هم أن يواجهوا واقعَ المدينة الذي لا يعترف إلا بالوظيفة أو رأس المال.

محمد عبد الرحمن بوكبش هو الجد الرابع للغوث والد عبد الرحمن، وقد ولد لبوكبش ابنٌ سماه الغوث وبنت تزوجت وهاجر بها زوجها إلى تيرس ولم يعرف نسلها، أما الغوث الكبير فقد ولد له ولد وحيد سماه باسم أبيه، وهو الذي انحدرت منه أُسر أهل بوكبش الحاضرة، فقد ولد له عبد العزيز والد الغوث وأخته مريم، ثم ذو النورين والد العالية وأخويها، ثم سليمان والد سيد أحمد الكبير، ثم ابنان آخران وابنتان، لكل منهم ذرية، وأصبح سيد أحمد الكبير منذ عقود مقدم أسرة أهل بوكبش وصاحب شؤونها العامة، وذلك بفضل حكمته وكرمه، وعلى الرغم من أنه زاد على السبعين إلا أنه ما زال متماسك البنية، قويَّ الذهن، وكان في زمن البادية يمتلك قطيعًا من البقر ومئات من الغنم، ولم يكن يبخل على أقاربه بشيء، لكن سنوات الجفاف أتت على أغلب ماشيته، فباع ما تبقى منها وانتقل إلى نواكشوط في بداية السبعينيات، وحصل على قطعة

أرض في مقاطعة التيارت، وافتتح دكانًا صغيرًا لم يعمر طويلًا، فقد انشغل عنه بالسياسة وانخرط في حزب الشعب، واستطاع في ذلك الوقت، بفضل سمعته القديمة وعلاقاته الجديدة، أن يصل إلى منصب المسؤول الجهوي للحزب على مستوى مقاطعة التيارت، لكن انقلاب الجيش على حكم الرئيس المختار ولد داداه ذهب بسلطة الحزب وهيبة رجاله، فتضاءل شأن سيد أحمد ولم تقم له قائمة إلا بعد تكوين الحزب الجمهوري في عهد الرئيس معاوية، لكن المنافسة على الصدارة كانت قوية، وواجه سيد أحمد رجالًا من أصحاب المناصب السامية في الدولة، وآخرين من أصحاب المال، ولم يستطع أن يحصل على موقع كبير، ولا حتى أن يصل إلى مستشار بلدي في مقاطعته، فقنع برئاسة حي صغير، يضمن له علاقة بحاكم المقاطعة وعمدتها، والنافذين السياسيين الجدد فيها، مما يمكّنه من حل بعض مشاكله وبلوغ قليل من مطالبه.

تدفق أقارب أهل الغوث في تلك الليلة على المستشفى بعد أن انتشر فيهم خبر مرض سكينة، وكانت زيارة المرضى مفتوحة من الساعة السادسة وحتى العاشرة، وحين ضاقت بهم غرفة الحجز بسطوا حصيرًا من البلاستيك في ساحة فارغة قرب جناح الحجز، منزوية عن الأضواء، يتخذها زوار المرضى مكانًا للتجمع وشرب

الشاي أثناء أوقات الزيارة؛ جلست إحدى قريباتهم ووضعت أمامها مواعين الشاي وبدأت في إعداده، وقد جلبت الناه الفراش والمواعين تحسّبًا للمبيت في المستشفى، وأحضر بعض الزوار الحليب والسكر والشاي، وجاء آخرون بوجبات من الكسكس والمعكرونه، وصار كل من يأتي يبدأ بالاطمئنان على سكينة، ثم يخرج إليهم، وفي داخل الغرفة كانت أمه وأبوه وعمته وبعض كبار السن من أقاربه.

بدا عبد الرحمن نصف واعٍ لما يدور من أحاديث.. نشيج زينب يزيد من انقباض نفسه.. أمرَها بعصبية أن تسكت، انقطع الصوتُ لكنها ظلت تدفن رأسها في حضن إحدى قريباتها، وجسمها ينتفض.

قالت إحدى القريبات إنها قابلت إحدى الممرضات في الجناح وإنّها أكدت لها أن حالة سكينة لا تبعث على الخوف، وأنها تعاني فقط من نقص في الطاقة بسبب سوء التغذية، وسيزول ذلك مع الحقن المغذية التي تُحقَن بها الآن.

علّقت أخرى: "ما قالته أؤكده لك أنا، فسكينة لا تعتني بصحتها، وليست لها شهية للطعام."

إنه يعرف أكثر منهم ما الذي أصاب سكينة، وكيف تبدلت من تلك الشابة النضرة النشيطة إلى جسد يذوي باستمرار.. حين كانا

صغيرين كانت تتبارى معه في الأكل، وكان بالطبع يغلبها، لكنها لم تكن عازفة عن الطعام بل كانت تحبه.. في سن المراهقة فصلت أمُّه أكل سكينة عن أكل بقية أفراد الأسرة، وأعطتها الأولوية في الطعام، تضع لها وجبتها في صينية خاصة لتأكلها وحدها، وقد ورثت عن الناه الطول وتناسق القوام، وفي يوم زفافها حين عادت من (حمام البخار) بدت بشرتها ناعمة تقطر نضارة، وأثارت إعجاب الكثير من النساء حتى خاف عليها من أن تصيبها العين، فكان في سره يقرأ عليها المعوِّذتين، وفي أيام محمد يحي الأولى وولائمه المتكررة بدأت تخفف من الأكل، وقد سمعها مرة تهمس لمحمد يحي ممازحة، وكان يلح عليها لكي تزيد من الأكل: "لا أريد أن يترهل جسمي بالشحم فتتخطاني عينك."

توقفت ولائم محمد يحي، وجاء الأطفال وأمراضهم وجوعهم.. لم تعد تجد ما تأكله.. ذبل الجسم وذوى كما تذوي أوراق الصيف.. تناهبتها الأمراض حتى أسلمتها إلى هذه الحالة.

يحرك قريبُه عبد العزيز الجالس جنبه يده بالفتيلة الجلدية المهدبة الحاملة لمفاتيح سيارته، فتصدر صريرًا يبعث على الثقة فيما يقوله: "لقد قال لي الطبيب المشرف عليها إنّها تعاني من فقدان للسوائل، وإنّ الحُقن كفيلة باستعادتها لها، وسيخلون

سبيلها في الصباح."

ثم أضاف عبد العزيز منقلًا نظراته بين الحاضرين: "لا تقلقوا، حالتها مطمئنة، ثم إننا موجودون هنا تحسّبًا لأي طارئ."

ما الذي يستطيع هو أن يفعله إذا طرأ أي طارئ لأخته الحبيبة؟.. هل هذا ما كانت تنتظره منه، أن يجلس مكتوف الأيدي عاجزًا ويترك الآخرين يتولّون أمرَها؟!.. هذه هي اللحظة التي كانت تدّخره لها، فما فائدة حياته إذا كان عاجزًا عن إغاثتها؟.. لا شك أنها لو رأته في قعدته الكسيحة تلك فستندم على تلك الترنيمة التي كانت تترنم بها له يوم أن كان فتًى يافعًا، وكانت تتوسم فيه أن يرفعها عاليًا وأن يحقّق لها أمانيها كلّها.

ترنيمة سكينة

بمجيء سيد أحمد الكبير إلى المستشفى ولقاء الغوث به انزاح عن كاهل عبد الرحمن همٌّ كبير، فلن يضطر إلى الذهاب إليه لإبلاغه بطلب والده، وبعد انتهاء وقت الزيارة تقرّر أن يبيت عبد الرحمن وابن عمته مع سكينة، ولم يكن يُسمح لأكثر من مرافق واحد بالمبيت مع المريض، لذلك نقلا فراشهما إلى الممر عند ظَهر إحدى بنايات المستشفى، المقابل لجناح الحجز، حيث تناثر أفراد من مرافقي مرضى ذلك الجناح، واستقرا قرب رجل نائم كانا تعرفا عليه أول الليل، إذ يرافق والده الهرم المحجوز في الغرفة التي فيها سكينة.. اتّفق عبد الرحمن مع قريبه أن يتناوبا على السهر على مراقبة سكينة، وآثر أن تكون نوبته هي الأولى على أن يوقظه إذا غلبه النعاس.. مر الوقت لكنه لم يوقظه، فلم يشأ أن يترك سكينة وينام، غالبه النعاس جالسًا مسنِدًا ظهره إلى الجدار، وكلما أخذته غفوة هبّ فزعًا من كوابيس تراوده، يرى فيها تارةً نفسه وهو يتردّى

عاريًا من شاهق في هوة سحيقة، وتارة يرى أباه يناديه من قعر بئر عميقة، وأخرى يرى سكينة وهي تتلوى وتعوي عواء وأولادها عرايا يتشبثون بملحفتها، ثم رآها وهي في سرير المستشفى تبكي وتناديه فانتفض وأسرع إليها، فإذا هي هادئة نائمة؛ لاحظ أن الممرضين قد نزعوا عنها إبرة الحقن، فاستبشر بذلك.. أجال نظره في الغرفة، كان هناك سريران آخران أحدهما ينام عليه الشيخ الهرم وقد ولّى وجهه للجدار، وتدلى من تحت فخذه أنبوب ينتهي تحت السرير بمخلاة بلاستيكية يتجمع فيها البول، وعلى السرير الثاني تغفو إحدى النساء وقد احتضنت ابنتها الصغيرة المريضة، وأمسكت بأصابع يدها لتثبتها حتى لا تحيد إبرة الحقن المغروزة في زندها عن مكانها.. خيمت على الغرفة في تلك الساعة سكينةٌ بعثت في نفسه شيئًا من الطمأنينة.. جلس على الكرسي الملاصق لسرير أخته، ثم مد يده بحذر وسحب يدها برفق مبعدًا إياها عن أنفها ليترك لأنفاسها مسربًا.. ظلت نظراته معقودة بتلك اليد وهو يفركها بأصابع يده برفق، ويتفحص خطوطها ومسارات الدم في عروقها.. كم مرة تخلّلتْ شعرَ رأسه.. كم مرة فلَّتْه ونقَّته من القمل والصؤاب وغسلته ودهنته.. لا يذكر هل كانت النّاه تفعل به ذلك، لكنه يذكر ما كانت هذه اليد تفعله به.. ربما وكلته الناه إليها لترعى

نظافة جسده وثيابه حين انشغلت المسكينة بدورات متتالية من الحمل والرضاعة، كادت تقضي عليها، لولا أن الله رحمها، فتوقف عنها الحمل وهي دون الأربعين، وبعد سبع ولادات، مات منها جنينان وحيي خمسة، وكان ترتيبه هو الثالث بعد سكينة بأربع سنوات، فيها جنين سقط.. ألزمت سكينة نفسها به، وأعدت له العدة فكانت تحتفظ له بمشط وتشركه في صابونها ودهانات شعرها.

آه يا سكينة.. كم مرة عاد إليك معفر الرأس من الحصى فعنفته ثم أمسكت برأسه تشدينه، وفي لمح البصر تسكبين الماء وتمررين الصابونة ثم تبدأ الأصابع الحانية رحلتها خلال شعره.. أين دهان (الهيركير) أو (التوب هير) بعطره الفواح الذي كنت تدهنين له به، وأين (الفوازلين) و(الغلسرين) و(الميكزا بي) التي عودته أن تدلكي له بها أطرافه في ليالي الشتاء.. أين العطر الطفولي الذي كنت ترشين به ثيابه بعد أن تغسيلها بعناية وترتّقي ما فيها من خروقٍ بسبب العراك والشجار والقفز فوق الأعمدة والشبابيك.. من أين كنت تدبّرين ذلك كلّه وأنت في تلك السن الصغيرة؟! ولماذا تحرصين عليها هذا الحرص كلّه وتحفظينها من أن يلمسها الآخرون، وتجيبينهم حين يطلبون منك شيئًا منها: "لا أستطيع.. هذا لدحّاني."

كل واحد منهم يناديه باسم أو أكثر.. اسمه في الأوراق عبد الرحمن،

ويصر والده على مناداته بـ"محمد عبد الرحمن" تيمنًا باسم جده الولي الصالح، حتى إنه أحيانًا يناديه "الولي" أو "بوكبش".. أما النّاه فلا تستقر له على لقب واحد، فحين تريد تفخيمه تناديه بكامل الاسم، وحين تغضب عليه تناديه "عبيدو"، بالتصغير، وحين تدلّله تناديه اختصارًا "دحانْ"، وهو اللقب الشائع له في أوساط الأسرة والجيران.. إلا أنتِ وحدك ظللت تنادينه بذلك اللقب الحميم "دحّاني".. تستمرئين الاسم وتضيفينه إليك كأنه لك وحدك.. هل كل الأخوات هكذا أم أنك نسيج خاص؟ لكنك لم تكوني أختًا فقط، بل تنافسين أمَّه الحبيبة، وكنت الصديق المخلص على الرغم من وجود أصدقائه، وكنت المعلمة على الرغم من المدرسة.. كان يحفظ دروسك قبل دروسه، وتشرحين له ما عسر على ذهنه الصغير.. كنت تشجعينه على مغازلة البنات الصغيرات بعذرية وتراقبين ما يفعله ولا تسمحين له بالاعتداء عليهن، وحين راهق ولاحظتِ ميله إلى صديقتك عائشة كنت حازمة معه: "دحاني، لا تعلّق نفسك بعائشة، فهي أكبر منك، وهي مخطوبة لابن عمها.. انتبه لنفسك، فأنت لم تعد صبيًّا تلعب (الغميضة) مع البنات.. أمامك مشوار طويل قبل أن تفكر في النساء."

ثم أضفتِ بحزن: ".. فكّر في حالنا، نحن أسرتك الفقيرة.. أبوك

يكدّ ويتعب ليطعمنا، فكيف سيكون حالنا بعد عشر سنوات حين يشيخ ويضعف؟!"

غلبتكِ دمعتك وضممته إلى صدرك وأجهشت بالبكاء وأنت تقولين: "أسأل الله أن لا يحرمني منك، وأن يريني فيك ما أحبه."

هل كنت بذلك تلومين نفسك على الوقوف في وجه برعم الحب الذي تفتّق بين جوانحه، أم كنت تزئين لحال الأسرة؟.. جاهد ليمسك الدمعة التي كادت تسقط منه، ثم انسحب من بين يديك صامتًا مقهورًا، لكنه انصرف عن التفكير في عائشة، وشيئًا فشيئًا أصبحت مجرد صديقة لأخته.. مسكينة أنت يا سكينة، فعلى الرغم من عقلك سقطتِ في شراك محمد يحيى وسقطت معك الأسرة جميعًا.

كان محمد يحيى يحمل ملامح أبطال المسلسلات المصرية بلونه المائل إلى السمرة وقامته الطويلة النحيفة، أجعد الشعر من غير شدة، غليظ الشفتين، حريصًا على احتواء كل فرد من أفراد الأسرة بحبه، حتى الزهرة وعلي، لم يكن ينسى أن يجلب لهما هدايا أو فواكه أو حلوى أو أي شيء مهما صغر.. حتى جيران الأسرة أحبوه.. بدا كأنه الشاب الذي تستحقه سكينة فعلًا.. كان يعمل مع أخويه في دكان كبير ورثوه عن أبيهم مع عقارٍ في قلب المدينة، وكانوا ثلاثة ذكور

وبنتًا.. لم يفرح عبد الرحمن بشيء كما فرح وهو يرى دموع الزفاف تسقط من عيني أخته وهي تتشبث بملحفة الناه، قبل أن يدخلوها في السيارة التي ستزف فيها.. أزهار جميلة تفتقت في قلبه، وأخذته نشوةٌ وَدَّ معها لو أنه رقص ورقص حتى يسقط هامدًا.. ترقرقت الدمعة في جفنه وهو يراقب خطًّا جميلًا من الدموع يرتسم نازلًا على خدها والسيارة تتحرك بها، ونظراتها معلقة به هو والناه.. ما أجمل الدمع حين يكون فرحًا، وما أقبحه وأمرّه حين يكون حزنًا.

كان أول ما أقلق سكينة من محمد يحي كثرة أصدقائه وإسرافه في دعوات الغداء والعشاء التي ينظّمها لهم، بمناسبة وبغير مناسبة، وإدمانه لعبَ الورق.. لم ينفع معه نصحها له ولا لومها.. ظل يطمئنها ويقول لها: "فضل الله كثير، ولا تخشي شيئًا."

كان رأيها أن يدخر ما ينفقه عليهم للتخطيط لمستقبل الأسرة، وشراء قطعة أرض ثم بناء منزل ليسكنوه بدل أن يظلوا يدفعون مبالغ باهظة في الكراء، لكنه كان فرِحًا بما يقوم به.. أصبح المنزل لا يخلو من ثلاثة من الأصدقاء هو رابعهم لتكتمل حلقة اللعب متى اتّفق ذلك، من الليل أو النهار، وظل يجلب لهم أنواع الأكل والمشروبات، وبين الحين والحين كان يدعوهم إلى ذبيحة، وقد اغتنم أصدقاؤه الفرصة فكانوا لا يتورعون عن طلب النقود منه

تحت أي حجة، ولا يتوقف هو عن تلبية طلباتهم.

أحس عبد الرحمن بقلق أخته منذ الأسابيع الأولى لزواجها.. كان مساء جمعة قضاها معهم، وقد انهمك مع محمد يحي واثنين من أصدقائه في لعبة (البلوت) حين وقفت سكينة بباب الغرفة وقالت له: "دحاني.. هيّا، لقد حان وقت ذهابك."

فسألها محمد يحيى:

"إلى أين؟"

"إلى أهله.."

"ألسنا أهله؟!"

"بلى.. ولكن.."

كان عبد الرحمن قد وقف فبادره محمد يحي قائلًا: "اجلس.. هيا، لنواصلْ لعبنا."

قالت له سكينة: "ليس لديه وقت للعب الورق."

سألها بسخرية:

"هل حانت نوبته من الطبخ؟"

"لا، معاذ الله.. لكن وراءه دروسه."

"اليوم إجازة."

"دحاني لا إجازة له."

قال لعبد الرحمن:

"أختك تريد أن تشيّبك في هذه السن."

"أريده أن يتجنب العبث، ويتحمل المسؤولية."

لم يعلق، وخرج عبد الرحمن تشيّعه أختُه، ثم لحق به محمد يحي وفي يده درّاعة دفعها إليه قائلًا: "البسْ هذه."

تردد في أخذها، لكنّ أخته حثته وأخذت الدرّاعة وطوتها ووضعتها في كيس نايلون ودفعتها إليه مع كيس آخر وضعت فيه بعض اللحم والخضار ليأخذه إلى أمه.. كانت درّاعة من (الخميني) بزركشتها الجميلة وملمسها الناعم وبياضها الناصع، وتطريز جيبها البديع من يد زنجي محترف.. كانت كبيرة نسبيًّا لكن عبد الرحمن لم يكن بالقصير.. بدت جديدة لم يمسسها الماء والصابون، ولم يذهب عنها بريق المصنع.. لم يكن ليحلم بمثلها، وأقصى ما كان يذهب إليه ذهنُه هو درّاعة من قماش (الشقة) بتطريز ماكينة، وعلى الرغم من انشغاله طوال الطريق بوضع خطة للبسها تضمن طول أمدها، وتخيّله لردة فعل أصدقائه وزملائه في المدرسة حين يرونها، إلا أنه لم يستطع أن يطرد عن ذهنه ذلك القلق الذي ساوره وهو يستمع إلى الطريقة التي كانت سكينة ترد بها على تساؤلات محمد يحي والحزن الذي خيل إليه أنه رآه حينها في عينيها، وقد تأكد من

ذلك بعد يومين حين زارتهم، واستمع إليها خلسة وهي تعبّر للنّاه عن قلقها وخوفها من إسراف محمد يحيى في استضافة أصدقائه والإنفاق عليهم بلا حساب، وكانت نصيحة النّاه لها بأن لا تغالي في لومه وأن تعمل معه بالحيلة، وتبحث عن قطعة أرض أيًّا كان شكلها أو موقعها ثم تبرم صفقة شراء مع مالكها وتبلغ محمد يحي بذلك عندها سوف يستجيب لها ويوجه النقود لدفع ثمن الأرض؛ ويبدو أنها عملت بنصيحتها، فلم تمر ثلاثة أشهر حتى اشترت قطعة أرض وبدأا بناءها شيئًا فشيئًا، حتى صار منزلًا بحائط وحجرتين ومطبخ وحمام، وقد حفظ ذلك المنزل سكينة وأطفالها من التشرد بعد أن حدث ما كانت تخشاه، فقد طلب أخوا محمد يحيى منه ترك الدكان بعد أن خسر لمرتين متتاليتين، ذهب فيهما نصيبه منه.. كان محمد يحي أصغر إخوته، وقد توفيت أمه وهو صغير، وبالغ أبوه في تدليله، وسئم من المدرسة فتركها من الثانوية، وحين واجه الحياة بعد تركه للدّكّان لم تكن لديه حرفة ولا شهادة تؤهله للعمل فقعد في البيت حسيرًا.

سحب عبد الرحمن يده وترك يد سكينة تستريح على السرير.. ظلت عيناه معقودتين بأصابعها التي لم يبقَ فيها ما يزيّنها.. باعت الخاتمين واحدًا بعد الآخر، كانا آخر ما بقي لها من طاقم الذهب

الذي أهداها إياه محمد يحي عند الزفاف.

ما زال يتذكر دهشة أمه وفرحتها وهي تخرجه من عبوته وتتأمل مكوناته قلادة وقرطين وسوارين وخاتمين، وتكرر: "تبارك الله، ما شاء الله.. تبارك الله، ما شاء الله."

ثم أعادت القطع إلى العبوة بسرعة وأغلقتها، وعيون قريبات سكينة وصديقاتها مأخوذة، وهن يتناهبن النّاه لترهن إيّاه، وهي تبسمل وتستعيذ من الشيطان وتنفث ريقها في يمناها وترمي به من فوق الرؤوس الشاخصة إليها في جميع الاتجاهات، كأنما تطرد الشياطين، وتقول لهن: "ليس الآن سترينه عندما تلبسه سكينة."

قال لها: "دعهن يتأمّلن طاقم صديقتهن."

فردت عليه مؤنّبة: "ماذا تفعل أنت بين النساء؟"

كل ذلك الطاقم الجميل الثمين اختفى الآن وبقيت هذه الأصابع فارغة معرقة قد حفر عليها الفقر آثاره.. كان عقلها كبيرًا، حتى في لحظات يمكن لأي فتاة حالمة في عمرها الغض أن تسعد بها وتغتنمها من غير تفكير ثم تترك شريكها مع أول هزة، لكنّ همها كان أكبر من ذلك.. حلمت بما تحلم بها عاقلات النساء، زوج مدبّر وأولاد ومسكن يأويهم، بيد أن محمد يحي خذلها.. لم يكن يتقن مهنة يعتاش بها، فاكتفى بمهنة بائع في الدكاكين، وصار لا يطيل

العمل في الدكان الواحد، فكثيرًا ما يصرفه أصحاب الدكاكين حين يطّلعون على دفاتر الدَّين فيجدون أنه قد استدان في شهر أضعاف راتبه.

كانت مشاعره نحو محمد يحي مزيجًا من الغضب والشفقة، فهو لم يزل ذلك الشاب الكريم الذي أهداه أول درّاعة (بزاه) لبسها في حياته، وظل يتعهده بالهدايا بين الحين والآخر، من قميص إلى درّاعة إلى نعل إلى نقود.. غمره بكرمه، وبخلقه الهادئ الودود، لكنّ ما صار إليه من بطالة وعزوف عن البحث عن العمل ولزوم للبيت أزعجه.. فقد صار محمد يحي لا يخرج إلا نادرًا، وكلما ألحّتْ عليه سكينة في أن يخرج لطلب العمل فإنه يخرج ولا يعود إلا في الغد أو بعد يومين أو ثلاثة ويدّعي أنه كان في طلب العمل وأنه لم يجده، ومرة يدعي أنه حصل على وعد من أحد أقاربه أو معارفه، وأحيانًا يسافر خارج المدينة أيامًا مع زمرة من أصدقائه، فتجلس المسكينة وحيدة.. لعل أختَه لم تفطن إلى أرقه في تلك الليالي التي كان يقضيها معها ليؤنس وحدتها.. كانت عيناه تبيتان تحدقان في الظلام، وأنفاس أخته المنهكة كأنها صراخ استغاثة تصطك منه أذناه، وأصابع يمناه تجول تائهة في شعر رأس الصغير (سعيد) المندس في كمّ درّاعته وقد وسده ذراعه.. من لهذا الشَّعر اللَّيّن كأنه

زغب فرخ خرج لتوه من بيضته.. هذا الجسد الغض الذي لا يقوى على الجوع والمرض.. من يسمع صراخ سكينة المكتوم ودمعة قلبها الجريح، وأنين الجوع في أحشاء مريم الرضيعة، ويأس شفتيها من استخراج مصة حليب من أثداء يابسة كأنها أوراق صيف.. من غيره هو أو أبوه المسكين الذي لا يسدّ كدُّه رمقَ خمسة أفواه جائعة، فكيف له بزيادة العيال؟!.. كان الظلام رحيمًا تلك الليالي حين أخفى دموع عجزه التي كانت تنهمر على خده غزيرة حارقة، لكن ماذا كان بيده وهو فتًى يحضّر للبكلوريا؟!.. لم يكن له من أمل غير الاجتهاد في دراسته، فانكبّ عليها، غير أن المشوار كان طويلًا.

"دحّانِي، يا دحّاني.. يا شِيخْ القومانِ.. لاَهِ ترفع لي شاني.. وتحَقّق لي الاماني".. آه أيتها العزيزة.. كم خذلك دحّانك.. ما أقسى أن يخذل العزيزُ عزيزًا كان يعدّه لأيامه السود.. ترى، كم عصر قلبها الألم وهي ترى ذلك المستقبل الزاهر الذي رسمته لدحانها يتضاءل ويضمحل حتى لا يبقى منه سوى شبحٍ لشخص هزيل، وورقة شهادة (متريز) كئيبة ستأكلها الفئران في قعر صندوق (الأهلة الحمراء) الحديدي المتهرئ، الذي يقال إن أمه حملته معها من بيت أبيها مع ما حملت من المتاع حين زُفَّتْ إلى والده.. هل كان جديرًا بتلك الأحلام الجميلة؟.. لقد جنَت عليه سكينة حين كانت تردد

على مسمعيه تلك الترنيمة، وتحبّر كلماتها بصوتها الحنون فينتشي طربًا ويصدق أحلامها الواهمة، ويظن أنه سيكون سيد القوم يومًا ويحقّق لها ما تتمناه. لم يستفق إلا وهو قابض على الوهم بعد أن ذبح ذلك الأستاذ الملعون أحلامه أمام عينه وعلى رؤوس الأشهاد، ولا أحد يستردّ له حقه.. هي التي دفعته للّهاث وراء الوهم يتمدد بين جوانحه ويكبر حتى يتملّكه، فيحيل كيانه إلى وهم يترنح على الأرض.. وها هو ذا أمام سرير مرضها يتساقط كورقٍ يابسٍ نفضته شجرةٌ مهجورة عن ظهرها فتناثر تحتها ذابلًا.. ها هي تحت نظراته المحطمة طريحة جوعها وألمها، هادئة هامدة كأنما تستعدّ لرحيل أخير.. كبرت خيوط الحزن يومًا بعد يوم، فرسمت على جبينها فصول حياتها البائسة، وأحالته إلى شحوب مخيف، كأنه صحراء عطشى، وذهبت بتلك الوضاءة التي كانت على الدوام تشع من وجهها.. ظل يطرد تلك الرغبة في ترك الجامعة والتفرغ للعمل من أجلها ومن أجل أطفالها الصغار، كان يحتمي بالوهم الذي ركّبته في رأسه بترنيمتها الحالمة.

تحركت سكينة في السرير واستدارت إلى الجدار منقلبة على جنبها الأيمن، ومن جديد سوّى لها الملحفة على رأسها وكتفها ثم تركها تواصل رقدتها، ووقف وتمدد بقامته وذراعيه إلى الأعلى لينشّط

أعصابه، ثم استدار ليخرج، وحانت منه التفاتة تجاه المرأة وابنتها، فوجدها مستيقظة، فبادرها:

"كيف حال البنيّة؟"

"أحمد الله على أنها نامت، فقد كانت متألمة أول الليل."

"الحمد لله، أسأل الله لها الشفاء."

"آمين، وجزاك الله خيرًا.. كيف حال أختك؟"

"هي كما ترين نائمة منذ مساء الأمس، أظنها الآن في حال أحسن."

"يمكنك أن تذهب لتنام، وسأوقظك إذا احتاجتْ إلى شيء."

"شكرًا لك، لن أنام لكن سأتمدد قليلًا."

استلقى على ظهره بجانب ابن عمته.. تنفس بعمق كأنما يطرد من صدره كآبة الذكريات، وكرر في نفسه: "سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله، الله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله."

كان يحاول أن يستل نفسه من تلك الهواجس، ويسرح بفكره بعيدًا في ملكوت الله، علّ روحه تهدأ قليلًا، لكن شخير الرجل النائم قريبًا منهما كان بين الحين والآخر يخترق أذنيه كالانفجار، فيقتلعه من سرحانه ويردّه إلى هواجسه، ثم أخذ دويه في الابتعاد شيئًا فشيئًا، وانسابت نفس عبد الرحمن إلى أعماقٍ سحيقة، ورأى في النوم كأن سكينة تسير في بستان أخضر وترفل في

ملحفة جميلة تتضوع منها ريح المسك، وعلى جنبات طريقها تتدلى عناقيد العنب وعذوق التمر، وتمد يدها فتقطف منها وتأكل وترمي لصغيرها الذي يركض وراءها، ثم رآها تقترب من باب منزل أبيض، ورأى نفسه يستقبلها على عتبات الباب، فاتحًا ذراعيه، لكنه حين يحتضنها يجد فيها رائحة هيلين وعطرها، ويتلمس بيده الشعر الناعم المرسل على عنقها فيرسلها، وبحركة آلية يمسك رأسها بين يديه وينظر في ذلك الوجه الأبيض وتلتقي عيناه بعينيها الزرقاوين، يشع منهما ذلك البريق الذي لا يعرف كنهه، ويترك لعينيه أن تأخذا شِبعهما من رؤيته وأن تتمليا سحره.. هل صحيح أنها هيلين؟.. هل يمكن أن يمسك بها هكذا؟!.. لكن الزرقة لا يمكن أن تكذب، ليس في بنات عمه، ولا في هذه المدينة من تشع من عينيها تلك الزرقة الغامرة غيرها.. هيلين!.. لم تحاول أن تخلص نفسها منه، كانت ساكنة، وخُيّل إليه أن شفتيها تعلوهما ابتسامة، وخرق معه صوت أحد التلاميذ من خلفه يصيح به: "انظروا ماذا يفعل عبد الرحمن بالأستاذة."

وهبّ فزعًا وأنفاسه تتلاحق كمن أنهكه الجري.. فرك عينيه، وأخذ نفَسًا عميقًا، وظل جالسًا يحدّق في فراغ الممر.. اكتفى بالبسملة، ولم يشأ أن يتعوذ من الشيطان، فقد رأى أن ذلك الحلم، على

الرغم من غرابته، ليس سيّئًا، فهو متأكد أن المرأة التي رآها في الأول ترفل في ملحفة ويتبعها ابنها هي سكينة، وذلك الصغير هو سعيد؛ هي أخته سكينة، وذلك فأل خير لها.. لكن ما الذي حشر تلك (النصرانية) في حلمه؟!.. لماذا تطارده حتى في الحلم؟!

لم يُتعِب ذهنه في التفكير، فلا شيء يمكن أن يجمع بينه وبين تلك الأمريكية البيضاء، وليس في نومته البائسة على ذلك الحصير الأحرش الذي تخترقه برودة بلاط الممر ما يوحي بأي شيء يجمعه بها.. ليس ذلك سوى أضغاث أحلام.

استلقى على ظهره ثانية، وأغمض عينيه.. طرد صورتها من ذهنه، وبدأت الأشياء تتراجع، وبدأ يغوص في السواد، وفجأة توقّف عن الغوص، وقد قرع أذنه صوتٌ خافتٌ متصاعدٌ كأنه موجة ترفعه إلى السطح، ففتح عينه وأصغى.. كان نداء ضعيفًا يصدره ذلك الشيخ: "يا مالعينين.. يا مالعينين."

قام واتّجه إلى الغرفة، وحين خطا داخلًا بادرته المرأة وهي تشير إلى الشيخ الذي على السرير الثالث: "أيقظ له ابنه."

كان يتأوه بألم فاقترب منه ووضع يده على كتفه، وسأله: "ماذا تريد يا والدي؟"

سأله من دون أن ينظر إليه:

"أهذا أنت، يا مالعينين؟"

"هو هناك نائم، لكن قل لي ماذا تريد أولًا، وسوف أوقظه لك."

"أريده أن ينزع عني هذا الجهاز، إنه يؤلمني ولا أستطيع معه أن أتبول."

"سأنادي أحد الممرضين لينزعه عنك."

قال بحدّة: "إذا كانت ممرضة أنثى فلا أريدها.. أيقظ لي ابني."

في الطريق إلى غرفة الممرضين تعجب من الشموخ الرجولي لذلك الشيخ الهرم الخائر القوى، وعلى الرغم من ذلك ما زال يأنف من أن تلمسه طبيبة أنثى، يأنف لجسده المحلى بالوقار الرجولي من أن تعرّيه امرأة، حتى ولو كانت ستجلب له الشفاء.. هل يمكن مقارنة الألم بالعري أمام امرأة، أم أنها منسوجات الهالة التي يحيط بها الرجال أنفسهم هي التي تكابر مهما خرَقتها أسرّة الموت حتى آخر سلك في النسيج؟.. لقد أهانته هيلين عندما شبّهته سخريةً بكاسترو، أرادت أن تعري تلك الهالة، لكنه رفض ذلك كما يرفض هذا الشيخ النساء الممرضات.

أيقظ له الممرض وذهب ليوقظ له ابنه، ولما رجع وجد سكينة مستيقظة ترسل نظراتٍ ساكنةً تجاه سقف الحجرة، فأقبل عليها يطفح وجهُه بالبِشْر وهو يقول: "لك الحمد يا رب.. كيف حالك الآن؟"

قالت بصوت ضعيف وقد اتّسعت جبهتها بفرحة:

"في أحسن حال، والحمد لله.. ما هو الوقت الآن؟"

"قريب من الفجر."

جلس على الكرسي المحاذي لسريرها، فقالت له:

"يبدو أنني نمت طويلًا.. أليس كذلك؟"

"لقد أعطوك منوِّمًا لتستريحي."

"هل تعرف شيئًا عن مصير الأطفال؟"

"لقد ذهبت الناه البارحة لتأخذهم معها."

"لو أعرف فقط حال الصغيرة آمنة، فقد كانت هي الأخرى تعاني من الإسهال."

"الناه كفيلة بها، فهي كما تعلمين خبيرة أطفال."

قالت تمازحه:

"من أرضعتك أنت سنتين لا بد أن تصبح خبيرة أطفال."

"لقد كنت هادئًا في مهدي، كما قالت لي الناه."

"لكنك كنت كثير الأمراض، وقد لازمك في شهور فطامك إسهال لا ينقطع، وقد جربتْ لك كل أنواع الأدوية التقليدية."

"أرجو أن يوفقني الله لبرّها."

"لا يقدّر الأبناء معاناة أمهاتهم أثناء تربيتهم."

خيل إليه أن عينيها تترقرقان بدمعة، فغير الموضوع قائلًا:
"إنهم ينتظرون حضور الطبيب المختص ليوقع على خروجك."
"الحمد لله.. ألم يأتِ أحدُ أعمام الأطفال لزيارتنا؟"
"لا، ربما لم يعلموا بدخولك المستشفى."
"هذا مؤكد، فلو كانت آمنة علمت بي لكانت الآن هنا."
"آمنة طيبة وحنون."
"وتحب أبناء أخيها كثيرًا.. لا تمر مناسبة إلا وتأتيهم بلبسة لكل واحد منهم هم الثلاثة."
أنقذ صوت المؤذن الموقف قبل أن يتطرّق الحديث إلى محمد يحي فيؤلمها ذلك، فقال متجاوبًا معه: "عزّ وجلّ.."
مد يدَه إلى علبة الحليب على الطاولة القريبة من السرير وقال لها:
"هل ستشربين كأسًا من الحليب؟"
"أريده مع الشاي."
"سأعد لك كأسًا من الشاي لم تشربي مثلها في حياتك."
قالت بسخرية: "أصدّقك تمامًا، لأنها ستكون أردأ كأس شاي أشربها."
ضحك وهو يسألها:
"متى ستقتنعين بأنني أجيد إعداد الشاي؟"
"لا أتمنى لك أن تجيده، لكنني أتمنى أن تكون لك زوجة جميلة

تجيد الشاي والطبخ وأشياء أخرى كثيرة."

أشاح بنظراته بعيدًا عنها.. أحس بانقباض، وبقي محدِّقًا في فراغ باب الغرفة، وخياله يتبع كلماتها المجنحة في فضاء تبدّى له بعيدًا.. هناك في غيبة الزمان والمكان، حيث الخيال وحده يستطيع أن يبني له منزلًا جميلًا كذلك الذي رآه في الحلم ويسكن معه فتاة بيضاء جميلة بملامح قومه، وليست تلك (النصرانية) التي غشي عينيه بياضها فهز قلبه، وقد أضافت كلمات سكينة إلى حلمه معنًى له لم يتبين ما هو، لكنه أحس به كوعد بأمل قد يتحقق يومًا ما.. ترك خياله ينعم للحظات في تلك الآفاق البعيدة ويؤلف ملامح تلك الزوجة كما يشاء، ويخطط جلستها للشاي على هواه.

انتبهَ إلى نظراتها المصوبة نحوه، فانتشل نفسه ووقف قائلًا:

"ستفوتني الصلاة إذا بقيت أتابع أمنياتك المحوّمة في الفضاء."

"هذا هو أنسب وقت للأمنيات، وقت استجابة الدعاء.. إذا صلّيت فتمنَّ على الله ما شئت، ولا تنسَ أختك."

"سأفعل ذلك، بإذن الله."

استدار عبد الرحمن جهة الشيخ المريض فوجده قد هدأ، وما زال متّكئًا على جنبه وجهته إلى الحائط، وابنه جالس عند ظهره يتمتم بأدعية ويداه تضغطان بهدوء على أكتاف أبيه، ونظر إلى السرير

الآخر فوجد المرأة قد نامت وابنتها صاحية تنظر حولها، فرفع يده محيّيًا إيّاها، فابتسمتْ وأجابته بحركة ضعيفة من يدها الحرة، ثم خرج إلى المسجد.

مظالم عبد الرحمن

استبد به النعاس فلم يستطع عبد الرحمن أن ينتظر بداية الدوام حتى يشهد إخلاء سبيل أخته كما وعدهم بذلك الطبيب المشرف على الجناح، وترك تلك المهمة لأبويه اللذين وصلا مبكّرًا.. كانت الساعة السابعة والنصف صباحًا عندما تحركت الحافلة من أمام المستشفى المركزي بعد دقائق من الانتظار لم تظفر فيها براكبٍ غيره.. أسند ظهره إلى شباك المقصورة الأمامية ومد رجليه مع المصطبة الخشبية الممتدة على طول الحافلة، أراد أن يغتنم تلك المسافة ليغفو، لكن ضغط السائق المفاجئ على المكبح رمى به على أرضية الحافلة، ولولا أن يديه سبقتاه إلى المصطبة المقابلة له لكان رأسُه اصطدم بالإطار الحديدي لتلك المصطبة وتفجّر منه الدم.. انتفض واقفًا وأمسك بعمود السقف وانحنى على شباك المقصورة وصاح بالسائق: "هل أنت مدرك لما تفعله؟.. أتريد أن تقتلنا؟!"
نظر إليه من مرآته الوسطى، وقال له:

"ليس هذا مكانًا للنوم."

"أعرف أنه كوخ من الحديد الصدئ، لكن ذلك لا يعطيك الحق في أن تجازف بأرواحنا."

لم يرد عليه السائق، فتراجع وألقى بجسمه على المقعد متعجِّبًا من هدوء أعصاب ذلك السائق، إذ لم يعهد السائقين إلا متشنجين متأهبين للهجوم بالعصي أو المواسي، ولأتفه الأسباب، وقد سمع وشاهد الكثير من شجاراتهم التي تنتهي أحيانًا بالدم، حتى إنه شاع مرة أن سائقًا ذبح شابًّا جهارًا نهارًا لا لشيء إلا لأن المسكين حاول أن يهرب من دون أن يدفع تذكرة الرحلة التي لا تتجاوز عشرين أوقية.. أدرك أنه هو أيضًا صار يغضب لأسباب تافهة، وأشفق على نفسه من ذلك، وعزم على أن لا يترك ذلك السلوك يستولي على نفسه، وأن يكافح ليعود إلى وضعه الطبيعي، إذْ كان يتمتع بمزاج معتدل يساعده على تحمل المواقف الصعبة، لكنه في قرارة نفسه كان يائسًا من العودة إلى ذلك الوضع.. أزعجه دخان السيجارة الرديئة التي يدخّنها المحصِّل الذي يقف متعلّقًا بمؤخرة الحافلة، نصفه في الداخل والنصف الآخر في الخارج، لكنَّ رائحةَ سيجارته تنفذ من نوافذ الحافلة التي ذهب زجاجُها، فأصبحت مفتوحة على البرد والحرارة والدخان وغبار الطريق وروائح المدينة، وقد أصبح عبد

الرحمن منذ أن ترك السجائر وهو في الجامعة لا يطيق رائحتها، ويجدها كريهة، ويتعجب كيف كان يدخّنها، وجد من غير اللائق أن يدخل مع المحصّل في مشادة بعد الذي كان بينه وبين السائق، وهو يدرك أن المحصّلين أكثر وقاحة وعدوانية من السائقين، لذلك آثر السلامة والصبر.

على طول الطريق لم يظفروا بأي راكبٍ آخر، على الرغم من أنهم توقفوا عند السوق الكبير، ومحطة العيادة المجمعة، ومسجد المغرب.. في الاتجاه الآخر كان الناس في كل مرحلة ينزلون ويركبون.. أما في وجهته فلا أحد غيره، ومن يتجه إلى تلك الأحياء الشعبية في هذه الساعة؟! كل الناس ينطلقون منها في الصباح الباكر تجاه وظائفهم وحرفهم وتجارتهم ومختلف أعمالهم، يخرجون كلهم.. هو الوحيد الذي لا يمتلك وظيفة ولا تجارة.. هو الوحيد الذي يسير في الاتجاه المعاكس في مدينة تسير جميعها في اتجاه واحد، وكأنما تلفظه بعيدًا عنها.. أما يكفيها أنها تركته دائمًا يعيش على الهامش؟! أما يكفيها أنها أسكنته في حي من الأخبية والقصدير والخشب؟!.. هل تريد أن تبعده أكثر من ذلك؟ وهو الذي أحبها وأخلص لها على الرغم ممّا كانت تقسو عليه به.. هو الذي خبر طرقاتها وطافت قدمه زواياها كلّها، وشيّدها بين جنبيه مدينة أحلام جميلة الأبنية،

خضراء نظيفة، نظفها خياله من كل ما فيها من قبح وقذارة، على كثرتها.. أرادها بريئة ودودًا، لكنها تأبى إلا أن تكون فاجرة قاسية.. تأبى إلا أن تذلّه وتسحقه.. لم يسمع في حكايات الأقدمين ولا المحدثين عن أم تقتل أبناءها أو تأكلهم، لكن أمه المدينة كل يوم تمعن في قتله وسحقه.. لم يكن ذلك بسبب خطأٍ ارتكبه، بل كان بسبب ذلك اللعين أستاذ النظم الزلزالية.. كان قد أعدّ نفسه ليكون الأول على دفعته في السنة الأخيرة من قسم الفيزياء في الجامعة، كما هي عادته في كل سنة، وفي يوم إعلان النتائج دارت به الأرض ولم تستطع قدماه حمله.. كانت عيناه تبحثان عن اسمه على رأس اللائحة التي علّقتها الإدارة على مدخل الفصل، لكن اسمًا آخر كان هناك، ما زالت حروفه محفورة في ذاكرته كأنها نقشت بمدية ملتهبة: الطيب ولد محمد.. نظر فوقه لعله يكون تجاوز اسمًا، ولم يكن في الأعلى سوى رأسية اللائحة تتوسط الورقة.. نزلت عيناه متعبتين إلى الاسم الثاني وقرأه: عبد الله ولد سيد.. انحبست أنفاسُه، ودَّ لو يكون اسمُه قد سقط من اللائحة كلها.. انزلقت عيناه وقد انطفأتا تمامًا على الرقم الثالث فإذا اسمه قابع أمامه في ذلة ومهانة.. أصابه الغم، ودارت به الأرض.. كان مستوى هذين الطالبين متواضعًا في السنوات الثلاث السابقة، لكنهما منذ

بداية تلك السنة أخذا يحصدان نقاطًا مرتفعة، ولم يكن خافيًا على الطلاب أن أستاذ النظم وراء ذلك الصعود، فهو قريبهما، ويسكنان في منزله، وكانت تلك أول سنة يدرّس فيها ذلك الأستاذ فصلَ عبد الرحمن، وعادة ما تكون الرتبتان الأولى والثانية محل منافسة شديدة في السنة الأخيرة، لأن الوزارة تمنح صاحبيهما منحة إلى الخارج لمتابعة دراساتهما العليا، ولم يتوانَ ذلك الأستاذ عن أن يرفع قريبيه إلى رأس اللائحة، مستعينًا ببعض أصدقائه من أساتذة المواد الأخرى.

انسلّ من بين زملائه ومشى بمحاذاة الجدار حتى تهالك منزويًا في أحد الأركان، وغشاوة من الغضب والألم تغطّي عينيه.. تبعه سليمان بعد أن وجد نفسه في الرتبة السابعة.. ثم جاء الآخرون واحدًا واحدًا، وبدؤوا يستنكرون تلك النتائج ويلعنون أستاذ النظم الزلزالية ومن تمالؤوا معه من الأساتذة، وطالب بعضهم بأن يرفضوا النتيجة ويتظاهروا أمام الإدارة، وعارض البعض ذلك.. لم يتكلم، كان كأنما يدور في دوامة، وودَّ لو بكى أو صرخ صرخة تزلزل الكونَ من حوله، لكنَّ حلقَه كان مسدودًا بغصّة؛ وفجأة سمع أحد زملائه يقول:

"انظروا.. ها هو ذا أستاذ النظم الزلزالية المجرم الغشّاش يتبختر غير عابئٍ بكم."

تصايحوا: "أين هو.. أين هو.. أين هو؟"

هبّ عبد الرحمن واقفًا وقد انقشعت فجأة تلك الغشاوة التي كانت على عينيه، وبحث عنه حتى رآه بكامل قامته يسير نحو البوابة، وكان يحجز بين مباني الإدارة والفصول الدراسية حائطٌ واطئٌ يمتد على طوله سياجٌ من حديد، فكانوا يرون الداخلين والخارجين من الإدارة.

قال أحد الطلاب: "سأتلقّاه عند البوابة لأعرف لماذا رسّبني، لقد اجتهدت وكان ينبغي أن أنجح."

أسرع الطالب خارجًا، فتبعه الآخرون وتحلّقوا حول الأستاذ الذي كان يهمّ بركوب سيارته، وانهالوا عليه بالأسئلة والاحتجاجات.. انهمك في فتح باب سيارته، لكنَّ حشدَهم حال بينه وبين فتحه.. شقّ عبد الرحمن ازدحام زملائه بعسر، وكان صديقه سليمان قد لاحظ الغضب على وجهه، وخاف أن يندفع إلى عمل متهوِّر، فتعمّد أن يسدّ طريقه، ولا يتركه ينفذ إلى الأستاذ، لكنه غافله حتى وجد منفذًا جانبيًّا، واستطاع أن يقترب من الأستاذ فأمسك بتلابيبه، وصاح فيه: "أيها الحقير الغشاش، لقد دمرت مستقبلي وسوف أدمرك.. ستكون نهايتك على يديّ."

كان شاخص البصر، ينظر وقد غشيت الظلمة عينه، فلم يعد

يرى سوى شخص الأستاذ الماثل أمامه، فرفع يده ليضربه بها، لكنَّ الطلاب حالوا بينهما وتكدسوا عليه حتى فكوا قبضته وخلّصوا الأستاذ منه، فركب سيارته وهرب.. كان جسم عيد الرحمن ينتفض بشدّة، وأنفاسه تعلو وتهبط، وقد أدرك أن الفرصة فاتته، وأنه لم يبلغ شيئًا مما أراد، فارتد إلى سليمان أمسك تلابيبه وأخذ يهزه ويشده بها، ليخنقه، وهو يقول له: "ما الذي حشرك في طريقي؟!.. لماذا تضيع عليّ فرصة الانتقام من هذا الحقير؟!"

بقي سليمان صامدًا يضحك بهستيريّة وهو يحاول أن يخلّص نفسَه من قبضته، وجاء بعض الطلاب ليخلصوه منه، فطلب منهم سليمان أن يتركوهما، وقال لهم: "خلوا بيننا، ليفعل بي ما يشاء."

وحين هدأ عبد الرحمن قليلًا انتحى به سليمان جانبًا وقال له:

"هل جننت؟.. هل تريد أن تُسجن وتفقد شهادتك؟!"

"أريد أن أخنقه بيدي حتى تخرج روحه، وليكن ما يكون بعد ذلك."

"لقد وقع ما وقع والمهم هو الشهادة."

"إذا حُرِمت المنحة فلا تهمني الشهادة."

"ما زلتَ شابًّا في مقتبل العمر، والفرص أمامك مفتوحة بلا نهاية."

"لن يهدأ لي بال قبل أن أنتقم منه."

"لن تنتقم منه ولن تراه بعد اليوم.."

أوقف سليمان سيارة أجرة نقله فيها إلى أهله في الكبة، وأبلغهم بالحادثة وطلب منهم أن يبادروا إلى الاتصال بالأستاذ قبل أن يتقدم بشكوى إلى إدارة الجامعة، فلجأ والدُ عبد الرحمن إلى أقاربه ومعارفه، وجمع وفدَ ترضية للأستاذ، لكنَّ عبد الرحمن ظلَّ مصرًّا على أنْ ينتقم منه وأن يتقدم إلى إدارة الجامعة بطلب لإعادة تصحيح أوراقه وأوراق الطالبَين، وعارض بشدة مساعي والده لترضية الأستاذ، لكنَّ الغوثَ كان قاطعًا ولم يقبل نقاشًا في الأمر، وقال له: "ليكن في علمك أن الشهادة ليست لك بل هي لنا نحن، ولن نفرط فيها."

أذعن لقرار والده وأدرك أن عليه أن ينسحب من القضية وينسى الأستاذ، ويترك الأمر لأبيه، الذي أثمرت مساعيه، فسحب الأستاذ شكواه، ونجا عبد الرحمن من العقوبة، وحصل على الشهادة.

فجأة استبدّت بعبد الرحمن نوبة عطاس أخرجته من شروده، كان ذلك بسبب العفونة الشديدة الناجمة عن روائح السمك والبهارات المنبعثة من سوق السمك والدواجن المحاذي لحدائق السبخة، حيث كانت الحافلة التي تقلّه قد انحدرت مع شارع السبخة ومرقت من بين الحدائق ومصنع الصابون، وقد غطت الأجواءَ رائحةُ السمك المعفن، والرائحة الخبيثة لمياه المجاري التي

تُسقى بها الحدائق، وغلالة الغبار الكثيفة التي تغطي الشارع في تلك الساعة، وقد أثارتها السيارات وعربات الحمير الكثيرة التي تحمل بائعات الخضار والسمك تجاه سوق مسجد المغرب، كانت الحركة على أشدها في تلك الساعة.. تفتح المدينة أبوابها للجميع، لكنها تلفظه هو خارج دورتها الطبيعية.. الأبواب كلّها أُوصِدت في وجهه.. لم يترك أي باب هو مظنة لوظيفة إلا وطرقه، لكنها جميعًا لم تفتح.. توعّده ذلك المتغطرس اغزافييه بأنه سيسعى لمنعه من التوظيف لدى شركات التنقيب الموجودة في البلد بعد أن اختلف معه وطرده من العمل، وقد قدم لكثير من تلك المؤسسات، لكنَّ ملفَّه لم يُقبل في أي منها، فأيقن أن ذلك الشيطان نفذ وعده.. كانت وظيفة استثنائية وملائمة لشابٍّ حديث العهد بالتخرج من الجامعة، ستفتح له آفاقًا جديدة لتطوير نفسه، وربما للشهادة.. أخذوه تحت التدريب لمدة ثلاثة أشهر، يُعتمد بعدَها موظَّفًا في المكتب، وبدأ العمل بحماس، ولم يمضِ أكثر من شهر حتى أتقن مختلف تفاصيل العمل، وأصبح قادرًا على أن ينوب عن زميليه المراقبين الأساسيَّين؛ لكنه في أول نيابة له اختلف مع اغزافييه، رئيس مكتب التنقيب، فقد طلب منه التوقيع على صيغة مزورة لمعطيات التنقيب عن الذهب في أحد القطاعات التي راقب فيها

التنقيب على مدى عشرة أيام، فرفض ذلك، فقال له اغزافييه:
"عليك أن تنظر إلى مصلحتك.. هذه مجرد معلومات في أوراق لا قيمة لها، وسوف نحتفظ بها لأنفسنا."
"مصلحة وطني فوق مصلحتي وفوق المصالح الأخرى كلّها."
"ما نقوم به لا يضر بمصلحة وطنك من أية ناحية."
"هل تظنني غبيًّا؟! ولماذا تريدني إذًا أن أوقّع على معلومات مزورة؟!"
رد اغزافييه بتشنج:
"المعلومات الصحيحة سنقدمها للحكومة الموريتانية، لكننا مرتبطون بشبكة دولية للمعلومات حول المعادن، ومطالبون بأن نقدم لها معلومات دورية عمّا توصّلنا إليه، ولأن لدينا شركة للاستغلال فلا نريد أن نتيح للشركات المنافسة أن تزاحمنا في استغلال المناطق التي نستكشفها، وأظنك معي في أننا أحقُّ من أي شركة أخرى باستخراج ما نقّبنا عنه وكشفناه، ومن يرضى أن يقتطف الآخرون ثمرة تعبه؟!"
"حسب معلوماتي فإن الحكومة الموريتانية هي من عليه أن يقدم تلك المعلومات للمكاتب الدولية، وليس شركتكم، ثم إنكم حسب الاتفاق ستكون لكم الأولوية عند تقديم طلبات الاستخراج."
"لن تفهم.. الأولوية لا تضمن لنا الفوز، فمن يدري، قد تضع

حكومة دولتكم شروطًا جديدة تصعب علينا، وتجد من يلبيها.. هذا يحدث كثيرًا في مثل هذا النوع من الاتفاقيات."

قال له بثبات:

"سيد اغزافييه، أنا متفهّم لهواجسك، لكنها لن تدفعني إلى التزوير."

"سأمنحك وقتًا لمراجعة موقفك، وأرجو أن تتذكر أنك على وشك أن تتقاضى راتبًا مثاليًا بالنسبة لأي شاب موريتاني في ظروفك، وهو قابل للزيادة بلا حدود، كما أنني سأكون عند وعدي في السعي لك في منحة لمواصلة الدراسة على حساب الشركة."

فتح عينيه على آخرهما، وأضاف: ".. شركتنا، يا سيد عبد الرحمن، شركة متطورة وتحتاج باستمرار إلى خبرات أناس متميزين يقدِّرون قيمة الربح والخسارة.. طاب يومُك."

أدار ظهرَه مولّيًا، لكن إجابة عبد الرحمن استوقفته:

"سيد اغزافييه، لا أحتاج إلى وقت للمراجعة، فموقفي لا رجعة فيه."

التفت إليه وسأله مهدِّدًا: "أتتحداني؟!.. ألا تعرف ما أستطيع أن أفعله بك؟!"

أجابه وهو يجاهد للسيطرة على أعصابه: "لقد استقلّت بلادي قبل أن أولد، وقد أمّم الرئيس المختار ولد داداه شركة معادن

الحديد (ميفرما) سنة 1974.. ينبغي أن يكون لديك اطّلاع جيّد على التاريخ."

قال وقد تملّكه الغضب:

"لكنكم ما زلتم بحاجة إلى مساعداتنا وأموالنا وخبراتنا.. ما زلتم في قبضتنا وتحت تصرّفنا."

"يا سيد اغزافييه، علينا أن نحافظ على الاحترام فيما بيننا، وألا ننزلق إلى هذا النوع من النقاش."

ردّ عليه اغزافيية والشر يتطاير من عينيه: "لم يعد بيننا أي احترام، وأنت مطرود من الآن، وأعدُك أنك لن تجد شركة واحدة للتنقيب تقبلك بعد اليوم."

عرف أن الأمر انتهى، فردّ عليه بالحدّة نفسها: "وأنا أعدُكَ أنت أنه سيأتي اليوم الذي نطردك فيه ذليلًا، ونؤمّم شركتك التي تستنزف بها خيرات بلادنا."

انتزعه من تفكيره دخول سائق الباص المفاجئ إلى اليسار مع منعرج شارع عرفات، وتوقفه أمام مجموعة ركّابٍ أخذوا يتدافعون داخل الباص، وإذا بالمحصِّل يطلّ عليه من إحدى فجوات الباص ويقول له:

"سنعود أدارجنا من هنا.. عليك أن تبحث عن باصٍ يوصلكَ إلى

المحطة."

"لكن، أنا..."

"من فضلك انزل، ولا نريد منك أي مقابل."

نزل على الفور، وقطع بقية المسافة على قدميه مبتهِجًا باستبقائه العشرين أوقية اليتيمة، التي زوّدته بها أمُّه، في جيبه، فها قد ضمن تذكرة رحلة قادمة.

الغثيان

لم تغرب على عبد الرحمن شمس ذلك اليوم الذي خرجت فيه سكينة من المستشفى حتى حصل بمساعدة خاله، الذي يعمل بائعًا في الدكاكين، على وظيفة بائع في أحد الدكاكين في الميناء بعشرة آلاف أوقية كراتب متدرب لمدة شهر، بعد أن فشل هو وخاله في إقناع صاحب الدكان بقدرته على فهم العمل من أول يوم، اعتمادًا على أن حجر الزاوية في عمل البائع هو السرعة في حساب الثمن ذهنيًّا وكتابيًّا، وهي أمور محسومة بالنسبة لعبد الرحمن الذي يحمل شهادة جامعية في الفيزياء، وكان منذ صغره بارعًا في الحساب الذهني بشكل باهر، لكن التاجر تعلل بكون البائع لا بد له من معرفة البضائع وأسعارها وفروقها، وأمزجة الزبائن وطرائق التعامل معهم، وهو ما يحتاج إلى تدريب لمدة ثلاثة أشهر، ونظرًا إلى مؤهلات عبد الرحمن فقد تنازل عن الثلاثة أشهر ووعده بأن يرفعه إلى الرواتب العادية للباعة، وهي خمسة عشر ألف أوقية،

بعد شهر واحد إذا أظهر مهارة في العمل؛ وقبل عبد الرحمن بالعمل معه على الفور حرصًا على تنفيذ عزمه قبل أن تضعف إرادته لمثل هذه المهنة، التي كان إلى الأمس كارهًا لها، ويعدها من مهن أبناء البادية الذين يعملون ثلاثة أشهر متواصلة، يستريحون مثلها.

اتّفق عبد الرحمن مع صاحب الدكان على أن يعمل من الساعة الثامنة مساء حتى الواحدة ليلًا، ومن السادسة صباحًا حتى الساعة الثانية ظهرًا، ويستريح في بقية اليوم، وتركه خالُه ليبدأ العمل من فوره تحت إمرة البائع الرئيس في الدكّان، واسمه شمّاد. أعطاه شمّاد جلابية وأدخله في المخزن الملحق بالدكان ليخلع فيه دراعته، كان الجلباب باليًا منكمشًا في مؤخرته مما يلي الساقين لكثرة ما لبس، لكنه كان حديث عهد بالغسل، وعندما لبسه وجده قصيرًا ينتهي أسفل ركبته قليلًا حتى إنّ رجلَي سرواله تتدليان بارزتين أسفله، وليس ذلك من الذوق، لكنه على كل حال أنسب للمهمة من درّاعة القماش البيضاء التي لا تلائم جو الدكان الكثير المواد والسوائل والغبار.

مرت الساعات الأولى سريعة، فقد كان انخراطُه في العمل بين المغرب والعشاء، وهو وقت ذروة البيع في الليل بالنسبة لأصحاب الدكاكين، فانشغل بمساعدة شمّاد.. حين خفّت الحركة جلس

شمّاد لإعداد الشاي وقرّب صينية العشاء ودعاه إلى الأكل، وكانت تأتي للدكان وجبتا عشاء وغداء من زنجية جارة له مقابل أجرة شهرية، وكانت الوجبة الواحدة تكفي لاثنين أو ثلاثة، حين تناول عبد الرحمن اللقمة الأولى أخذ وقتًا في مضغها وابتلاعها، فقال له شمّاد:

"لا تبدو متحمّسًا للأكل."

"لم أتعود على طعام الزنوج."

"طبيخهم أطيب من طبيخنا."

"لكنّ فيه الكثير من البهارات. "

"ذلك ما يعطيه نكهته.. يقال إن البهارات تحمي من مسّ الجن."

ضحك من غرابة الاعتقاد، وقدّر أنه ربما يكون اعتقادًا هنديًّا، لأن الهند، التي هي منشأ البهارات في العالم، يقال إنها أكثر البلاد انتشارًا للسحر.. أكملا عشاءهما، وقام عبد الرحمن خلف الكونتوار ليتولى البيع، وفي الواحدة أغلقا الدكان ودخلا إلى المخزن الغاصّ برصوص الخنشات والكراتين من كل نوع، بينها ممرات ضيقة لمرور الحمّالين، وفي مقدمة المخزن تُرِكت مساحة صغيرة للأكل والشاي والنوم.

فرش شمّاد مجموعة من الكراتين، ثم تناول من فوق رصّ من

الخنشات حصيرًا من البلاستيك، بسطها فوق الكراتين وعلّق: "الكراتين تمنع تسرب برودة الإسمنت إلى أجسادنا، والحصير فوقها يجعل الفراش ليّنًا."

ثم استخرج من خنشة من البلاستيك فضلة درّاعة بليت من اللبس فصارت تتخذ غطاء للفراش وبسطها على طول الحصير، وهو يضيف: "..أما هذه الدرّاعة فلمسها ناعم، وهي تجعل النوم أكثر راحة."

كان يقول كلماته ويتطلع بنظراته إلى عبد الرحمن، يريد أن يعرف ردة فعله على ما يشاهده، وكان عبد الرحمن واجمًا، يتابع حركة يدَيّ الرجل، لكنه فهم أن عليه أن يتجاوب مع تعليقاته، فقال له ممازحًا: "أنت خبير في مجال المفروشات الصحية، كان ينبغي أن تعمل في معارض المفروشات."

أجاب بزهوٍّ:

"سوف أعمل فيها عما قريب، لدي ابن عم ينوي افتتاح دكان لبيع المفروشات، وقد وعدني بأنه سيوظفني معه."

"هذا جيّد، سيتضاعف راتبك، وستنسى أوساخ دكاكين المواد الغذائية وروائحها الكريهة."

فاجأه بتعليقه: "يبدو أنك لا تطيق العمل في الدكاكين!"

أحس بالإحراج، لكنه لم يشأ أن يخفي مشاعره، فقال وهو يتجنّب أن يترك لديه انطباعًا بالتعالي: "يحتاج العمل فيها إلى صبر لا أظنني أمتلكه."

قال متعاطفًا معه:

"من الخسارة أنَّ شابًّا جامعيًّا مثلك ينتهي به الأمر بائعًا في دكان.. هذه مهنة لا يصلح لها إلا أنا وأمثالي من أبناء البادية الذين لا يحملون شهادة ولا يتقنون مهنة من مهن المدينة."

"نحن نعيش في غابةٍ الحياةُ فيها للأقوى والموتُ للضعيف."

"هذا وضع لا يبشر بخير لمستقبل البلاد."

تناول شمّاد من فوق الرصوص وسادتين اسودّ لون قماشهما بأدران الوسخ من طول ما استعملتا، ووضعهما على مقدمة الفراش مما يلي الباب متباعدتين بما يسمح بترك مساحة بين جسديهما أثناء النوم، وجذب من الخيشة ثوبين رثّين من أردية السرائر، دفع أحدهما لعبد الرحمن ليلبسه واحتفظ هو بالآخر، وقبل أن يُطفَأ النور نبه شمّاد عبد الرحمن إلى ضرورة أن يقضيا حاجتهما من الحمام قبل النوم لأنه بعد أن تغلق الأبواب ويمتد الليل لن يكون فتحها آمنًا؛ وكان الحوش الملحق بالدكان يضم حمامًا مستقلًّا ومجموعة من الحجرات تطل على ساحة مبلّطة

واسعة، وهذه الحجرات مؤجرة لخليط من العمال والبحارة والباعة المتجولين والخياطين الموريتانيين والأجانب، وقد نبهه شمّاد إلى ضرورة الحذر منهم لأنه لا يعرف عنهم سوى أن كلًّا منهم يسلِّم له ما يترتّب عليه من إيجار مقدمًا عند بداية الشهر، إذ إنّ الحوش هو ملك لصاحب الدكان.

قضيا حاجتهما وأحكما إغلاق باب المخزن بالمفتاح، وكان يغلق إلى الداخل، وفيه ذراعان حديديتان في الأعلى، معكوفتان عند نهاياتهما، ومثلهما في الأسفل، وهي بارزة بحيث تتجاوز سمْك الجدار بقليل، وقد استعرض شمّاد على كل زوج من الأذرع عمودًا حديديًّا يتعدى طوله حافتي جدار الباب فيصير كأنه مزلاج عظيم، يمنع اللصوص من فتح الباب أو ثني أحد مصراعيه، فلا يستطيعون اقتحام الدكان، وكان قد فعل الشيء نفسه مع الأبواب الأمامية.

لما رجعا إلى فراشهما أشار شمّاد إلى عبد الرحمن أن يتخذ موضعه من الفراش، وعمد هو إلى زر الكهرباء القريب من باب المخزن فأطفأ نور مصباح المخزن وجاء يتحسس مكانه بهدوء، واستلقى على فراشه وأخذ في تسابيح النوم وأدعيته بصوت خافت، ثم لم يلبث أن استيقظ على شخيره، وكان عبد الرحمن لا يزال يتململ في الفراش، لا يعرف أين يتّجه بأنفه بعد أن اخترقت أنفاسَه بقوة

رائحةُ العرق الكريهة المنبعثة من وسادته، واقشعرّ جلدُه من تخيّل عشرات الباعة العرقى وهم يتهالكون على تلك الوسادة كل ليلة، ويُغرِقونها بملوحة أجسادهم وعفن الروائح التي تتشرّبها تلك الأجساد أثناء ساعات العمل الطويلة بين ذلك الخليط من المواد والمعلبات بروائحها المختلفة، مع ما يتسرب إلى الدكان من غبار الشارع المترب الذي تثيره الحركة المتواصلة للسيّارات والحمير والناس على طول النهار، مما يجعل الهواء داخل الدكان ملوَّثًا بشكل دائم بطبقة من الغبار، اختلطت مع الوقت بأبخرة المواد ودسم الزيوت، غطت واجهة الكونتوار والرفوف والمواد القديمة في الدكان بطبقة سوداء، زادها بول الذباب على الرفوف وأعمدة السقف سماكةً، فأصبح المكان يثير التقزّز..

زينب مهووسة بنظافة الأثواب والأواني، تتبع عينها مكامن الوسخ في الأثواب والأغطية القماشية للوسائد والحشايا وتضعها في السطل الكبير لتغسلها بعناية، ولشدة اجتهادها في النظافة ظن والدُها أنَّ بها وسواسًا، فكان ينهاها عن ذلك، ويتوعدها حين يراها تغسل تلك الأغطية التي لم يكن يرى ضرورة لغسلها، ولا يرى فيه سوى أنه قطع من الصابون وبراميل مهدورة من الماء ترهق جيبه بمصروف زائد، فقطعة الصابون بخمسين أوقية، وبرميل

الماء بمئتين؛ لكنها كانت تحتال عليه فتنتهز فرصة غيابه لتمارس هوايتها الأثيرة، وتنشر غسيلها في زوايا لا تصلها عينُه، أو على حبل غسيل جيرانهم أهل عبود.

عمت القشعريرة جلدَه وبدأ يحك مناطق مختلفة منه، وزادها إثارة العرق الذي يطفح من جسده بسبب رصوص البضاعة التي تخنق المخزن وتمنع تسرب الهواء إليه، على الرغم من أن الجو في الخارج يميل إلى البرودة، أحس بالملوحة في حلقه وأمسك بطرف الرداء فمسح به على عنقه ليخفف العرق، علّ الحكة تنتهي، وعندما مرّره على وجهه عبّ أنفه من عفن تلك الرائحة المتحللة الرطبة بفعل تخزين الرداء المتّسخ في خنشة، كأنما هي غاز مضغوط كان ينتظر مسربًا ينفذ منه دفعة واحدة، وكان أنفُه المسرب الذي اندفعت داخلَه تلك العفونة، أحس بجفاف الحلق أولًا ثم بالريق اللزج يتجمع فيه، وبشيء حامض وحارق يرتفع من معدته التي بدأت تنقبض بتشنج، أصابه اختناقٌ مفاجئ، وفي لحظةٍ ما أحس بالموت يسري في كامل أعضائه، التي تصلبت تمامًا، ثم فجأة هبّ جالسًا يسابق دفعات القيء التي اندفعت خارجة من فمه، وظل جسده ينتفض ومعدته تنقبض، وهو يعاسر خروج القيء كأن روحه ستخرج معه، وكأنما هو في سكرات الموت، وخشي أن تخرج

أمعاؤه من فمه من كثرة ما هصرته تشنجات القيء، وأخيرًا توقف، أحس برطوبة الدراعة فوق ساقيه، فعرف أن القيء قد انسكب فوقها، ففرج بين ساقيه ونزع أطراف الدرّاعة عنهما، وسطها وتركها تستقر بين ساقيه بما فيها من، وبحث بيده عن رصوص الخنشات ليستند إليها، وأخذ نفَسًا عميقًا، وبلا إرادة كانت دموعه تتصبّب مع عرقه، وقد سدّت حلقَه غصّةُ ألمٍ وحزن.. شعر بأن الموت عَبَرَ جسده بشكلٍ خاطف، وما زال غير مصدِّقٍ أنه نجا، وقد كانت آخر مرة أصابه فيها القيء -على ما يذكر- أيام المراهقة في أحد أعياد الجيش، حين ذهب هو وصديقه عبد الله لمشاهدة إنزال المظليّين، وكان ذلك في عاشر أيام يوليو الحارقة، خرجا مشيًا على الأقدام في وغرة الظهيرة بعد أن أكلا وشربا، واخترقا طول الأحياء السكنية بالميناء ثم الحي الصناعي ثم حي سوكوجيم، ثم مرقا بمحاذاة منطقة كارفور التي كانت لا تزال سهلًا رمليًّا غير مأهول، ودخلا منطقة المطار من جهة الجنوب واتّجها إلى الشمال الشرقي بمحاذاة السياج الذي يحيط بالمدرج، وصعدا الكثبان الرملية المحاذية له من الشرق مع جموع البشر المتدفّقة على تلك المنطقة، حيث يتم إنزال المظلّيّين؛ لم يصل عبد الرحمن إلى مكان التجمع حتى بدأ يحس بثقلٍ في بطنه، لكنه انشغل عنه بمتابعة نزول المظليين،

الذين بدأت الطائرات ترمهم مجموعات، فكانوا يرونهم أولًا نقاطًا بعيدة تنفلت من الطائرة، وتظل تقترب وتقترب والناس زمرٌ، كل زمرة تراقب المظلي الأقرب إليها، وحين يقترب كثيرًا ويصبح فوقهم بأمتار يكون حجمه هو ومظلته هائلًا، وينفضّ الناس هاربين عن نقطة سقوطه، ثم يكرون مسرعين إليه عندما تلامس قدماه الأرض، ويصفّقون له ويهنّئونه ويعانقونه ويلملمون معه مظلته، ثم لا يلبثون أن يهرعوا لتلقّي آخر؛ أشواط من الكر والفر، والاندفاع في الاتجاهات كلّها، وخليط من الجنود والأطفال والرجال والنساء لا يعيقهم الرمل الحار، ولا وغرة شمس العصر، وبعد أشواط ثلاثة أو أربعة، لا يذكر عددها، اشتد ثقل بطنه وأحس بها تنتفخ وتنفسه يضيق ولم يعد يقوى على الحركة، وكان عبد الله أمامه يستحثه لتلقّي مظلّيٍّ جديد:

"أسرعْ، ها هو ذا سيسقط، هذا هو أول الأبطال الثلاثة.. نكون قريبين من مكان سقوطه، حتى نسلّم عليه قبل أن يُركِبه الجنودُ في سيارتهم."

"لقد تعبت، اذهب أنت وسأنتظرك هنا."

انطلق مسرعًا تجاه المظلّيّ الذي أصبح قاب قوسين من الأرض، كانت الفقرة الأخيرة من الاحتفال مخصصة لاستعراض نزول

ضباط المظليين الثلاثة، سيداتي وحمزة ومالك سي، المشهورين بمهاراتهم الفائقة في النزول بالمظلات، تطير بهم الطائرة على ارتفاع بعيدٍ وتتركهم بين الغيوم، لا يراهم أحدٌ، ويظل الناس فترة يترقبون ظهورهم للعيون، والمحظوظون هم من يجدون شخصًا يحمل منظارًا أو من يكونون قريبين من إحدى السيارات العسكرية التي تحوي منظارًا، فيخبرونهم بأنهم يراقبونهم في مكانٍ ما من السماء، وبعد دقائق يظهرون كالنقاط، ثم يقتربون شيئًا فشيئًا.

من جلسته على الكثيب راقب عبد الرحمن نزول اثنين منهم، ثم انشغل عن الثالث باشتداد ألم بطنه، ثم أحس بذلك الجفاف المفاجئ في حلقه، لم يلبث الريق أن اندفع بعده مالئًا كامل تجويف فمه، وانكمش بطنُه وضاق نفَسُه حتى اختنق، فأيقن أنه ميت، وقبل أن يُطلِق صرخته اندفع القيء من فمه زخات متوالية، وظلت معدتُه تنقبض والقيء يخرج صبةً بعد أخرى، والمرارة الحارقة تستعر في حلقه، ومن حُسن حظّه أن فتاة حرطانية تبيع الماء البارد شاهدته وهو يتقيّأ، فأسرعت إليه وأمسكت برأسه لتستبقيه جالسًا منتصبًا حتى ينتهي.. نفض آخر ما في بطنه ولم يعد هناك ما يخرجه إلا الأحشاء الفارغة، فتوقف وبدأ يستعيد أنفاسه، سقته الفتاة جرعات متفاوتة من قنينة باردة، وتركت له القنينة.. يومها

تملّكه الرعبُ من تلك الحالة، وأيقن بالموت، لكنه لم يبكِ، بل إنه بعد أحسّ براحة تامة.

استجمع نفسَه المضطربة، ومسح دموعَه ثم اعتمد على رصّ الخنشات ووقف، بحث بيده عن زر الإنارة، وضغط عليه فأضاء المخزن، فهبّ شمّاد مذعورًا، وظل ساكتًا جامدًا ينظر إلى عبد الرحمن، وحين سقطت عينه على الدرّاعة الملوثة فهم ما حدث وقام واقفًا وهو يقول له:

"لماذا لم توقظني عندما أحسست بالغثيان؟"

"كان مباغتًا."

"هل كنت تتألم من شيءٍ ما؟"

"لا، لقد استنشقت رائحة الرداء العفن فأصابني الغثيان."

"كل ذلك بسبب بخل صاحب هذا الدكان، لقد طلبت منه مرارًا أن يشتري لنا ردائين جديدين ووسادتين جديدتين، لكنه امتنع.. عنده أموال قارون ويستكثر علينا رداء بمئة أوقية."

كان من حسن الحظ أن القيء كلّه تجمّع على الدراعة التي كانت سببًا فيه، فجمع شمّاد أكمامها على ما فيها، ودسها في كرتون فارغ، وأخذ قنينة فارغة، وعمد إلى جركان الماء فملأها منه، واستخرج المفاتيح من تحت وسادته وأخذ المصباح اليدوي وعدة التدخين،

وطلب من عبد الرحمن أن يأخذ معه الكرتون والقنينة، ولم ينسَ عصًا كان يضعها إلى جانب فراشه، ودلفا من بين الرصوص إلى الباب الخلفي للمخزن، وحين صارا في الخارج جعل شمّاد يتلفّت في الاتّجاهات كلّها، وأشار إلى عبد الرحمن أن يضع الكيس جانبًا، ثم اختفى في الداخل لحظات ورجع يحمل صابونة دفعها إلى عبد الرحمن وتركه يذهب إلى الحمام، ثم أحكم إغلاق الباب بالمفتاح وجاء حتى وقف أمام الحمام متأبّطًا عصاه وعيناه متقدتان في كل اتجاه، كان الوقت مثاليًّا لمدخن مدمن، وكانت عدة تدخينه عبارة عن قماط صغير من الجلد يحتوى على ثلاث طبقات داخلية، العُليا منها للغليون والثانية للقضيب المنظف له والثالثة للتبغ، ملأ الغليون من التبغ وأخرج القداحة، فأحرق التبغ وسحب ثلاثة أنفاس قوية، ثم نفض رأس غليونه بسبابته اليمنى حتى سقطت الحُراقة وأعاده إلى القماط، ودس القماط في جيب جلابيته القصيفة، ولما فرغ عبد الرحمن من الحمام سبقه إلى الباب وفتحه بحذر وهو ينقل نظراته في الاتجاهات كلّها، ثم أدخله وأسرع في إثره مُحكِمًا إغلاق الباب.

جاءه شمّاد بعلبة حليب وفتحها وأضاف لها سكرًا، ثم خضّها ودفعها إليه، فشرب واستلقى على ظهره وقد أخرج درّاعته وبسطها

على كامل جسده وردّ حوافها تحت جنبيه وترك رأسه مكشوفًا.. لم يستطع أن يتمدد على طول قامته لضيق المكان، وقد غبط زميله الذي تمدد بقامته القصيرة كأن المكان هُيّئ على قده.. كان صوت احتكاك الكرتون بالحصير تحته يزيد من نفور جسده.. أحس بالضيق من ذلك الوضع، وزاده جوُّ الغرفة الخانق، الذي تختلط فيه روائح البضاعة برائحة الغبار المكبوتة في ذلك المخزن المغلق دائمًا، وعلى الرغم من أنه كان قد ختم بطرف درّاعته على أنفه حتى لا يشمّ شيئًا من تلك الروائح التي كانت سببًا في تقيوئه إلا أن ركود الهواء كان يضطره بين الفينة والأخرى إلى تحرير أنفه ليأخذ قدرًا كافيًا من الهواء، مهما كان ذلك الهواء متعفِّنًا.. لم يعتد مثل ذلك الجو الخانق، فقد كانت طبيعة الكوخ الذي ينام فيه تسمح بتسرّب الهواء من بين صفائح الخشب، ولم يكن الضغط وانعدام الهواء إحدى مشاكل الأكواخ، لكنّ البرد هو مشكلتها الكبرى.

اتّكأ على جنبه الأيمن موليًا ظهره لزميله، وقد ثنى ركبتيه وألصق قدميه بمؤخرته، ولزم تلك الوضعية.. أغمض عينيه وحاول أن يمضي بتفكيره بعيدًا عن جو المكان، لكن الحرارة في جفونه أرغمتها على الانفتاح ملء الظلام، ليحدق في أطباق من السواد الحالك حلوكة حياته المعتمة التي دفعته إلى ذلك الجرف الخانق.. ثلاثة

عشر عامًا من الدراسة حرق فيها المراحل ليصل كالسهم إلى شهادة (المتريز) في العلوم الفيزيائية بدرجة جيّد جدًّا.. كانت البداية من الصف الثالث من الابتدائية، الذي دخله وهو ابن تسع سنوات مسلَّحًا بحافظة لا يطيش عنها شيء مما وعته، وبذهنٍ متَّقدٍ لا تعجزه أعقد العمليات الحسابية، وفي ختامه نُقِلَ بوصية من معلمه إلى الخامس ثم السادس، ومنه إلى الصف الأول من المرحلة الإعدادية، ولم يمكث فيه غير شهرين نُقِل بعدها إلى الصف الثاني بطلب من مدرس الرياضيات الذي كان يدرِّس الصفين معًا، وقد ساعده أنه من شدة ازدهائه بنجاحه في التجاوز إلى المرحلة الإعدادية صرف وقتًا كثيرًا من الإجازة السنوية التي سبقت الافتتاح تلك السنة في الاطلاع على برنامج الرياضيات للصف الأول من الإعدادية، وكانت الرياضيات أحجية غامضة لدى تلاميذ السنة النهائية من الابتدائية، يتندرون بحكايات صعوبتها وإبهامها، ويخوّف بعضهم بعضًا منها، فأراد هو أن يفك طلّسمات تلك الأحجية قبل مباشرتها، حتى إذا باشرها فعلًا يكون مطمئنًا إلى أنه قادر على فهمها، ولم تبخل عليه سكينة بالشروح، وكانت تسبقه بصفين، وكانت بدورها قد تجاوزت بعضًا من سنوات الابتدائية الستّ، كما قاده صديقُه عبد الله إلى قريبٍ له يسكن السبخة،

وكان فتًى نابهًا في الرياضيات، خارجًا من الصف الأول إلى الثاني، فزوّده بكراسة دروسه، وأصبح كلما استغلق عليه شيءٌ لم تستطع أخته أن تشرحه له يطلب من عبد الله أن يصحبه إلى قريبه ذاك، حتى أتى على معظم البرنامج؛ ثم جاءت الثانوية بمجدها العظيم وحلقات التلاميذ من حوله في الأشهر التي سبقت امتحان البكلوريا ليشرح لهم ما لا يفهمونه، ويحل لهم تلك المعادلات المعقّدة في الفيزياء والرياضيات.. كانوا يطلبونه في كل مكان، زملاؤه في الصف وفي الصفوف النهائية في ثانوية الميناء كلها، وحتى في المقاطعات الأخرى.. تلاميذ لا يعرفهم طلبوه عن طريق أصدقائه.. لا ينسى تلك الفتاة الجميلة التي انتبه إليها وهي تمسك بساعده وتهزّه بذعرٍ بريء وفي يدها الأخرى حزمة أوراق، وهي تقول له: "يا ويلي.. أنت تنام والامتحان بعد ثلاثة أيام، وأنا ما زالت لدي كل هذه العمليات من دون حلول!"

وقعت عيناه في عينيها اللتين أبرقتا بخوفٍ أنثويٍّ آسر، فقال بثقة من دون أن يحوّل عينيه عن عينيها: "سأحلها لك جميعًا، وسوف تنجحين."

لم يفتْه التعليق الساخر المشوب بنوع من الغيرة من ابن خالتها، وكان هو الذي سعى في مجيئه إلى هناك: "من أرضعتك من محارمه

حتى تمسكي بيده؟!"

أجابته بفجور ذكي: "يا ابن خالتي، أنا في حالٍ القلمُ مرفوع عني فيها."

انتهى ذلك كله إلى هذا الكهف المظلم.. هل كان عليه أن ينفق هذه السنوات كلها في الثانوية والجامعة ليصل إلى هذا المقام؟!.. كم يغبط شمّادًا على قناعته المريحة ونومته الهانئة مطمئنًا بحظه.. لقد أكمل الآن ثلاثة أشهر، وسيقبض راتبه عن كل واحدٍ منها تامًّا غير منقوص بأوقية، فلن يكون صرف منها شيئًا، فأهلُه بعيدون، وقد تركهم لما لديهم من الماشية يحلبونها ويذبحون منها ويبيعون إذا احتاجوا.. وسيشتري ملحفتين أو ثلاثًا حسب عدد نساء أسرته، وبأقل ثمن، وربما اشترى درّاعة أو سروالًا لأبيه أو أخيه، ثم يعود بما لديه من نقود ليتزوج بها، أو يشتري علف الصيف لقطيعه، أو يقتني رؤوسًا جديدة من الغنم.. ماذا لو كان أهله هو ما زالوا يسكنون في البادية؟ إذًا لكان مثل شمّاد يعيش براحة بال، ولما أصابته لوثةُ المدينة.

راتب كلب

كان جدول الدورة الأسبوعي مؤلَّفًا من ثلاث حصص مسائية في أيام السبت والاثنين والأربعاء، وقد ترك عبد الرحمن الدرس في يوم السبت، وكان على سليمان أن يذهب إليه في مساء ذلك اليوم أو يوم الأحد، لكن قدوم عمّ له من النعمة حبسه عن الذهاب إليه، وانتظره أن يأتي إلى حصة الاثنين، لكنه لم يأتِ، وبعدها استدعته هيلين إلى مكاتب إدارة الهيئة وهناك قالت له بلهجة حسانية مهلهلة، وكانت تتعلم الحسانية وتتمرّن على الكلام:

"في تقديري أنك صديق مقرّب لعبد الرحمن؟"

"رأيك في محله، هو أقرب أصدقائي إلي."

"وهل لديك فكرة عن سبب غيابه اليوم؟ "

"لم ألتقِ به بعد، لكن ربما يكون لذلك علاقة بما حدث في الحصّة الماضية."

واسترسل بحسانيةٍ يتعمَّدُ كسرها، ويحرك معها يديه ليجعلها

مفهومة لها: ".. لقد أصبح عبد الرحمن في الآونة الأخيرة حسّاسًا جدًّا، ولم يكن ذلك طبعه، فهو في الأصل مرحٌ ضحوك واسع الصدر، لكنه تعرض لمكيدة في سنتنا الأخيرة فقد معها الرتبة الأولى التي ظل يحافظ عليها طوال سنوات الجامعة الثلاث، وبذلك فقد منحة خارجية كان سيحصل عليها."

"كيف حدث ذلك؟"

شرح لها ما فعله أستاذ النظم الزلزالية، وعلّقت بنفور:

"أوه.. هذا بشع.. ألم تكن هناك إجراءات يمكن اتّخاذُها لرفع هذا الظلم؟"

"الإدارة أكثر فسادًا من الأساتذة، وهي لا تصغي إلا لمن تخاف من نفوذه أو نقوده."

"المشاكل عندكم عميقة.."

"جدًّا.. والفساد عندنا تشرّبته العقول."

طلبت منه أن يتصل بعبد الرحمن ويبلغه اعتذارها وأنها تريد مقابلته في مقر الهيئة.

خرج من عندها، واتّجه إلى الكبة، وهناك دلّوه على مكانه، وكانت مفاجأته كبيرة حين وصل إلى باب الدكان، فوقف دهِشًا لمنظر صديقه وهو يجول بين الكونتوار والرفوف في قعر ذلك الدكان

الغاص بالبضاعة، وسط ضجيج الشارع وغباره، وقد اشتمل بذلك الجلباب الأرقط القصيف.. لزم الباب للحظاتٍ حزينًا يتأمله وهو يدور تائهًا في ذلك المكان كمن سقط في هوة معتمة لا يجد منها مخرجًا.. لم يستطعْ أن يستوعب أن ذلك الشاب العبقري، الذي كان يعدّه قدوة، تنتهي به الأقدار إلى تلك الحال.. كيف لذلك التوهج أن يخبو بهذه السهولة وينطفئ في عتمة هذا المكان الخانق؟!

"عبد الرحمن بن الغوث عشرين من عشرين.. الرقم الأول عبد الرحمن بن الغوث.. تهنئة خاصة من إدارة الكلية لعبد الرحمن ابن الغوث.. عبد الرحمن اشرح لي هذه المسألة.. عبد الرحمن افتح عينيك، أنا جميلة جئتك لتشرح لي.."

"قل لي يا سليمان، ما رأيك في إبراهيم؟ فأنا لا أفهم سلوكه.. مرات كثيرة أسلم عليه فلا يرد علي، ويراني فيعرض عني.. ولا يناقشني إلا بانفعال."

"لقد لاحظت ذلك، ووجدته لا يفعلها إلا معك أنت وحدك."

"ولماذا في رأيك؟"

"يا عبد الرحمن أنت متفوق، ويقدّرك الأساتذة، وتتقرب إليك الطالبات، وهذا يثير حسد الكثيرين."

"سليمان! أنت تبالغ، بإمكان أي منكم أن يتفوق عليّ لو أراد ذلك."

أشار بيده إلى رأس عبد الرحمن وقال:

"لا أحد يستطيع أن يتفوق على هذا الدماغ."

توقّف عبد الرحمن عن الحركة دَهِشًا حين رأى سليمان يسد بقامته الباب، والتقت عيونهما، ترك ما بين يديه، وخرج إليه وهو يتساءل متعجبًا: "كيف اهتديت إلى هنا؟"

أجابه وهو يعانقه: "هل يمكن أن تكون في مكان ولا أهتدي إليك فيه؟"

بدا سليمان شاحبًا وهو يحاول أن يترك انطباعًا بفرحته، ومد يده إلى شمّاد مسلِّمًا، وبقي واقفًا على الرغم من إلحاحهما عليه أن يجلس على الحصير التي يجلس شمّاد على طرفها، واعتذر عن انتظار الزريق والشاي، وطلب من عبد الرحمن أن يرافقه إلى خارج الدكان، وقبل أن يخرجا، أشار سليمان إلى جلابية البائع التي يلبسها عبد الرحمن وقال له: "لن تخرج معي في هذه."

لم يعلق، ودخل المخزن وخلع الجلابية، ولبس درّاعته ثم خرج، فسأله:

"هل أنت ذاهب بعيدًا؟"

"لا، سنجلس بجانب الدكان."

حين خرجا بادره سليمان قائلًا:

"هل أصابك الخبل؟ ما الذي تفعله بنفسك؟!"

"وما الذي أفعله؟"

"ألا ترى إلى هذا الوضع الذي أنت فيه؟.. هل تظن هذا يليق بعبد الرحمن؟"

جلسا على كنبة إسمنتية أمام أحد منازل الجيران تفصله أمتار عن الطريق، مما يجعله نائيًا قليلًا عن الضجيج والغبار الذي تتركه السيارات.

قال له: "ومن هو عبد الرحمن؟.. لقد تلاشى ذلك الشخص مع طعنات الغدر.. اغتيل ألف مرة مع كل ملف يقدمه ومقابلة يجريها ولم يظفر بشيء منها.. عبد الرحمن قهره الفقر ومد اليد إلى أب معدم يقضم صبره حتى لا ينهار فننهار معه.. لقد تعبت ونفد صبري.. لقد مرضت سكينة واحتُجزت في المستشفى، ولو رأيتني أزدرد مرارة عدم استطاعتي أن أنفعها بشيء لما لمتني على ما فعلته."

سقطت دمعة سليمان وهو يستمع إلى زفرات الألم تتصاعد من قلب صديقه، لكنه أجابه:

"أنا لا ألومك إن بحثت عن عمل، لكن ما أنت فيه الآن ليس عملًا، ولن ينقذك من مشاكلك، وربما ضاعفها أكثر."

"هذه بداية، وقد تتطور إلى الأحسن."

"كم راتبك؟.. خمسة عشر ألف أوقية.. عشرون ألفًا.. كم سيتبقى منه لو أنك اشتريت خنشة واحدة من الأرز أو جركانًا من الزيت؟.. هل تراها تفي بحاجتكم من اللحم وحده؟.. ستنفتح لك الحاجات ولن تستطيع سدّها بذلك الراتب الزهيد، وستجد نفسك أتعس حالًا مما كنت عليه من قبل."

"سئمت الجلوس والانتظار، وكرهت نفسي."

"لا تيأس، لقد انخرطنا الآن في دورةٍ أنا متأكد أنها ستغير حياتنا."

"لن أعود إلى تلك الفاجرة."

"أنت لا تعود إليها هي، بل إلى مصلحتك ومستقبل حياتك.. الإنكليزية اليوم إحدى أهم معايير الاختيار لدى الشركات، وأنا وأنت مجتمعين نستطيع أن نحصّل في ستة أشهر منها ما يُحصَّل في سنتين، هذه فرصة لا يمكن أن تضيعها بمثل هذا العمل."

"لقد اتخذت قراري ولن أرجع.. لن أجلس ذليلًا أمام تلك الأمريكية المتكبّرة."

"تذكّر أنك لست ذاهبًا لطلب يدها."

ابتسم سليمان بتهكمٍ، وأضاف: ".. ثم ألا ترى أنك كنت سخيفًا حين غضبت من دون سبب."

أجابه باستهزاء:

"تظن أنه كان عليّ أسكت على غطرستها واحتقارها لي."
"وهل تظن أن تشبيهها لك بكاسترو هو احتقار لك؟.. إنه قائد عظيم، وهو ليس رجلًا قبيحًا."
"لا أحد في الولايات المتحدة الأمريكية يذكر كاسترو بخير، ثم إنني لا أشبهه؟"
تفحص سليمان وجهه تحت شعاع الضوء الخافت الذي يأتيهم من دكاكين الشارع، ثم اقترب منه وأدخل أصابعه في مقدمة شعر رأسه ومررها إلى الوراء، وكرر ذلك في شقيه الأيمن والأيسر ثم سحب جسمه إلى الخلف وتأمل فيه وقال: "يا لها من امرأة ذكية، فيك ملامح كثيرة من كاسترو.. انظر إلى هذا الفراغ هنا."
حدد بإصبعه المكان في عارضي عبد الرحمن وواصل:
"إنه يشبه فراغ عارضي لحية كاسترو، ربما لو تركت لحيتك تنمو فستكون أكثر شبهًا به.. هذه الجبهة الواسعة أيضًا تشبه جبهته، وطريقتك في تمشيط شعر رأسك.. لقد تفحصت بالأمس مجلة قديمة فيها صور لكاسترو، ودققت في ملامحه، لا أقول إنك تشبهه تمامًا لكن الناظر الفطن سيجد شبهًا كبيرًا بينكما."
"أنت تبحث لها عن مسوّغ لغطرستها."
"لم أحدثك بعد عن رسالتها إليك."

"وما هي رسالتها."

"لقد طلبت مني أن أبلغك بأسفها، وأنها لم تكن تريد إغضابك، وترجوك أن تأتيها غدًا في مقر الهيئة."

دارت به الأرض، وقال:

"إنك تخدعني لكي أعود، لكنني لن أفعل."

"هل تعرف فيّ الكذب؟ لقد طلبتْ مني ذلك فعلًا، وكانت متأثرة فيما جرى، والدليل على ذلك هو أنها تريدك أن تقابلها غدًا ضحًى وحدك في مقر هيئة السلام."

"يعني أنك ذهبت إليها لتسترضيها، وتريدني أنا أن أتذلّل لها."

"هي التي طلبتني، وهي من تسعى لاسترضائك أنت."

"قراري نهائي."

وقف سليمان فجأة، وقال وقد ارتسمت علامة الجد على جبينه: "اسمعني جيّدًا، ستعود إلى الدورة ونواصل ما بدأناه، وإلا فانسَ أنه كان لك يومًا صديقٌ اسمه سليمان."

اشتبكت نظراتهما برهة وصمتا، ثم خفض عبد الرحمن بصره، ثم عاد ورفعه تجاه الدكان.. لم تكن أحداث ليلته الأولى مبشرة.. قد يكون رأي سليمان فيه شيء من الصواب، فهو لن يستطيع الانسجام مع هذا الجو، أحس فعلًا أنه يُخادع نفسَه، خصوصًا

أنّ العشرة آلاف التي اتّفق مع صاحب الدكان عليها لم تعجب أهله، فقد قالت له أمه حين أخبرها بذلك: "يا بني لا ترهق نفسك في راتب لا يسمن ولا يغني من جوع."

وقالت الزهرة بلسانها اللاذع: "عشرة آلاف لا تصلح راتبًا لكلب فكيف لإنسان؟!.. أتعرف أن هذه الطاولة التي لا تبيع النّاه فيها سوى الحلوى والسعوط تربح شهريًّا أكثر من عشرة آلاف أوقية؟"

كان يعرف أن ما يقوم به عبث وأنه يسير في طريق مسدود، وأن عمل الدكاكين على رأي شمّاد لا يصلح إلا لأبناء البادية الذين يمارسونه بشكل موسمي ثم يعودون إلى أغنامهم وإبلهم مع موسم الأمطار، ينمونها ويأكلون منها ويبيعون.. وكان له عبرة في خاله البائع، الذي تجاوز الأربعين ولم يستطع أن يتزوج، على الرغم من خبرته الطويلة وعمله المتواصل.. كان يعرف ذلك كلّه، لكنه لم يكن قادرًا على التراجع بتلك السرعة، وأوهم نفسه بضرورة المواصلة، أمّا وقد وضعه صديقه أمام ذلك الخيار فقد كان عليه أن يختار الصواب، لذلك نظر إليه من جديد، فوجده ما زال يحدق فيه، فقال له:

"لماذا تنظر إلي هكذا؟!"

"أريدك أن تقرر الآن، هل ستأتي معي أم لا؟"

"وإذا لم آتِ معك، فماذا سيحدث؟"

"سأقول لك وداعًا، وإلى الأبد."

كان شعاع أضواء الشارع يكشف الابتسامة المكبوتة في وجه عبد الرحمن عندما رد على سليمان قائلًا:

"لست معشوقتي حتى أموت غمًّا على فقدانك.. لست سوى شاب فاشل عاطل عن العمل مثلي.. لا تنفعني ولا أنفعك بشيء."

سكتا يحدق كلٌّ منهما في الآخر، لا يحول نظراته عنه، ثم انفجرا بالضحك معًا، وتضاربا الأكف، وقال له سليمان: "ودّعْ الرجل وهيا بنا."

صمت ينظر إليه، ثم طأطأ رأسه وحك رقبته ومشى متثاقلًا تجاه الدكان، وتبعه سليمان، دخل على شمّاد وقال له: "يا صديقي، أنا آسف لأنني سأتركك، لقد سررت بمعرفتك، وبروحك الطيبة، بلّغ اعتذاري لصاحب الدكان، وأتمنى لك التوفيق."

كان شمّاد ينظر إليه بتركيز، ثم سأله غير مصدِّق:

"هل أنت جاد؟"

"نعم، لا أظنني أستطيع أن أتأقلم مع جو العمل، أنا لست صبورًا كما قلت لك."

"لقد توقّعت ذلك، لقد سررت بمعرفتك، وأسأل الله أن يرزقك

عملًا مناسبًا."

"لا شك أننا سنلتقي من جديد، ولا تفوت فرصة العمل مع قريبك في المفروشات، ستصبح غنيًّا."

"سيطلبني عندما تصل البضاعة، اسمع سأكون في سوق السجاد في حي بغداد، وإذا حصلت على وظيفة وأردت أن تؤثّث شقة فابحث عني هناك."

تضاحكا وودّعه وخرج، أمام الدكان سأل عبد الرحمن سليمان: "إلى أين سنذهب الآن؟"

أحاطه سليمان من كتفيه بذراعه اليمنى ودفعه إلى الأمام وهو ملتصق به، عبرا الشارع ثم توقّفا على حافته اليسرى، وأوقف سليمان أول حافلة ركاب ودفعه داخلها، ولما اتّخذا مكانهما همس سليمان في أذنه: "ستتعشى معي من الكسكس بلحم الخرفان الدسم.. يجب أن تأكل الليلة بشهية لكي تقابل هيلين غدًا وأنت مرتاح."

قال بحيرة:

"هل من الضروري أن أقابلها؟"

"جدًّا، أيها الشقيّ، من ذا الذي يتردد في قبول لقاء مع هيلين."

"وماذا سأجني أنا من هيلين؟"

"تأمَّلْها، املأ عينيك منها وأغمضهما واترك الصورة تذهب بعيدًا في ذهنك، حتى إذا احتجت إليها تستعيدها وتتأملها.. انظر إلى حركة يديها وشفتيها وعينيها الزرقاوين وشعرها، آه من شعرها البنّي."

"لم يبقَ إلا أن تنشد فيها شعرًا!"

"لو أنني قادر على ذلك لفعلته."

يوم صافح رحان هيلين

لمّا أصبح عبد الرحمن تهيّأ للقاء هيلين، فقصّر شعر لحيته، ولم يدرِ ما إذا كان أراد بذلك أن يستعد للقائها أم يريد أن تختفي ملامح الشبه بينه وبين كاسترو.. كان على الدوام يتمنى أن يحلق لحيته ليختفي ذلك الفراغ في عارضيه، الذي تبدو معه هيئتُه مهلهلة كلما استطال شعره، لكنه يخجل من أن يراه أبوه وهو حاسر الذقن، ومع ذلك فقد كان يواظب على تقصيرها كلما استطالت.

وصل في الموعد وأجلسوه في قاعة يبدو أنها مخصصة للاجتماعات، تتوسطها طاولة كبيرة يحف بها عدد من الكراسي.. فحص بنظراته المكان متوجِّسًا من أن تكون فيه أجهزة تسجيل، أو كاميرا مراقبة، لكن أنّى له أن يكتشفها إن كانوا يضعونها بطريقة سرية؟.. كان كالجميع، يسمع أن (هيئة السلام) منظمة مشبوهة، يرميها الكثيرون بالتجسس، وهو يخاف أن يقع في شَرَك تلك المنظمة.. لم يلبث أن ظهرت له عند الباب، كانت متخفّفة من ثياب التدريس

الرسمية، تلبس تيشورتًا برتقاليًّا وتحته بنطلون من الجنز أخضر، بهرته تلك التلقائية المتعمّدة، التي جعلتها أكثر جمالًا مما هي عليه في بدلة التدريس الرسمية.. خفض نظراتِه ووقف باحترام ويداه معتمدتان على الطاولة التي أمامه، سلّمت عليه وتقدمت من الطاولة وسحبت الكرسي إلى الوراء وهي تقول بحسانية ركيكة تخللها بعبارات إنجليزية:

"شكرًا لله أنك أتيت.. كنت أخاف ألّا تأتي."

"أنت أستاذتي ويجب أن أطيعكِ."

"هذه لباقة منك."

انتظرته قليلًا، لكنه لم يتكلم، فقالت: "سيد عبد الرحمن، أنا آسفة جدًّا على ما حدث، وصدِّقني لم أكن أقصد الإساءة إليك.. كانت مجرد دعابة، لكنَّ أصدقاءك حولوها إلى مهرجان من الضحك، وإن كنت لم أفهم ما قالوه، لكنهم غالوا جدًّا في الضجيج."

قال وهو لا يزال خافضًا نظراته:

"كانت تعليقاتُهم مهينةً ولا تُحتمل."

"أوه يا إلهي، هذا سخف.. أنا آسفة جدًّا."

تلعثمت في الكلمات، وصدرت عنها آهةٌ: ".. لقد تسببت لك في الإهانة، وليس هذا ما كنت أريده.. صدقني ليس هذا ما كنت أريده."

رفع بصرَه إليها، كانت قد غطّت وجهها براحتيها، وأخذت في نشيج متواصل، ارتبك، ووجد نفسه يقول لها: "سيدتي، الأمر لا يستحق هذا كلّه، وبالنسبة لي فأنا غير منزعج."

أزاحت يديها عن وجهها وأخذت تمسح دموعها بمنديل من ورق كان في يدها، وقالت له: "أنت لا تعرف كم تألّمت حين تغيّبت عن الحصة.. كان إحساسًا فظيعًا بأن أكون قد تسببت في خسارتك لهذه الدورة، فأنا أعرف أنها أساسية لمستقبلك."

تأمّلها وهي لا تزال منهمكة في تجفيف دموعها، كان وجهها قد اكتسى حمرةً شهية، وغسلت الدموعُ زرقةَ عينيها فزادتها صفاء وبريقًا.

أضافت: "لا أعرف كيف تنظرون أنتم هنا إلى كاسترو، لكنني معجبة به، وقد ورثت ذلك من أمي، وهي مهاجرة كوبية، وكانت من أنصار الثورة، وكانت تهيم بكاسترو وتتغزل به، ولديها ألبوم صور يحتوي على صور جميلة له وهو شاب عندما بدأ ثورته، وبلغ من حبها له أنّ أبي -وهو من أصول اسكتلندية- أصبح يَغار كلما سمعها تتحدث عن كاسترو، وأتذكّر أنها كانت تتغنّى بأشعار تمجّده، حفظتُ منها بعض المقاطع منها:

شمس الحرية تسطع في عينيك..

شمس الحرية تحت لسانك..

شعيرات لحيتك خيوط ترشدنا على الدرب
شمس الحرية أنت
سنواصل المسيرة أيها الرمز."
كانت تلقي الجملة بالإسبانية وتحاول أن تشرحها له باللهجة الحسانية، فقال لها:
"هذا شِعر جميل."
"تخونني الترجمة، لكن الأصل الإسباني جميل.. أما أنت فأنا معجبة بذكائك وسلوكك المؤدب، ولم أشبّهك بكاسترو لعيب فيك، بالعكس، أنت وسيم بشكل طبيعي.. أنا أكرر أسفي واعتذاري، وإذا شئت اعتذرت لك أمام الطلاب، لكن يجب أن تعود إلى الفصل وتستأنف الدروس، أنت أحسن من الآخرين وستكون في المقدمة.. هذه فرصتك."
غاص عميقًا في مياه عرقه الذي انصبّ عليه من ذلك الإطراء المستفيض.. هل تعي هذه المرأة ما تقوله، وتقدر حجم تأثير أن تقول المرأة للرجل في بلاده: "أنت وسيم"؟!.. كيف تنطقها مرة واحدة ومن دون أية مقدمات؟!.. هل كان ذلك جراءة وشجاعة منها، أم هو شيء طبيعي في بلادها؟
أضافت: "لقد حدثني عنك صديقك سليمان، وأنا مهتمة

بمواصلتك للدراسات العليا، ومن يدري فقد نجد لك فرصة للتسجيل في إحدى الجامعات في أمريكا لتواصل دراستك."

رفع عينيه إليها وقد فاجأته الفكرة، فالتقت نظراتُه بنظراتها، خفض بصره، وأحس بفرح يغمره.. سكتت تنظر إلى وقع الجملة عليه.

هل أنت في حقيقة أم في حلم؟.. لا شك أن ذلك طيف يزورك لينعش نومتك المثقلة بالهموم.. أغمض عينيك واستمتع بالحلم.. لا تفتحهما حتى لا تطير تلك الحمامة البيضاء المحلقة في سمائك.. كم مرة طيرتَ الحمائم النازلة على ظهر كوخكم.. كانت عمليات قنص فاشلة، والمرة الوحيدة التي اصطدت فيها حمامة بيضاء جميلة انقلبت عليك بأسوأ حين أضربت تلك الحمامة عن الطعام وبقيت محبوسة عندك يومين حتى أشرفت على الموت واضطررت إلى إطلاقها، ومن يومها هجرت الحمائم كوخكم.. هيهات أن تسكن الحمائم كوخًا تصفق الريح في فجواته.. ذهب نضالك أدراج الرياح وبحركة قلم من يد ظالمة.. تبخرت سنوات طويلة من الصبر على التعب والجوع ومقاعد الدرس الخشنة.. ثلاث عشرة سنة وأنت تخترق الحجب صاعدًا كالسهم لكي تستقر في نقطة النهاية، ثم في لحظة شيطانية يوقف ذلك الجائر صعودَك لترتدّ إلى الحضيض.. لن تبني للحمائم البيض منزلًا فخمًا تأوي إليه، وتجد في أسقفه

كنفًا يعصمها من الريح والبرد ومن الأطفال الأشقياء.. كنت قاب قوسين من استدراج الحمائم، لمعت في خيالك تلك البنايات العالية الفخمة لجامعات ألمانيا أو فرنسا، ورأيت نفسَك تتجوّل في حدائقها.. هناك أيضًا تحط الحمائم البيض آمنةً مطمئنةً في الساحات العامة، فيطعمها الناسُ الحَبَّ فتنقده بطمأنينة، لا أحد يذعرها عن طعامها.. هل ستكون حمائم أمريكا من نصيبك بعد أن فقدتَ الأملَ في حمائم الوطن وأعيتك حمائم أوروبا؟.. أي حلم جميل أنت فيه.. أي دفء يسري إليك من هذا الحنان.

"أنا آسف لأنني أسأت فهمك، وأشكرك على اهتمامك بمستقبلي."

"لا لوم عليك.. أما الاهتمام بمستقبلك فهو من صميم مهمتنا، نحن هنا للمساعدة الإنسانية بكل أشكالها."

صمتت لحظة ثم أضافت بتوسل: "سيد عبد الرحمن.. عدني أنك ستستأنف الدروس."

أجابها من دون تردد: "أعدك بذلك، سأستأنف الدروس ولن أتخلف بعد اليوم."

تهلّل وجهُها بالبِشْر وتبسمت وهي تقول:

"أوه.. شكرًا، أنا سعيدة بقرارك.. أوه، شكرًا."

وقفت ووقف ومدت له يدها مودعة.. فاجأته، أراد أن يمتنع عن

مصافحتها، لكنه خاف أن تفسّر الأمرَ على غير وجهه، وهي بعدُ أستاذته، لذلك ترك يده تنزلق في يدها فأمسكتها وهزتها، وهي تقول: "وداعًا يا صديقي، وإلى اللقاء غدًا."

ارتجفت شفتاه وهو يرد عليها قائلًا: "إلى اللقاء."

جذب يده بسرعة، وقلبه يرتجف ثم خرج مسرعًا، أحس بوخز كالصدمة الكهربائية يسري في كامل يمناه حتى منكبه.. مزيج من البرودة والحرارة.. لام نفسه على مصافحتها واستغفر ربه.. ليس من عادته أن يصافح النساء، في مرات عابرة أيام المراهقة صافح فتيات، يذكر منهن عويشة، تلك الفتاة الصغيرة ذات الجيد الطويل التي كان أهلها جيرانًا لهم، كانت تتحيّن غفلة أمها، وتترصده، فإذا ظفرت به أشارت إليه، فيتبعها إلى كوخ مطبخهم، وهناك يسرقان قبلات طفولية على عجلٍ، ولا ينسى فضيحته حين ضبطته أمُها وهو يتسلل إلى كوخهم.. أمّا عزيزة، تلك الفتاة الشابة الجميلة، فقد كانت تكبره بأعوام، وكانت تدخن وتخفي ذلك عن أهلها، وكان هو في بداية تعلمه للتدخين، كانت تأتيه بالسيجارة وتتركها عنده، ويلعب معها مباراة شد السواعد، تارة يغلبها وتارة تغلبه، وحين استنكرت عليها سكينة ذلك قالت لها:

"إنه صبي، لا إثم في لمسه."

"لقد صام رمضان الماضي."

"لا أصدّق أنه أصبح رجلًا."

ضحكتا، قال لها بتحدٍّ: "لو لم أكن رجلًا لما هزمتك."

قالت له بعناد وهي تمد شفتها السفلى سخرية منه: "لم تهزمني."

جاءته مرة، وهو نائم فلوت أذنه بخفة، فاستيقظ فزعًا وقد أحكم قبضته على زندها حتى غاصت أصابعه في بشرتها اللينة، وأبعد يدها بقوة فتهاوى صدرها حتى لامس أنفه وغشيته رائحتها.. مزيج من عطر وعرق.. لم يكن يظن قبلها أن العرق يزيد العطر نفاذًا، كان لرائحتها مفعول المخدّر في جسمه.. أغمض عينيه وذهب في سكرة للحظات، وسمعها تقول وقد أبعدت جسمها عنه: "أوه.. أوجعتني"

لم يستطع أن يمنع نفسه من إجابتها بقوله: "وأنت أسكرتني."

ضربته على كتفه وقالت له مؤنبة: "يا خبيث، الأحسن لك أن تبقى كما كنت."

كانت دائخة وتريد سيجارة.. كان يجد تلك الرائحة أيضًا في سيجارتها التي كانت في بعض الأحيان تدفنها في صدريتها، وحين تخرجها يكون العرق قد بلل جانبًا كبيرًا منها، فيفوح منها عند إشعالها ذلك الأريج النفاذ، ويسري في عروق دماغه حين يعب من دخانها.. كانت عزيزة

وسيجارتها عادة بهيجة في حياة المراهقة عرف فيها الصداقة البريئة عن أي غرض آخر غير انجذاب الروح إلى الروح، وقد افتقدها حين تزوجت عزيزة وسافرت مع زوجها إلى الإمارات، وانتقل أهلُها إلى عرفات فيمن انتقل من أهل (الكبة).

ظل صوت هيلين يتردد في أذنيه، وانكسار الحزن في زرقة عينيها المتوسلتين إليه لم يفارق خياله، وهو يسلك طريقه المعهود تجاه كبة المربط: "سيد عبد الرحمن.. عدني أنك ستستأنف الدروس."

كان، على الرغم من انتشائه بذلك الموقف، محتارًا، فلماذا تحرص عليه هذا الحرص كلّه؟! هل يخططون له خطة ليستخدموه في أغراضهم المشبوهة؟.. سيستأنف الدروس، لكنه سيكون حذِرًا ولن يستطيعوا خداعه.. بينه وبينهم دم ما زالت حرارته تفور في جسمه كلما نقلت له الأخبار شيئًا من جرائمهم التي لا تحصى.. هذا الهلال النائم فوق حاجبه الأيسر هو الشاهد الذي لا يتخّلف على عداوتهم، على الرغم من أنه أصبح سعيدًا به بعد ذلك، إذْ صار ذا جاذبية خاصة عند البنات.. أخجلته إحداهن ذات مرةٍ أيام الثانوية وكانوا في الفسحة في يوم امتحان وقد تحلق حوله بعض التلاميذ يشرح لهم تمرينًا في الرياضيات حين تجرأت تلك الفتاة فمسحت بسبابتها قطرات من العرق فوق أثر جرحه وقالت:

"جميل جرحك هذا، كأنه هلال نائم."

فاجأته فتراجع ليبتعد عن متناول يدها، ولم يكن يميل إليها لطول لسانها ووقاحتها، وقد سمع بعد ذلك أنها تشاجرت مع بعض زميلاتها اللواتي لمنها على ما قامت به، ومن يومها سماه زملاؤه (ألفريدو)، وهو اسم شخصية من أبطال مسلسل أرجنتيني مدبلج كان يعرض في إحدى محطات التلفزيون، وكانت تقوم حول تلك الشخصية خصومات نسائية.

ليس هو صاحبكم إذا كنتم تريدونه جاسوسًا.. سيقدّر لكم تلك الإنسانية حقًّا إن كانت صادقة.. يتمنى أن لا يَكْذب ذلك البريق المنكسر بطيف الحزن في تينك العينين، وأن تكون الدمعة صادقة حين أحالت بياض الخدين إلى حمرة شهية، لن يخذلك حينها وسيتعلم لغتكم، وسيرحل على مهرة بيضاء إلى ذلك العالم البعيد، ويستقر هناك في أحد تلك البيوت المسقوفة بشكل هرَمي بالقرميد.. هنالك سيربط مهرته في الظلال الباردة، مودِّعًا أكواخ الكبة المتهالكة والمياه الصدئة العفنة يمتحها صبي ضائع من قعر خزان إسمنتي اختلط فيه التراب بروث الحمير وخيوط الحبال وصدأ المغاريف القصديرية والديدان الحمراء.. أوه، ذلك يبعث على الغثيان.. الحمد لله أنه ليس في جوفه ما يتقيّؤه، فآخر ما

طَعِمه هو تلك الشربة من الزريق التي أعطته إياها الناه صباحًا مع قطعة صغيرة من الخبز الحافي ليسبق بها كأس الشاي.. كان عشاؤه البارحة مع سليمان لذيذًا، لكنها فرصة نادرة، فجُّلُ عشاءاته لقيمات من الكسكس أو المعكرونة مع مرق رأس عظمة من مشاش الإبل مكسوة ببقايا الروابط العصبية، وقد تكون فيه بصلة أو حبة طماطم حسب المتوفر.. أين ذلك من الوجبة المتكاملة التي حدثوه عنها في مادة العلوم في الإعدادية.. هيلين، ماذا أكلتِ يا تُرى في الفطور؟ يعرف أنكم تأكلون المعلبات كثيرًا، أنواع الخضروات والأجبان والألبان، وأعدادًا لا تحصى من الأغذية والآنية، لكن المعلبات ضارة بالصحة بسبب المواد الحافظة وطول مدة الحفظ، أما هنا فلا يستعمل الناس إلا الأطعمة الطرية.. لن يشرب الخمرة ولن يأكل لحم الخنزير، هل أنت كتابيّة؟.. لن يدخل المنزل إذا كان فيه هذان، وإذا أصررت فسوف يقطع الرحلة ويعود غير نادم، ليس هو من يساوم في ذلك ولن يغريه بياض المهرة بفسخ عباءته، بل سيتركها تتدلى على ظهرها وتسربلها كما يفعل الفرسان في أفلام الحروب التاريخية.

أزمة النقود

استأنف عبد الرحمن دروس الدورة باجتهاد وحيوية تذكره بأيام الدراسة، وقد وجد فيها شاغلًا عن التفكير في آلام واقعه، فصار يصرف معظم الوقت في المراجعة، وفي تلك الأيام ظهرت مشكلة في الأسرة، فقد جلب عليّ للناه ألفًا وخمسمئة أوقية، وحين سألته عن مصدرها أخبرها أنه منذ أسبوعين وهو يتخلّف عن بعض الحصص الصباحية في المدرسة ليذهب إلى سوق المغرب، فيحمل للمشترين بضاعتهم إلى سياراتهم ويشتري حزمًا من أكياس النايلون ويبيعها لهم ليحملوا فيها بضائعهم، لكن أمه لم تصدقه وخافت أن يكون ابنها قد سرق تلك النقود، وكانت تعلم أنه منذ فترةٍ أصبح يتخلّف عن المدرسة، وقد أخبرتها الزهرة مراتٍ عديدة بذلك، فحذّرته وتوعّدته بأن توصل الأمر إلى والده، لكنها حين حمل إليها تلك النقود تملّكها القلق ولم تصدّقه، على الرغم من أنه حلف لها الأيمان المغلظة أنها من عمله، وغضب وبكى بكاء شديدًا، ولم يفلح

ذلك في إقناعها، ومع ذلك احتفظت بالنقود حتى تتبين حقيقتها، وحين عاد عبد الرحمن من حصته أخبروه، فذهب إلى عليّ، وكان قد حبس نفسَه في كوخ الرجال منكفئًا في زاوية منه وقد أضرب عن الغداء، وجاء حتى جلس بجانبه ووضع يده على كتفه، "علي، علي، استيقظ لنتغدّى."

كان يحب أخاه عليًّا، وكان عليّ يحترمه ويطيعه، وعلى الرغم من أنه في بعض الأحيان كان يهدّده ويتوعده حين يعتدي على إحدى أخواته أو يأتي بفعل طائش فإنه نادرًا ما كان يضربه، لم يكن عبد الرحمن من النوع الذي يميل إلى اضطهاد إخوته، حتى الزهرة على سلاطة لسانها فإنه لا يذكر في السنوات القريبة أنه ضربها، كانت صرامة النّاه في تربية أبنائها وحرصها على مراقبة سلوكهم وهيبة الأب هي التي تردعهم عن أن يأتوا بفعل شنيع، وكان عبد الرحمن مهتمًّا بالتقرّب من إخوته والتودد لهم، تاركًا توجيه سلوكهم لأبويه، خصوصًا في السنوات الثلاث الأخيرة بعد أن تخرج من الجامعة وجلس في المنزل بلا عمل، فأصبح لا يرى لنفسه ميزة يمكنه بها أن يوجّه أو يؤدب غيره؛ وحين جلس إلى جانب أخيه كان محتارًا فيما سيقوله له، لكن حين التفت الولد إليه، وعيناه محمرتان من أثر البكاء، أشفق عليه وقال له:

"ماذا بك، لماذا تبكي؟!"

"يتّهمونني بالسرقة."

"السرقة!.. هذا فعل وضيع، وأنت لا تسرق ولا ينبغي لك ذلك!"

"لكنّ أمي غير مقتنعة بذلك."

"أمك تريد أن تتأكد من أنك لا تفعل ما لا يرضي الله، وما لا يليق بك وبالأسرة التي أنت منها."

"هي دائمًا هكذا.. تظنني لصًّا، ولا تقتنع بما أقوله لها."

"لأنها أمك، وتخاف عليك."

"لقد كنت أتخلّف عن المدرسة لأعمل وأجلب لها نقودًا تساعدها، ولما جمعت ما تحصّل عندي وجئتها به اتّهمتني أسوأ اتّهام."

"الأمر بسيط، علينا أن نثبت لها الآن أنك كنت تعمل في السوق، ولم تذهب إلى مكان آخر."

جلس، ونظر إليه مستنكرًا وهو يقول:

"وهل أنا كذّاب حتى أُطالَب بإثبات؟"

"أما أنا فأصدقك من غير دليل، لكنّ أمك لن ترتاح لسلوكك ولن تقبل نقودَك ما لم يأتِها ذلك الدليل."

"أنا مستعد أن آخذها غدًا إلى باعة الخضار الذين أتعامل معهم في السوق لتتأكد من ذلك."

"هذا هو عين الصواب، وإذا لَقِيَتْهم فلن يبقى لديها أي ريب."

اتّفق عبد الرحمن مع أمه على أن يذهب صباح الغد مع عليّ إلى السوق للقاء الباعة الذين ادّعى عليّ أنهم يعرفونه ويتعاملون معه، ومع ذلك فقد رأت أن الأمر خطير، ولا تعرف ماذا ستكون نهايته، ولا ينبغي أن تخفيَه عن زوجها لذلك أخبرته بما حدث عند رجوعه في تلك الليلة، فنادى عليًّا، وكان في كوخ النساء، وطلب من الناه أن تخرج، وجاء الفتى يرتجف مرعوبًا مما يمكن أن يلحق به من عقاب، لكنَّ عبد الرحمن التحق به قبل أن يغلق الباب عليهما، ودخل معهما.. لم يكن الغوث أبًا قاسيًا، وإن كان يبدو صارمًا، فقد كان يحافظ على مسافة بينه وبين أبنائه تجعله ذا هيبة تردعهم عن الإتيان بما لا تحمد عقباه، ويترك التفاصيل الصغيرة والمتابعة الدائمة لأمهم، التي تقوم بها بحزم، لكنه حين يجد أن الأمر يستدعي التدخل والعقاب فإنه لا يتردد في ذلك، ومنذ أن بلغ عبد الرحمن أصبح له مكانة واحترام عند والده وكثيرًا حيث كان يأخذ برأيه، وحين أخبره بالخطة التي اتّفق عليها مع علي للتأكد من صحة دعواه قبل بها فورًا وتراجع عن استجواب الفتى في انتظار نتائج تحريات عبد الرحمن.

حين كان ضحى الغد صحبَ عبدُ الرحمن أخاه عليًّا إلى سوق

المغرب، وهي سوق الخضار الرئيسة في العاصمة، حيث تتجمع البضاعة الآتية من بقاع الوطن كلّها أو المستوردة من الخارج، قبل توزيعها على أسواق العاصمة الأخرى، وهناك أخذه علي إلى محمود، وهو حرطاني خمسيني يمتلك طاولة من طاولات بيع الخضار، وحين رأى عليًّا بادره قائلًا: "أين كنت يا علي؟ فلورانس كانت هنا منذ قليل، لقد حملتُ لها بضاعتها بنفسي إلى سيارتها."

قال له علي وهو يشير إلى عبد الرحمن: "انتظرت أخي ليرافقني."

سلّم محمود على عبد الرحمن وقال له:

"مرحبًا بكل من يأتي من قبل علي.. أخوك هذا فتًى شهم، لم يخيب ظني منذ أول يوم رأيته فيه."

"طمأنتني، فقد أخفى عنّا عمله، حتى جاء إلى أمه أمس بشيء من النقود، فخشينا عليه، وأنت تعرف كثرة انحراف الأطفال في هذا الزمن."

"لا.. لا تخفْ عليه، إنه فتًى صادق، وقد كلّفته بمهمات أختبره بها فأداها بأمانة."

"الحمد لله.. ذلك ما كنّا نؤمّله منه."

"منذ أيام كانت تجلس هنا حيث تجلس أنت الآن امرأة فرنسية من زبوناتي، وكنت منشغلًا معها في تخير البضاعة التي تريدها،

وفي أقل من ثانية وضعت حقيبة يدها بجانبها، فالتقطها فتًى من هؤلاء اللصوص، وكان عليّ غير بعيد، فلمحه، ورآه يعدو لينجو بسرقته، فعدا خلفه، وحين تنهنا كانا قد اختفيا عن الأنظار، وتركت الطاولة وجريت في أثرهما والمرأة تتبعني، ولم نلبث حتى استقبلنا علي عائدًا والحقيبة في يده، ووجدناها بكامل محتوياتها، وكانت فيها ساعة ثمينة وحليّ وبعض حزمة من اليورو، وبعض الآلاف من الأوقية."

نظر عبد الرحمن إلى أخيه عليّ، وعلّق: "هذه بطولة."

قال محمود: "لقد أصبحت تلك الفرنسية صديقة له، وتطلبه وحدَه كلّما جاءت إلى هنا ليحمل لها البضائع، حتى إنها على مدى يومين كانت مشغولة فأوكلت إليه مهمة شراء الخضار وحمله لها إلى بيتها."

قال عليّ يخاطب أخاه: "لا أعرف كيف كنت سأتعرف على السوق بهذه السرعة وأعمل فيها لولا أنني ظفرت بمحمود."

رأى عبد الرحمن أنَّ مهمتَه انتهتْ، فشكر محمودًا وودّعه، ولما رأى محمود عليًّا يتهيّأ لمرافقة أخيه سأله:

"إلى أين؟ ألم تأتِ للعمل؟!"

"اليوم لدي مهمة مع أخي، لكنني سآتيك غدًا باكرًا بإذن الله."

"ذلك مناسب، لقد تركتْ فلورانس عندي طلبية لغد، وأصرت أن تحملها لها باكرًا."

وأخرج من جيبه بعض النقود استل منها ورقة، ومدها إليه: ".. هذه مئتا أوقية تركتْها لك."

أخذ علي المئتين ولحق بأخيه، خرجا من السوق، غربا وقطعا الشارع، وسلكا بين المباني السكنية؛ قال عبد الرحمن لأخيه ووجهه يطفح بالبِشْر:

"كل هذا يا عليّ ونحن لا نعلم شيئًا عنك."

"لو أخبرتكم منذ البداية فلن تتركوني أعمل."

"وماذا تنوي بالنسبة للمدرسة؟"

"لا أعرف حتى الآن، لكن إذا وافق أبي فسأختار العمل."

"ومستقبلك؟ هل تريد أن تعيش من دون شهادة وتخصص؟"

"هذا هو مستقبلي، هذه مهنة أستطيع أن أجني منها المال، بدل أن أضيع وقتي في انتظار شهادة لا تسمن ولا تغني من جوع."

وخزه جوابه، فهو نفسه مثال لذلك المستقبل البائس الذي يخاف عليّ منه، لكنه عانده قائلًا:

"لكن العمر مراحل وأنت ما زلت في مرحلة التعلم، والعمل والرزق عند الله."

قال له علي بمرارة: "كيف أتعلم وأنا جائع وأهلي جياع؟!.. كيف أتعلم إذا كان أبي لا يستطيع أن يوفر لي نعالًا إذا تمزقت نعالي، وإذا كانت أختي تمرض ولا تجد من يشتري لها دواءً؟!.. كيف أتعلم إذا كان الأساتذة في دولتي يسرقون حقّ أخي في المنحة، ولا يجد من ينصفه؟! فماذا أنتظر أنا من التعلم والشهادة وأنا أقل ذكاء منك؟!"

سالت دموع عليّ وتحشرج صوتُه بالبكاء وطأطأ رأسه، وترقرقت الدموع في عيني عبد الرحمن فأمسك بأخيه وضمه إليه، وقد نكأ كلامُه جراحَ نفسه التي لا تندمل.. تراءت له حياتُه شريطًا من العثرات المتتالية وعنوانًا كبيرًا لخيبة لم تنتهِ.. لم يكن يصدّق بسوء الطالع، وقد جابه وهو مراهق تلك الوصمة التي ألصقتها به جارتهم اطويلة، تلك الفتاة المقرفة حين جعلته الأقدار ضمن فريقها في لعبة (السيق)، وقد أخفق مرات في أن يأتي بنقاط ترجح كفة فريقهم، فقالت له بصلف: "لا بد أن (ظهرك مخطط)، فأنت سيّئ الحظ."

وقف وخلع قميصه التيشورت الرياضي الوحيد الذي كان يلبسه فوق الكلسون، وولاها ظهره وكان قريبًا منها وقال لها بعصبية: "انظري ليس في ظهري أية خطوط."

كانت لا تزال تحت تأثير صدمة الهزيمة، فلما قابلتها صفحة ظهره وجدتها فرصة لتفرغ فيها شحنة غضبها، رفعت يدها الطويلة، وطبعت على ظهره ضربة قوية بكفها، ففقد صوابه من الألم، والتقط فردة نعل وأطلقها تجاهها، فوقعت على ثديها الأيسر، فصرخت ثم انقلبت على ظهرها مغشيًّا عليها.

تملّكه ذعرٌ شديد، كانوا يلعبون في خيمة أهلها، فتسلّل إلى منزل أهله، اجتاز من فوق الشباك الذي يفصل بين المنزلين، وجد باب الكوخ مردودًا فجذبه ودخل، ورده عليه؛ كان جسمه كله ينتفض خوفًا من أن تكون قد ماتت، ومرت عليه دقائق كأنها دهر وعقله تائه كالأبله، ثم ارتدت إليه نفسه عندما تناهى إليه صوتها، وهي تتوعده، فنظر من خلال خشب الكوخ فرآها أمام الخيمة تهدر وتتوعده وتدعو عليه، وبعض صديقاتها يحاولن إسكاتها، خاف من أن تدهمه في الكوخ، وكانت شابة ضخمة قوية البنية، فذهب إلى النافذة الخلفية للكوخ ليفتحها استعدادًا للخروج إذا هي هاجمته، كان معوّله الوحيد لمواجهتها هو أن يكون في الشارع، فهناك يستطيع أن يهزمها بالحجارة؛ وبينما كان يفتح النافذة فُتح الباب فالتفت مذعورًا فإذا سكينة تمسك بيد أختها زينب، وكانت شاهدة على ما حدث، ولما رأته يفتح النافذة قالت له: "إلى أين؟

لا تخفْ نحن في منزلنا، وإذا دخلتْ علينا هذه الفاجرة بطحناها وأشبعناها ضربًا."

رفعتْ شجاعتُها من معنوياته، وأحكم إغلاق النافذة، فقالت له: "ابقَ أنت في الداخل وسأجلس أنا عند الباب أراقبها."

لم يلبث أن جاء أحد إخوة اطويلة، فأمرها بالدخول في الكوخ فامتثلت لأمره، وحين عادت الناه وأخبروها ذهبت إليها واسترضتها، لكنها ظلت أسابيع تذكر له ما فعل بها، وكلما مر قريبًا منها تهمّ برميه بشيء، وأصرت على أن تلصق له تلك الصفة، فكانت تناديه (المخطط) نكاية فيه، وكاد اللقب يذهب له في الحي لولا رسوخ دحان في أذهان جيرانه.. يذكرها فيقول في نفسه: "انظري أيتها العانس أيّنا مخطط الظهر أنا الذي أحرزت رتبة أولى أم أنت التي كبرت وأصبحت عانسًا؟"

لكنه بعد ذلك لم يحظَ بالمنحة إلى الخارج، وتخرّج للشارع.. تقطعت كل الحبال التي تعلق بها.. حتى هذه الدورة التي بدأها منذ أيام في الإنكليزية لم تبشّر بدايتُها بخير، وفي نفسه توجس من مقاصد هيئة السلام، والله أعلم كيف ستكون نهاية ذلك.

اتّجها إلى السبخة، حيث يعمل أبوهم، وزفّ إليه عبد الرحمن خبر صحة دعوى عليّ، والثناء الذي أثنى به محمود عليه، فتهلل وجه

الوالد، وقال لهما: "اسمعاني جيّدًا، أنا لم أعمل وأجهدْ نفسي إلا من أجل أن أضمن لكما ولأخواتكما لقمةً حلالًا، وأكفيكما سؤال الناس أو الوقوع في الحرام، لأنني لا أرضى لكم مذلة الدنيا ولا عذاب الآخرة، ولا أطلب من أيٍّ منكما أن يترك تعليمه من أجل أن يعمل، لكن إذا رغب فلن أمانع، بشرط أن يكون عملًا حلالًا."

وحوّل نظرَه إلى عليّ قائلًا: "وأنت يا علي إذا كنت ترى أن هذا العمل الذي دخلت فيه أفضل لك فلا حرج عليك، لكن إياك ثم إياك أن تأخذ أوقية من حرام، أو تغش في بيع أو تخون أمانتك، وتذكّر أن الله يراقبك، وأنه سيحاسبك يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون."

أنهى الغوث نصيحته لابنيه، ولاحظ أن سروال الجينز الذي يلبسه عليّ متشقّق عند رجليه، فأخرج من جيبه ورقة ألف أوقية دفعها إلى عبد الرحمن ليشتري بها سروالًا جيّدًا لعليّ، وكان عبد الرحمن عند ذهابه مع أخيه إلى السوق قد أخذ معه النقود التي أهداها عليّ لوالدته، لكي يردها إلى أصحابها إذا وجد أنها مسروقة، ولما أراها لوالده أمره أن يعيدها إلى والدته.

عطر هيلين

بدا عبد الرحمن وسليمان في سباق مع الزمن، يريدان الاستفادة من الأشهر الستة للدورة بأقصى الحدود، يراجعان باستمرار ويقرأان كل ما يقع في أيديهما من كتب مدرسية لتعليم الإنكليزية أو قصاصات لمجلات إنكليزية، وقد زودهما قريبٌ لسليمان كان يدرس الإنكليزية في الجامعة بأدّلة تعليمية للمراحل الأولى من تعلم الإنكليزية، وقد أولت هيلين عبد الرحمن اهتمامًا خاصًّا بعد استئنافه الدراسةَ، خصوصًا أنه أظهر قدرة غير عادية في حفظ ما تلقيه عليهم من دروس وفي فهمها، كان يحفظ كل شيء، حتى الكلمات التي كانت ترددها أثناء الدروس حفظها وأصبح يرددها حين يخلو بنفسه، فيقرع أذنه صوته الرجولي، فيقول لنفسه: "لكنّ صوتها أنثوي رقيق."

حتى حركاتها وهي تلقي الدرس انطبعت في ذهنه، فكان يعرف الحركة التي تؤديها عند كل لفظة، وكان حين يستعيد خيالُه

حركاتِها ترهبه شدة تركيزه نظرَه عليها، وهي امرأة أجنبية عليه، فيستغفر الله من ذلك، وينوي أن لا يركز النظر عليها في المرة القادمة، لكنه حين يدخل القسم ينسى عزمه وتصبح عيناه وقلبه كاميرا تسجّل بالصوت والصورة كل شيء يصدر عن هيلين. أثناء التمارين كانت تتجول بين الطلاب تتفقد أجوبتهم، وقد حرص على أن يكون من أول الذين ينجزون تمارينهم حتى يحظى بوقوفها بجانبه، ويشتم رائحة عطرها، ويراقب حركة تلك الأصابع الرشيقة وهي تنساب على الورقة لتكتب له الملاحظات، ويتعمد أن يسألها ويناقشها ليطيل مكثها بجانبه، وفي إحدى المرات وجدت إجابته كاملة فوضعت القلم، وصفقت له بخفة وهي تقول: "عظيم، هذه تصفيقة لك."

وأثار ذلك غيرة زميله عبد الله، فقال لها: "ألا تصفّقين لي أنا يا أستاذة؟"

فأجابته:

"إذا أجبت إجابة كاملة فسوف أصفق لك."

"لقد صعّبتِ عليَّ، لكنني سأحاول، وقولي لعبد الرحمن أن يساعدني."

ضحكت، "أنت ظريف."

وحين ولّت صفق بيديه وهمس لزملائه مزهوًّا: "ألم تسمعوا، لقد ضحكت لي وقالت أنت ظريف.. أسمعت يا عبد الرحمن، لست وحدك المحظوظ."

شجعت هيلين عبد الرحمن بأن أهدته معجمًا مختصرًا للكلمات والعبارات الشائعة في الإنكليزية، فأقبل عليه يحفظه، وفاجأها في اليوم الموالي أنه حفظ عن ظهر قلب الصفحة الأولى منه، فانبهرت به وقالت له:

"هذا رائع جدًّا، لكن لا يشغلْك الحفظُ عن فهم آلية التركيب النحوية، فهي أساس فهم اللغة وأساس القدرة على تركيب الجمل.. ركّزْ على قراءة النصوص الواردة في الأدلة التي عندك، واتّخذ المعجم أداةً تعود إليها لفهم الكلمات الغامضة."

"أنا أفعل ذلك، لكنّي أخصص الوقت الفائض لحفظ كلمات المعجم."

"أخشى أن ترهق نفسك، فيضيع الأمْران منك دفعة واحدة."

"تعوّدت على ذلك في المدرسة، وعندما أقوم بشيء كهذا أشعر بأني في أحسن حالٍ."

"أنت أدرى بنفسك."

تمدّد على حشية في طرف السقيفة، وردّ كُمّ درّاعته على وجهه

وأغمض عينيه، وقد وضع المذياع قريبًا من أذنه وأدار زره على محطة البي بي سي وترك صوته مسموعًا ليتعرف منه على الوقت.. كان قد استعدّ جيّدًا لاختبار اليوم، وهو اختبار التجاوز إلى المستوى الثاني من الدورة، وكانت الدورة من ثلاثة مستويات، يُدرَس كلٌّ مستوًى على شهرين.. وضع نصب عينه أن يحصد نقاط الاختبار كلها ليُريَ هيلين قدراته ويفاجئها بما لا تتوقعه.. انتبه إلى اللحن المميّز لأخبار الساعة الثالثة ظهرًا، وتابع المذيع وهو يقرأ:

"القوات الأمريكية تسقط طائرة عراقية حاولت اختراق مجال الحظر الجوي في شمال العراق."

"المندوب الأمريكي لدى الأمم المتحدة يتقدم بمشروع قرار لفرض عقوبات اقتصادية على سوريا والسودان."

"أمريكا تستخدم حق النقض ضد قرار يدين المجازر الإسرائيلية في الضفة الغربية."

"مقتل ثلاثة أطفال برصاص القوات الإسرائيلية في غزة."

"الخارجية المصرية تصدر بيانًا تحمّل فيه إسرائيل مسؤولية الأحداث في الضفة، وتطالب الولايات المتحدة بالتدخل لكبح جماح إسرائيل."

"أمريكا تطالب الحكومة المصرية بتسريع وتيرة الخصخصة، ومئات

الآلاف من العمال المصريين يفقدون وظائفهم منذ بداية العملية وحتى اليوم."

أزعجته تلك الأخبار، فمد يده إلى الراديو وأسكته.

هل تدرك هيلين ما يفعله قومُها بقومك؟.. كأنَّ بينهم وبينكم ثأرًا تليدًا، وأنتم لم تعرفوا عنهم شيئًا قبل أن يأتوا إليكم ويحكموا مياهكم وأجواءكم، ويرهبوا حكّامكم، ويتدخلوا في سياساتكم.. لم يكن العرش الذي حاربه جورج واشنطن عرشًا عربيًّا ولا إسلاميًّا، فلماذا يحاربكم قومُها؟!.. ألا يرحمون ضعفكم حتى وأنتم تستعطفونهم وتطأطئون الرؤوس لهم؟!.. هل تريدك أن تغضب منها مرة أخرى وتترك الدورة إلى غير رجعة؟.. هي بالتأكيد لا تريد ذلك ولا أنت تريده، ولكن ماذا تغير إرادتك أو إرادتها من جبروت سلطانهم ومذلة حكامكم؟

قبل الرابعة بربع ساعة انطلق عبد الرحمن تجاه محطّة الحافلات، وجد الازدحام على الحافلات شديدًا، كلما وصلت حافلة يتسابق الركاب إليها ويتدافعون داخلها.. ألقى بنفسه وسط المعمعة وزاحم بكل ما أُوتي من قوة، كان عليه أن يجد طريقة للركوب، فاليوم لا يحتمل التأخير.. عليه أن يكون هناك في الوقت المحدّد، ليجد الوقت الكافي للعمل حتى يريها أنه جدير بالاهتمام الذي بدأت

توليه إيّاه، وبالمنحة التي وعدته بالسعي فيها.. فشل في محاولتين وفي الثالثة استطاع أن يمسك بيسراه حافة باب الحافلة ويضع قدمه اليمنى على المصعدة الحديدية، ثم مد يده اليمنى إلى باطن سقف الحافلة فأمسك عمود السناد الممتد على طوله وترك قدمه اليسرى تعوم في الفراغ.. كانت الحافلة قد تحركت مبتعدةً عن الحشود.. أحس بشيء يشد دراعته من الخلف، فالتفت فإذا فتًى يشدّه بإصرار، فقال له:

"أرسل عنك درّاعتي."

"ليس قبل أن تنزل عن مكاني."

حرر يده اليسرى وهوى بها على وجه الفتى فترنح ساقطًا، وقد انفلت كم الدرّاعة من يده، لكن بعد أن أحدث فيها شقًّا بحجم شبر عند الكتف.. ترنّح مرات وكاد يسقط، وقد شغله هول الصدمة عن التنبه لقدمه التي تكاد تنزلق من مكانها مع اضطراب حركة الحافلة على ذلك الشارع المتهرّئ.. ليس لديه وقت للمرور بخيّاط، وسيبدو كالمشرّد أمامها وأمام الطلاب.. ألا يكفيه ما هو عليه من بِلى اللباس.. انتظمت حركة الحافلة فرد يده إلى كتفه وتحسس الشق غير مصدق لما حدث.. كيف سيخفي خرقًا بهذا الحجم؟!.. ردّ طرف كمّه على مكان الشق، ومرر يده فوقه ليتأكد من أنه يستطيع أن

يخفيه تمامًا، ولما اطمأن بذلك أعاد يده ممسكة بحافة الباص.. أحس بألم شديد في ساعده الأيمن الذي يعتمد عليه كل جسده في إبقائه معلقًا في الحافلة، الأجساد تحاصره فلا يستطيع التزحزح من مكانه.. بحث بين اشتباك الأقدام عن موطئٍ لقدمه اليسرى التي لا تزال تطوح في الفراغ، واهتدى بها أخيرًا إلى فرجة صغيرة على حافة أرضية الحافلة، فثبّتها واعتمد عليها ليريح يمناه.

توقّفت الحافلة عند منعرج شارع عرفات لينزل منها أحد الركاب، وسبقه المحصِّل إلى النزول ليفسح له الطريق، فنزل وانتظر المحصِّل أن يأخذ منه ثمن التذكرة فأقبلت امرأة ضخمة من بائعات السمك تحمل صندوقًا بلاستيكيًّا من صناديق السمك، واحتلت المكان الذي كان يقف فيه المحصِّل واضعة قدمها على المصعدة وممسكة حافة الحافلة العليا بيدها، ورمت الصندوق الفارغ على ظهر الحافلة، ألحّ عليها المحصل لكي تنزل، فقالت له:

"أنت شاب وتستطيع أن تصعد فوق ظهر الحافلة."

"هذا المكان فيه خطر عليك."

"أستطيع أن أتدبّر أمري."

يئس منها فضرب حافة الحافلة ليؤذن السائق بالتحرك، وفي لمح البصر كان على ظهر الحافلة.. كان جسمُ المرأة يلاصق جسم عبد

الرحمن، وساعدها الأيسر يمرّ قريبًا من وجهه، ورائحة عرق إبطها المشوبة برائحة السمك تنفذ بقسوة إلى أنفه.. حوّل جهتَه يسارًا، لكن الرائحة ظلت تأتيه، ومع اضطراب حركة الحافلة كان جسمُها يضطرب فيدفع جسمه يسارًا حتى تكاد قدمُه تزلّ عن موطئها، وحين تكرر ذلك قال لها: "إن استمررت في دفعي بهذه الطريقة فسوف أسقط."

قالت له بصلف: "أنا لم أدفعْك، وإن كنت حقًّا لا تريد أن تسقط فلا تفتح فمك في وجهي."

أدرك أن لا جدوى من الكلام معها فحوّل وجهَه عنها.. كان يعرف تلك النوعية من النساء، فهي تذكّره بالرابية بائعة الكسكس في حيهم، فقد كانت امرأة ضخمة وعاملة دؤوبًا، تصنع الكسكس وتبيعه بكميات كبيرة وتجني عائدًا جيّدًا، لكنَّ زوجَها مبروكًا النجار المتجول كان عاهرًا، يأخذ منها تلك المبالغ وينفقها على نزواته، ويضربها إن هي احتجّت عليه، وبلغ به قهرها أن تزوج عليها، وصار ينفق ما يأخذه منها على زوجته الجديدة، وقد عانت الرابية من ذلك القهر معاناة جعلتها دائمة الغضب، متحفّزة، وكثيرًا ما تدخل في شجار مع جيرانها في غياب زوجها، وربما انكفأت على أحد أولادها تشبعه ضربًا، وتطارده من منزل إلى منزل ومن زقاقٍ إلى

آخر، لا يمر أسبوع إلا ولها فيه ملحمة وصولة من تلك الصولات، التي ينتهي أمرُها عند الشرطة، شاع في جيرانها أنها كانت تبالغ حتى تأتيها الشرطة، وتأخذها ليأتي زوجها ويخلصها ويبيت معها ليالي تكون فيها هادئة بشوشة. تشفّى بها الكثير من جيرانها بعدما أصابها شللٌ نصفيٌّ بسبب الضغط والعصبية الزائدة، لكنّ الناه أشفقت عليها، وكانت صديقة لها، تأتيها المسكينة بالهدايا، وتطلب منها أن تدعو لها أن يصلح لها اللهُ زوجَها، رأى دحان دمعة أمه في أول مرة عادت فيها من عيادة الرابية لمّا أُصيبت بالشلل، وتأثر هو لذلك تأثّرًا شديدًا، فقد كان في مراهقته يحظي منها أحيانًا بقطعة نقد، تعطيه إياها، وتقول له: "ادع اللهَ لي، فأنت ابن الصالحين."

اختلس نظرة إلى وجه جارته فوجده مرصّعًا بتجاعيد الغضب وتقطيبته التي يندر أن تفارق وجه الرابية، فعرف صدق حدسه في المقارنة بين الاثنتين.. خمّن أن الرجل الذي يضطهدها لا بد أن يكون رجلًا عملاقًا.. فهذا الجسم لا تقهره إلا قوة جبارة.. تشبّث أكثر بالحافلة خوفًا من أن تفاجئه بدفعة من تلك الأرطال اللحمية، ولاذ بالصبر.. ظل يبتعد بجذعه ليترك فرجةً بينهما، ووجد من ذلك ألمًا شديدًا في ظهره ورجله اليمنى، ظل يتصاعد مع طول الشوط الذي قطعته الحافلة إلى درجة لم يعد يتحمله، وأخذ يعضّ على

أضراسه، ويعقد ناصيته، وهو ينظر إلى المحصِّل ويكاد يطلب منه أن يوقف له الحافلة لكي ينزل.. نفد صبرُه، وماتت أعصابُه في مكانها، خارت قواه كلّها.. لم يعد جسدُه هو الذي يركب، لكنّ أمله هو الذي يصرّ على البقاء.. لا تطاوعه نفسه أن ينزل، فربما يفوته الاختبار وتضيع منه فرصة المنحة.. أخيرًا جاءه الفرج حين سمع أحدُهم يضرب بيده حافة الحافلة طالبًا من السائق التوقّف، وبمجرد أن توقفت نزل عبد الرحمن أرضًا وأخذ يرفع رجله وينزلها ليتحرك فيها الدم ويخف ألمها.. نزل اثنان من الركاب، فاندفعت تلك المرأة بكامل جسمها مع الفرجة التي تركها خروج الرجلين.. نزل عليه برد الراحة وقد انفرج المكان بذهاب تلك المرأة، ولم يلبث طويلًا حتى توقفت أمام مسجد المغرب فنزلت منه مجموعة من الركاب، فوجد فرجة في صحن الحافلة، لكنه ظل منحنيًا لأن سقفها لم يكن مرتفعًا بالمقدار الذي يسمح له بالوقوف منتصبًا، وعند العيادة المجمعة خلت عدة أماكن من مصطبة الجلوس، فجلس وشعر بالراحة.

عندما توقفت الحافلة لينزل منها عبد الرحمن أمام عمارة آفاركو الشاهقة كانت الساعة في ساعد الرجل الجالس عن يمينه تشير إلى الخامسة إلا ربعًا.. وقف يستنشق نسمات الهواء الباردة

بعد غصّة الباص، ورفع يديه عاليًا وتمغّط ليمدد عضلاته التي تقلّصت من طول الانحناء، ثم قطع الشارع ودخل مع الطريق المار بين الوزارات وآفاركو تجاه حي (س)، وحين دخله رفع كمَّه السفليّ فجفّف به العرق عن وجهه ورقبته، وسار على مهل حتى لا يعرق من جديد، وحين عاين باب مقر الهيئة رأى بعض الطلبة يدخلون، فتفقّد مكان الشق وردّ عليه كُمّ درّاعته حتى أخفاه، ودخل الفصلَ منتصِبًا.. فاجأه وجود هيلين في الفصل، فقد سبقتهم ووقفت وفي يدها أوراق الأسئلة، كلما دخل طالب ابتسمت في وجهه ومدت إليه نسخةً منها.. كان أمامه اثنان من الطلاب فسلمت كلًّا منهما ورقة الامتحان وهي تقول: "حظًّا سعيدًا."

وحين جاء دورُه خُيّل إليه أن ابتسامتها صارت أعرض، ووجهها قد تغضّن بفرح، وهي تمدّ إليه الأوراق وتقول له: "اعتنِ بنفسك."

كان يضع يده اليمنى على عرض صدره مثبتًا طيّة كُمّه حتى لا تسقط، فمد يسراه ليتناول منها الأوراق، كان مرتبكًا قليلًا لكنه استطاع أن يرسم على شفتيه نصف ابتسامة تجاوبًا مع ابتسامتها وعبارتها التي خصّته بها من دون زميليه.. اتّجه إلى المقاعد.. نقل الأوراق إلى يده اليمنى وقلبُه يضرب بشدة.. تذكّر كيف كانت جدتُه تعلّمه أن يكرر قبل دخول الامتحان: "ربِّ أعطني كتابي بيميني

ولا تعطنيه بشمالي"، وكانت لا تقبل أن يناولها أحدٌ شيئًا بيسراه أو يتناوله بها في حضرتها، وقد رآه أبوه مرة يأكل الفستق بيسراه فضربه عليها حتى تطاير الحَبُّ من يده.. أبعد عن ذهنه هاجس التشاؤم بتناول الأوراق بيسراه، وطمأن نفسه بأنه مضطر ولا حرج عليه.

اختار لجلوسه آخر مقعد على يسار القاعة وجلس بمحاذاة الجدار، ليكون الجنب الذي فيه الخرْق من درّاعته بعيدًا عن ملاحظة هيلين والطلاب، ووضع الأوراق بالمقلوب أمامه، كان متلهِّفًا لرؤية ما فيها، لكنه تريّث ليأخذ نفَسًا ويتفقّد القاعة ومواقع زملائه، ولم ينسَ أدعية جدته.. والتحق به سليمان فجلس معه، وأعلنت هيلين أنَّ لحظة البدء قد حانت، ودعتهم إلى متابعة قراءتها للأسئلة، وفي تلك الأثناء دخلت فائزة، وكانت من أكثر الطلاب اجتهادًا، فاستقبلتها هيلين قائلة:

"عزيزتي فائزة لقد تأخّرت كثيرًا."

"أنا آسفة سيدتي، لقد مررنا بالمسجد فتوقف زوجي ليصلّي."

"لا عليك يا عزيزتي، تفضّلي."

مدّت لها الأوراق، وسمعها عبد الرحمن تقول لها: "اعتنِ بنفسك." امتعض من خطابها لها بتلك العبارة التي كان يظنها مخصّصة له

وحده، وقد ذهب به الخيال بعيدًا.. تخيَّل حماماتٍ بيضاء ترفرف في سمائه، وأزهارًا تتفتح في صحراء قلبه، لكن ها هي فائزة تشاركه في تلك العبارة الأثيرة، وتخلط أوراقه.. لماذا تتعمد هيلين مغالطته وتشويش أحلامه؟

تابع بتركيز قراءة هيلين للأسئلة وقد بدأ جسمه كلّه يعرق فرحة بمعرفته الأجوبة، وما كادت تنتهي من القراءة حتى انكبّ على الأوراق يسطّر الإجابة.

ها هو الصبي دحان يعود كما كان وجدّته العجوز تضع رأسه في حجرها وتمرّر يدَها عليه وتقرأ آيات الفتح والحفظ ثم تنفث ريق دعائها في يدها وتمسح بها على رأسه وصدره، فلا يمر عليه شيء إلا حفظه، وفي امتحانات التجاوز سيرفعه المعلم على طاولته فيسمو بقامته القصيرة على الأطفال كلّهم وهم يصفقون له.. هيلين صفّقي لذلك الصبي ودعي التلاميذ يصفّقون وإلا طالهم سوط المعلم، وأولهم ذلك الوغد عبد الله الذي يغار منه بسببك.. هل يرفعون المتفوّقين عندكم على الطاولات ويدعون الآخرين للتصفيق لهم؟.. إنه مهرجان نصر، لا يتلذّذ به إلا من ذاق طعمه، وأنتِ لا محالة قد ذقتِ طعمَه.. في عينيك ذكاءٌ لا بد أن صاحبته كانت دائمًا في المقدمة، لكن أمَّك لا تحفظ سورة الفتح ولم تحرزك بالمعوِّذتين،

صباحًا ومساء.. لم تعرفي تلك الطمأنينة التي تنساب إلى النفس مع صوت (أمّاه)، على الرغم من الحشرجة، ولم تري تينك العينين الغائرتين حين تغمضهما وتترك خيالها يرتقي بعيدًا في ملكوت السماء ويستنزل الرحمة عليها وعلى حفيدها الصغير (وليد أماه)، كما كانت تحب أن تسميه مضيفة إياه لنفسها من سائر أحفادها، أخته وأبناء عمته.. لا عليك يا أيتها العزيزة فسوف يعلمك إياها هو بعد أن تفرغا من هذا كلّه، وتجدا الوقت لذلك.. ستكونين جميلة في ملحفة من النيلة السوداء تشخصين بعينيك تضرّعًا وقد غطّت طبقة رقيقة من صبغ الملحفة الأسود بشرة وجهك البيضاء فأحالتها إلى زقزقة عذبة، وترفعين يديك ورسوم الحناء البديعة تطرز كفيكِ.. لا بأس بالدعاء في يوم العيد، فلْتحرزي نفسك وأطفالك.

في غمرة انشغاله أحس بطرف درّاعته يسقط عن كتفه، فأعاده إلى مكانه في لمح البصر وعيناه مذعورتان تفتشان عن هيلين وتفحصان القسم خوفًا من أين يكون أحد التلاميذ قد رآه، واطمأنَّ حين وجد هيلين جالسة على مكتبها منشغلة بأوراقها، ووجد التلاميذ منهمكين في الاختبار، فعاد إلى ورقته.. لم يكد يمر نصفُ الوقت حتى أكمل الأجوبة، وراجعها بعناية، ثم نظر إلى

سليمان فوجده لا يزال منهمكًا في العمل، فقال له:

"لقد أكملت الأجوبة، وسأخرج."

"هل ستنتظرني.. حتى أخرج إليك؟"

"لا.. لن أنتظرك.. درّاعتي مشقوقة، وسوف أذهب على الفور إلى السوق لخياطتها."

"إذًا تعال إليّ مساء غد."

وضع اللمسات الأخيرة على ورقته، وتأكد من اسمه ورقمه، ثم اطمأنَّ إلى هيئة درّاعته.. بدأ الطلاب يخرجون، وكلما سلَّم أحدُهم ورقتَه لهيلين تقول له: "إجازة سعيدة."

قام أحد الطلاب المجاورين له فخرج من طاولته وتبعه، أراد أن يصل إليها وهي لا تراه، حتى لا يسقط كمّه في الطريق إليها، ودّعت الطالبَ كما ودّعت زملاءه، وحين مد إليها ورقته نظرت في ساعتها ثم نظرت إليه مباشرة، وسألته:

"هل أجبت على الأسئلة كلها؟!"

"نعم."

"بقيَ من الوقت أربعون دقيقة.. راجع ورقتك."

"راجعتها بما فيه الكفاية."

تبسّمت وقالت له: "هل أنت متأكد؟"

هز رأسه، فأخذت منه الورقة وسألته:

"أما زلت تحاول حفظ المعجم."

"أظنّني بلغت نصف صفحاته.. الصفحةَ الثلاثين أو الواحدة والثلاثين.. لا أذكر بالضبط."

"هائل.. لكن عليك أن ترتاح الآن، أمامك إجازة أسبوع."

"سأفعل."

"اعتنِ بنفسك.. إلى اللقاء."

"وداعًا."

ها أنت مرة أخرى تربكين تفكيره.. لم تسألي الطالب الذي سبقه أن يراجع ورقتَه، ولم تنصحيه أن يستريحَ مدّة أسبوع الإجازة.. لا يعرف ما مدى قوة ذلك الحبل الذي تدلّينه له، ويخاف أن يتعلّق به فيسقط، لكنكِ تأبين إلا أن تحرّضيه على مغامرةٍ لا يملك أدواتها ولم يستعدّ لها.. لكن لا بأس، لن يخذلك، والورقة بين يديك تمعّني فيها.. وسترين أنه أجاب إجابة صحيحة عن كل سؤال، لكن عليك أنت أيضًا أن لا تخذليه، وأن تحترمي وعودك.. لقد تعب ولم يعد في نفسه متسعٌ لخذلانٍ جديد.. تكفيه الغصّة التي ابتلعها من أستاذ النظم الزلزالية.. هل تعرفين يا هيلين معنى أن يُحرم المرءُ من حلم حياته؟ إنه كمن يسقط فجأة في صحراء متاهة لا يميز فيها وجهته..

هو ذلك التائه الذي يدور حول نفسه، كلما اتَّجه في طريق يتبدّد أمامه، ويجد نفسه من جديد في المتاهة.. هل سيكون طريقه معك ممتدًّا إلى نهايته؟.. لا ينبغي لهذا الصفاء أن يخالطه كدر الكذب.. رآك في الحلم تدلّين له طرف ملحفتكِ وهو في قاع الجبّ بعيدًا، وكان الطرف يستطيل، ويستطيل بأعجوبة، وعيناك تشعان بنور البهجة، ووجهك يتغضّن كلما اقترب منه الطرف، حتى تشبّث به، فرفعتِه خفيفًا أعلى فأعلى في سرعة البرق.. لا يذكر أين صرتما بعد ذلك، لكنه متأكد من أنها أنتِ، على الرغم من الملحفة وغدائر الشعر الأسود والحنّاء في تينك الكفين النضرتين.. آه، ما أجمل الحناء في كفين نضرتين.

يستحقّها وتستحقّه

لم يكن إلحاح العالية عليه كي يبقى في المنزل مساء ذلك اليوم ليثنيه عن حضور حصة الإنكليزية، على الرغم من أن مسوِّغها كان وجيهًا، فقد بعثت إحدى قريباتهم إليها قبل يومين أنها ستزورها مساء ذلك اليوم، وفهمت العالية من فحوى الرسالة أنها زيارة خطوبة، لأن تلك القريبة لها إخوة غير متزوجين، وخشيت أن يكون مع المرأة أحد إخوتها لتوصيلها، فلا يلقى أمامه رجلًا يجالسه، وليس من العادة أن يحضر الأب مثل تلك اللقاءات، فتلك أمور تدبّرها النساء ويقضينها ثم يخبرن الرجال بنتائجها لإقرارها، وقد أرادت العالية من ابنها أن يكون حاضرًا لاستقبال من يحضر من الرجال ومحادثته أثناء انشغال المرأة باختبار البنتين.. لم يكن قادرًا على الامتثال لأمرها، فكيف يتخلف عن تلك الحصة المشهودة التي انتظرها أسبوعًا كاملًا كأنه سنة؟!.. كان ذهنه دائبًا في تخيّل مشاهدها، لم تفارق ذهنه تلك الغزالة وهي تتحرك جيئة وذهابًا

بينهم وبين السبورة، وتهش له وتبتسم كلما أجابها على سؤال استعصى على بقية الطلاب، فيرتجف فؤاده فرحًا.. تتجاهله طويلًا حتى تتأكد من أن أيًّا من الآخرين لا يعرف الإجابة.

هل كانت تريد أن تريهم أنه ليس مثلهم أم أنها تريد أن تؤكد ذلك لنفسها أوّلًا؟.. إنها تحيّره، تهزّ الحبل المشدود لتختبر مهارته في السير عليه، وتطرب لتلك المهارة، لكنها لا تتوقف عن هزّه.. إلى متى ستظل تلعب معه لعبتها القاتلة؟.. هل تريده أن يسقط فيندكّ عنقُه وينتهي جثّةً هامدة؟.. لا، لا وماذا تستفيد من ذلك؟ ربما تريد فقط أن تسلّي نفسها برؤيته وهو يترنّح ثم ينجح.. على كل حال، هو لن يستعجل، وسيظل يتقن حرفة السير على الحبل المشدود حتى النهاية.

لم ينقذْه من ورطتة إلا سكينة، التي حضرت لتؤازر أمها أثناء اللّقاء، فقد أقنعتها بأنه لا ضرورة لوجوده.. كان متحرّقًا إلى استلام نتيجة عمله، ويريد أن يستأنف الدروس بأسرع وقت، ويواصل بلا انقطاع حتى تنتهي تلك الدورة ويحصل على شهادتها.. يخاف أن يحدث ما يقطعه عن المتابعة، ويتعجّل الأيام كي تمر بسرعة، لعل في نهايتها خلاصًا لهذه الروح المدمّرة والجسد المُتعب.. لم تكسر ثقوب المسامير الكثيرة ولا جراحات شظايا الزجاج والزنك

في قدميه حلمَه.. لم تكن نعال البلاستيك تقف في وجه المسمار المدبب الذي يخترقها بعنف وينغرز عميقًا في لحم القدم، فتتقلص عضلاته ويطير الألم في الدماغ والقلب معًا، ويرميه أرضًا، قبل أن يرد نظره فزعًا ليرى النعل مشبوكًا إلى قدمه، وخيطًا من الدم الأسود يسيل من بينهما، ويغمض عينيه ويعض شفتيه ليقوى على تحمل ألم استلالها بيد أحد المارة خف لنجدته؛ لحظات إغماء يفيق منها، كأنما رجع إلى الحياة، لكن الدم الفائر بدأ يتدفق بقوة، يحملونه إلى حافة الطريق ويسندون ظهره إلى جدار الدكان، وتأتيه امرأة بمرهم (المانتولاتيم) وتدهن به فتحة الجرح وتعصبها بسريحة قماش بالية، وتجلب إليه فتاة من الزنوج ماء باردًا من الجرة الباردة التي يضعها أهلُها على حافة الطريق للمارة كي يشربوا منها، وما أحوجهم إليها في شمس الصيف الحارة التي تسخّن مياه البراميل الحديدية.. لم ينتبهوا إلى دفتره الذي سقط مع سقوطه، وطاش عنه فؤاده هو بسبب الرعب الذي تملّكه والألم الذي أفقده صوابه، لكن العنزة الداجنة لاحظته، فوقفت في نصف الطريق غير عابئة بالمارة تمتّع نفسَها بوجبة دسمة بالحبر الأزرق المطرز بالأحمر، باغتوها حين نهبهم هو إليه، ففرت تمضغه، وحين عادوا إليه بالدفتر كان ما يقارب نصفه قد تلف، دروس كتبت بعناية

وأشكال هندسية رسمت بدقة، وبعد غدٍ سينظر المعلم في دفاتر التلاميذ، ويسند إليها علاماتٍ حسب نظافتها واكتمال الدروس فيها وحسن كتابتها، وسيعدّ ذلك إهمالًا إذا هو أخبره بأن عنزةً أكلت دفتره، وقد لا يصدّق أن ذلك حدث في أحد تلك الطرقات النتنة المبلّلة بالماء والقاذورات بين أكواخ الكبة، التي لم يسلم منها قميصه وبنطلون الجنز البالي الذي يلبسه، سيضربه بذلك السوط القوي الذي يلهب به ظهور الكسالى؛ نصحوه بالذهاب إلى المستشفى لأخذ حقنة ضد (التيتانوس)، لكنّ تفكير والده كان مختلفًا، فقد وضع مسمارًا في الجمر، وقال إن الشفاء في ثلاث، وعدّ منها كيّة من نار، وقبض بيديه الكبيرتين على قدمه الصغيرة وأمره بتحويل نظره إلى الجهة المقابلة.. أراد أن يتوسّل إلى أبيه أن لا يفعل، لكنه لم يتوسل، ختم الخوف على لسانه.. لم يبكِ لكنَّ جسدّه طفح بالعرق، وحين سمع شنشنة اللحم وشم رائحة الاحتراق جذب قدمه من دون جدوى، وأيقن بالموت، ومرّت لحظاتٌ لم يستطع فيها أن يتحرك، ضاع منه جسمه، وفقد السيطرة عليه، وحين رفعت أمُّه رأسَه لتجلسه ورأى أباه وهو يتبسم تهكّمًا منه لخوفه تمنى أن يبكي بصوت مرتفع احتجاجًا على الرعب الذي سببه له، أو ربما فرحًا بالنجاة، بيد أنه في صباح اليوم التالي رأى الجرح يابسًا

والورم من حوله قد تلاشى، ومشى نشيطًا لا يعرج ولا يحسّ بألم، فأدرك أن العملية آتت أكلها.

برق في ذهنه ذلك المنزل الساحر ساعة أسندوا ظهره إلى الجدار الخشبي للدكان وهو يغمض عينيه ويفتحهما ويعض على شفتيه من الألم، والدم يطفح من قدمه قويًّا.. تحسّس بيده البلل الذي تسرّب إلى تحت البنطلون حين سقط في المستنقع.. بدا المنزل كالقصر منفردًا وسط خضرة تحفّه من كل مكان، والطرقات المبلطة والمسفلتة تتخلل تلك الخضرة، وفي الداخل القاعات والدهاليز والغرف والستائر، وأسرة وكراسي وكنبات وطاولات من خشب الزان الأسمر.. يراوده الحلم كلما قسا عليه المكان، وكلما صفّقت الريح في أكواخ (الكبة) المنسية منذ عقود تحت وعد مكذوب بتوزيع القطع الأرضية على سكانها الذين ملّوا تلك الوعود، وصار كل من يجد وسيلة للانعتاق من ذلك المكان يهرب عنه بلا رجعة.. مات الحلم مع سرقتهم لمنحة السلك الثالث منه.. تلاشى بتفاصيله الجميلة كلّها، وجاءت هيلين ودورتها لتسقي جذوره اليابسة، لعلها تبرعم من جديد.. بصيص ضوء يتراءى من خلف ابتسامتها الودود.

فرزت هيلين أوراقها وكتبها على مكتبها، وبدأت تناقش معهم

الأجوبة وتكتب الحلول على السبورة، وتضع علامة كل إجابة بالأحمر المميز.. مع كل إجابة ينتفض قلبه برجفة فرح عارمة.. هي الأجوبة نفسها كما دوّنها على ما يذكر.. ليس هناك فرق سوى في بعض المفردات والعبارات التي لا تؤثر في العلامات.. أغلب ظنه، أو هو شبه متأكد من أنه أجاب الإجابة الصحيحة عن كل سؤال.. حملت هيلين أوراق الإجابات بين يديها وأجالت نظراتها في الحجرة.. سكن كل شيء وساد الصمت.. ضربات قلبه بلغت آخر سرعتها، حتى ليخيل إليه أن الآخرين يسمعونها، ويرون حركة صدره من تحت قميصه ودرّاعته.. عدّل جلسته منتصبًا ليبدو طبيعيًّا متماسكًا، ورفع بصره إلى هيلين فالتقت نظراته بنظراتها التي كانت تركزها عليه، وقد تهلل وجهُها بالبِشْر وقالت له: "عظيم، يا سيد عبد الرحمن، أنت رائع.. لقد حصلت على العلامة كلها."

اهتزّ كيانُه بقوة، وصفّق له سليمان، ثم تبعه الطلاب جميعًا، وشاركتهم هيلين في ذلك.. عادت إليه نشوة ذلك الصبي عندما رفعه معلمه وأوقفه فوق مكتبه ليطل على صبْية الفصل من فوقهم، فيصفّقون له بأمر من ذلك المعلم المهيب.. حرز جدته لم ينتقض أبدًا ولم يخِب.. صدى صوتها المتحشرج الضارع وهي تتلو عليه آيات الفهم والنجاح يتردد في أذنيه.. مد يده واستلم منها الورقة، وهو

يقول لها مبتسمًا: "شكرًا.." وسليمان يصفّق له بشدة، والآخرون أيضًا، وعلى طريقة المنتصرين رفع يده بالورقة، ولوّح لهم، وهو يقول: "شكرًا.. شكرًا لكم، أصدقائي."

بتلقائية تامّة اشتبك مع سليمان في عناق قوي.. كانت هيلين لا تزال واقفة في مكانها مما يلي سليمان، مأخوذة بالموقف، وقد أصبحت أمامه مباشرة ووجهه على كتف سليمان قريب جدًّا منها.. نظر إليها ثم أرخى نظراته إلى الأسفل، وأغمض عينيه للحظة ذهب فيها خيالُه بعيدًا.. أخذ نفَسًا عميقًا، تسربت معه رائحة عطرها الخفيف البارد كأنها أريج أزهار الربيع التي كانت أجمل ما يلهو به مع أبناء عمومته، في تلك المرات القليلة التي زار فيها البادية حين كان صغيرًا.. تشبّع دماغه بالرائحة، فضم سليمان بقوة ثم أرسله.

في نهاية الحصّة استدعته هيلين إلى مكاتب الهيئة، وهناك أدخلته على منسّق الهيئة وقالت له: "هذا هو الشاب عبد الرحمن الذي حدّثتك عنه، وكما قلت لك فإنه يستحقّ أن نسعى له في منحة دراسية."

قال له المنسّق بالعربية:

"سررتُ برؤيتك يا سيد عبد الرحمن، هيلين معجبة بأدائك في الدروس، وفي الاختبار الأخير، وقد حدّثتني عن التجربة المريرة التي

مررت بها في الجامعة، ونحن لن ندّخر جهدًا في مساعدتك."
رفع إليه عبد الرحمن بصره، كان رجلًا ستّينيًّا تألفه العين، وقد أفرحه حديثُه، فقال له عبد الرحمن: "هذا من لطفها.. الأستاذة هيلين إنسانة رائعة.. تعتني بنا جميعًا، وتهتمّ بالبحث عن حلول لمشاكلنا."
نظرت إليه هيلين مبتسمة، وهزت رأسها تجاوبًا، وكانت تستوعب قليلًا.
قال المنسّق وهو ينظر إلى هيلين: "هي فعلًا إنسانة رائعة، وما تقوم به هو جوهر عملنا هنا، نحن ملتزمون بمساعدة الناس من أجل أنْ تتحسّن ظروف حياتهم، هذا واجبنا الإنساني، ولا معنى للإنسانية ما لم نكن جميعًا مستعدّين لتقديم يد المساعدة لغيرنا حين يحتاجها."
قال له عبد الرحمن وكأنه متحدث رسمي: "نحن نقدّر جهدكم وما تقومون به من أجلنا، ونشكركم جدًّا عليه."
قال له المنسّق:
"عندما تصلون إلى المرحلة الأخيرة سأطلب أوراقَك لأبعث بها إلى إحدى الجامعات حتى أحصل لك على تسجيل.. لكن ساعدني بالمحافظة على مستواك هذا في المرحلتين القادمتين، لأن مستوى

اللغة الإنجليزية مهمّ في معايير التسجيل، وهذه الدورة -وإن كانت قصيرة- إلا أنها مكثفة، وشهادتها تعادل سنة من التعليم النظامي، ومعترف بها في أمريكا."

"أنا شاكر لك، وسأبذل قصارى جهدي."

تحدّث المنسّق إلى هيلين بالإنجليزية، ثم شكرته ووقفت فوقف عبد الرحمن بدوره وودّعاه وخرجا. في الردهة أمام مباني الإدارة قالت له:

"أنا متفائلة بك، أردته أن يتعرّف عليك، ويضعك في اهتمامه، له علاقات قوية في أمريكا، ويستطيع أن يحصل لك على التسجيل."

"لا أعرف كيف أشكرك."

"أنت شاب ذكي، وتستحقّ أكثر من هذا.. تستحقّ أن تذهب إلى أمريكا، لتجد فرصتك هناك.. أنا أتوقّع لك مستقبلًا جيّدًا.. أمريكا بلد عظيم، يقدّس الاجتهاد والعبقرية، وبالمقابل أنت أيضًا ستفيد أمريكا بذكائك.. إنك تستحقها وهي تستحقك."

أخجله ثناؤها عليه.. وارتجفت شفتاه وهو يقول لها: "شكرًا لك."

ودّعته، لكنها هذه المرة لم تمدّ إليه يدها.. بل اكتفت بأن تقول له باسمة: "حظًّا سعيدًا."

خرج من مبنى الهيئة يكاد يطير من الفرح، فوجد سليمان في

انتظاره، متلهِّفًا لمعرفة سبب استدعائها إيّاه، فبادره وهو يضرب يده بيده تصفيقة الفرح، وقال له:

"أبشر يا صديقي، سوف نذهب إلى أمريكا قريبًا."

"أحقًّا؟ وكيف ذلك؟"

"سأسبقك ثم تلحق بي."

رفع سليمان يده وتضاربا بالأكف ثانية، وقال له:

"هذا رائع؟!"

"لقد أدخلتْني على منسّق الهيئة، ووعدني بأنه سيسعى لي في منحة، وسيبعث بأوراقي في بداية المرحلة الثالثة من الدورة، وأكّدت لي هيلين أنه سيحصل لي عليها لأنه رجل علاقات واسعة."

"الله.. الله! هنيئًا لك يا صديقي."

"حالما تطأ قدمي أمريكا سوف أسعى من أجل أن تلحق بي."

"أهم شيء هو أن تجد أنت فرصة لمواصلة دراساتك العليا."

"نحن رفيقان، وأينما ذهب أحدُنا فسيلحق به الآخر.."

"هذا إذا لم تخطفك خطّافة العقول مني."

"ومن هي خطّافة العقول؟"

"كأنك لا تعرفها! اهتمامها بك يفوق اهتمام أستاذة بطالبها."

تبسّم للملاحظة، وقال له بحسرة:

"وأين أنا منها حتى تفكر بي؟"

"الغربيون لا يعرفون مثل هذه الفروق التي عندنا، يضعون الهوى والحب فوق الاعتبارات كلّها، والمرأة فيهم مستعدة لتقبّل الرجل الذي تحبه حتى لو كان متشرّدًا، ينام في الشوارع.. ثم إنك إذا مُنِحت فستكون شخصًا آخر غير دحّان."

"أنت تبالغ في خيالاتك.. أخشى أن يكون هذا الاهتمام لأغراض أخرى."

"اطرد من ذهنك الوساوس، وتوكل على الله، سوف تحصل على التسجيل وستسافر إلى أمريكا للدراسة."

"ذلك ما أرجوه."

أمسك سليمان بيد عبد الرحمن وقال:

"هذه أخبار سارة تستحق أن نأكل من أجلها الكسكس بلحم الرأس والمصارين والكرش، هيا بنا إلى التيارت."

"لا بد أن أذهب إلى المنزل الآن.."

"أصبحت تتهرّب من دعوتي؟"

"لا، ولكنّي تركت أمي تنتظر ضيوفًا، وخطبة لإحدى البنات."

"مبروك، أيهما؟"

"لم تحدد بعد، فهي زيارة أولية لقريبة لنا تبحث عن عروس لأخيها."

"أيٌّ منهما تزوجت، فهذا خبر سار."

في المنزل روت له سكينة كيف أن الزهرة رفضت أن تدخل على تلك المرأة في السقيفة ولزمت كوخ النساء، وقد دخلت عليها المرأة في الكوخ وسألتها: "ما بال عروسنا لا تسلّم."

أجابتها:

"أنا لست عروسًا."

"إذًا أنت ماذا؟!"

"أنا طفلة مجنونة، عند أهل الغوث."

"أنت عروس جميلة.. لا ينقصك غير زوج."

"ما أضعف بصيرتك بالنساء، إذا كنت تحسبين أنني أنا عروس."

أحست المرأة بالإهانة فقالت لها غاضبة: "أنتِ حقًّا لا تصلحين للزواج."

أنهت المرأة الزيارة بترشيح زينب للزواج من أخيها، وهو رجل يسكن في البادية ولديه ثروة من الماشية بين الإبل والغنم، وأكدت لهم أنها مخوّلة باتخاذ قرار نهائي، وأن الزواج سوف يكون في عيد الأضحى القادم.

سُرَّ عبد الرحمن بذلك ووجده مناسبًا، خصوصًا أنّ زينب فتاة هادئة، وهي بما جبلت عليه من اللين والمسالمة وحب الخدمة مناسبة لرجل جلّ وقته في البادية، وسوف تكون أقدر على التكيّف مع ظروفه.

وعد هيلين

تواصلت المرحلة الثانية من دورة الإنجليزية بوتيرة الأولى نفسها، وزاد عبد الرحمن من اجتهاده، وفي اختبار التجاوز إلى المرحلة الأخيرة كاد يحصل على النتيجة كاملة لولا خطأ واحد كلفه نقطتين، لكنه ظل على رأس القائمة بفارق كبير عن الآخرين، وفي بداية المرحلة الأخيرة من الدورة أخذته هيلين مرة أخرى إلى منسّق الهيئة، فاستقبله كما في المرة الأولى، وطلب منه أن يمهله يومين أو ثلاثة ريثما يتحرّى عن الجامعات التي يمكن أن يحصل له فيها على تسجيل، وبعد يومين أخذته هيلين مرة أخرى إلى المنسّق، فأعطاه لائحة بالوثائق المطلوبة، وأخبره أنه سيبعث بالملف إلى إحدى الجامعات مع رسالة من الهيئة تشرح ظروفه كلّها، وسيكلف أحد أصدقائه بمتابعة الملف؛ وكانت هيلين في تلك الأيام متحمسة شديدة الفرح بتقدم إجراءات الطلب، وتحثه على الإسراع فيها، حتى إنها تطوّعت له بترجمة الوثائق المطلوبة إلى الإنكليزية عند مترجمين تتعامل معهم

الهيئة، وخلال أيام كان الملف جاهزًا وقدّمه إلى المنسّق، بعد يومين أخبرته هيلين -وهما يخرجان من الفصل- بأن الملفّ تم إرساله إلى الجامعة، وعلّقت: "انتهى الأمر، سوف تحصل على الموافقة، وسوف نصبح نناديك (الدكتور) عبد الرحمن."

في تلك الليلة لم يطرق النعاسُ جفنيه.. كان كأنما شرب منشّطًا، بودِّه لو خرج من الكوخ وجرى بأقصى سرعته وتقافز ورقص.. انبثق الفرحُ في جسده طاقة هائلة تبحث عن طريق للخروج، لم يلمِّها له اضّجاعُه على حشية صغيرة في ركن ذلك الكوخ.. يريد فضاء واسعًا، ونسمات من أريج أزهار ذلك العالم البعيد الذي حطت فيه أحلام ملايين البشر من أركان الأرض الأربعة وتحققت بسهولة، "أمريكا بلد عظيم.. تستحقّك وتستحقّها"، هكذا قالت له هيلين في المرة الأولى التي أخذته فيها إلى المنسّق.. لكنها اليوم ذهبت أبعد من ذلك فقالت له: "سوف نصبح نناديك (الدكتور) عبد الرحمن".. تُرى فيمَ كانت تفكّر عندما رمت إليه بتلك العبارة؟.. ألم يقل سليمان، "المرأة فيهم مستعدة لتقبّل الرجل الذي تحبّه حتى لو كان متشرّدًا، ينام في الشوارع"؟.. لن يتشرد في أمريكا، سيدرس في جامعة متقدمة، وسوف يحصل على سكن جميل من مساكن الطلاب في تلك الجامعة، أو حتى خارج الجامعة.. يستطيع أن يعيش حياته

كأي إنسان، بل أكثر من أي إنسان.. سيكون شخصًا محترمًا.. يمكنه أن يعمل ويجني المال ويتابع دروسه.. أمريكا بلد الفرص..

"سوف نناديك (الدكتور) عبد الرحمن."

ليته يستطيع أن يطّلع على ما في صدرها.. لا بدّ أنها ستعطيه عنوانها في أمريكا وسيبقيان على اتصال.. ستناديه (الدكتور) وسيناديها.. ماذا سيناديها؟.. سيُسقط لقب الأستاذة، وربما يناديها بلقب آخر، إذا هي قبلت.. لا يبدو عليها الكبر.. هي أصغر منه ولا شك بسنتين أو ثلاث.. أوه يؤرقه الخيال.. يذهب به أبعد ممّا يذهب بسليمان، وينسى أن هذا الاهتمام به والسعي له في منحة ليس سوى وسيلة للإيقاع به.. هيلين هي المقود الذي سيقودونه به إلى الهاوية.. يتحمّس له المنسّق ويحدّثه عن الإنسانية، ذلك الطعم اللزج الذي يرمونه في عقول الضعفاء حتى يتمكنوا منهم، ثم يستغلونهم كما يشاؤون.. ما زال متوجِّسًا من عرض اللحظات الأخيرة حين يكون الأوان قد فات والرجوع انتحارًا.

لقد قال له عبد الله زميله بنيّة غير سليمة: "حذارِ من الاندفاع معهم، فإنهم لا يسْعون إلا إلى استخدامك جاسوسًا."

أجابه متهكِّمًا:

"لا تخشَ عليّ، فطينتي لا تصلح للجاسوسية."

"حقًّا! إذًا ابتعد عنهم."

لا يثق بعبد الله، ويعرف أنه يحسده على تميّزه وتقريب هيلين له، لكن ذلك لم يمنع كلامَه من أن يوسوس، وقد زاد شكوكه ما قالته له فائزة، رديفته في التفوق، فقد كانا خارجين من الفصل يناقشان جملة في نص، فسألته عن إجراءات طلبه وتمنت له التوفيق، وحثّته على أن يكون حذِرًا وفطِنًا لكل إشارة أو فعل يصدر منهم تجاهه، وأن لا يلبسهم على الطهارة كما يقال، فهم في أغلب الأحوال خبيثون.. لن تستطيع هيلين ولا المنحة أن تدفعه إلى الخروج من ذاته ومن عباءته ليصبح أداة في أيديهم.. لكن ما يخشاه هو شيء أكبر من ذلك، أن يوقعوه في ورطة لا خيار له فيها، فهم كما قالت فائزة، خبيثون.. لا يعرف على أي جنب يستقر.. لن يستطيع أن ينام إذا ظلَّ يقلّب تلك الهواجس في ذهنه.. عليه أن يعمل بنصيحة سليمان ويتوكّل على الله، ويُؤَمِّل أن يكون الأمرُ كله خيرًا، وأن ينعم بمنحة لا تكلفه شيئًا.

أمريكا تحت النار

مر أسبوع واثنان ودخل الثالث.. كان عبد الرحمن متلهّفًا على جواب الطلب.. يحسب الأيام يومًا بيوم، وقد قالوا له إن الردّ يكون عادةً فيما بين عشرين إلى ثلاثين يومًا، لكن ما حدث هدَّ كيانه برمته.. كان نائمًا في السقيفة، عندما أيقظته جلبة أخته وهما تصيحان وتتعجبان، والزهرة تقول لزينب: "هيا بنا إلى أهل عبود لمشاهده التلفزيون."

سمع أقدامهما تدك الأرض، ففتح عينيه وأصغى إلى الراديو القريب منه.. فاته الخبر لكنه فهم من خلال الأسئلة التي يطرحها مذيع البي بي سي على أحد المحللين أن انفجارًا هائلًا وقع في مدينة نيويورك في أمريكا.. نهض وتبع أخته، اجتاز شباك منزل أهل المختار المجاور لهم وجمع عليه درّاعته ليعبر من ممر ضيق خلف المنزل الخشبي، وفاجأته اطويلة وقد أخرجت رأسها وصدرها من نافذة الكوخ الواطئة: "أهذا أنت يا دحان.. لم تعد تزورنا، ولا حتى تلقي إلينا بالسلام."

أطلقت ضحكتها البلهاء، قال لها من دون أن يتوقّف: "أنا مشغول هذه الأيام."

مدّت يدها والتقطت كُمّ درّاعته السفلي قبل أن يبتعد، وجذبته فتوقف:

"لا أراك كذلك.. طول اليوم تقلب جنبيك في سقيفتكم.. وتتشاغل بالراديو."

"إذًا، لديك أخباري!"

ضحكت من جديد، ولوت عنقها بشدة ورفعت بصرها تجاهه وتعمّدت أن يَسقطَ طرفُ ملحفتها عن رأسها، ليبدو شعرها الطويل الفاحم الذي عقدته على عنقها، وغمزت له بعينها: "هل يزعجك ذلك؟"

نظر عن يمينه وشماله، وجذب كُمّه برفقٍ يريدها أن ترسله، فأضافت:

"لا تخشَ شيئًا، فلن آكلك.. يا لك من طفل في جسم شاب."

"أنا مستعجل.."

قالت بامتعاض: "ذاهب إلى ابنة عبود.. يا لخسارة هذه الوسامة إذ تضيع في سواد حرطانية.. ألا تقشعرّ من أنفها الأفطس.. صدّقني إنَّ شيطانك أعمى."

كظم غيظَه، ولم يسمعْها الجملة التي تردّدت على لسانه سرًّا:
"أنفها الأفطس أجمل من أسنانك التي تفر من بين شفتيك.."
يكفيه أنها أرسلت كُمَّه وحرّرته من فجاجة غزلها.
لم يطقْها من أول يوم نزل أهلُها فيه بجوارهم.. كان ينفر من أسنانها الطويلة الخارجة من شفتيها وقامتها القصيرة المدورة كأنها صُبّت من قالب اسطواني، ولم يغفر لها أنها كانت قديمًا تفتري عليه، وتقول له إنَّ (ظهره مخطط)، أمّا السالمة بنت عبود فقد ربطته بها صداقة خاصة.. أبوها سائق شاحنة كبيرة وقد اشترى تلك القطعة الأرضية التي في جوارهم منذ سبع سنوات تقريبًا، وبنى فيها منزلًا واسعًا من صفائح الخشب، بفرندة وصالة للضيوف وثلاث غرف ومطبخ، وبلّط أرضيته بالإسمنت وطلاه من الداخل والخارج بالأزرق المائي، وفَصَلَ عنه الحمام كما هي عادة أهل الكبة، لأن حماماتهم تنبعث منها الرائحة الكريهة بشكل دائم، وأصبح المنزل علامة فريدة يستدل بها الناس في الحي وجواره، وسط متاهة من الأكواخ الخشبية الرمادية الشاحبة المبنية بعشوائية.. لم تلتحق السالمة بأهلها في سكنهم الجديد إلا بعد ثلاث سنوات، فقد كانت غائبة في زواج من أحد عمال شركة (سنيم) في ازويرات، وأثمر ذلك الزواج بنتًا، ثم طلقها زوجها، فالتحقت بأهلها في نواكشوط..

لكنها كانت فتاة ذكية، سبق أنْ وصلت إلى الثانوية قبل زواجها، فقررت بعد عودتها أن تحصل على البكلوريا، ولجأت إلى عبد الرحمن لمساعدتها في التحضير للامتحان، ولم يبخل عليها بذلك.. بهرتْه باجتهادها وسرعة استيعابها.. في المرة الأولى لم يكن الوقت كافيًا للمرور على كامل البرنامج، فلم يحالفها الحظّ، لكنها نجحت في الثانية.. استراحت إليها نفسُه، وشجّعته روحُها المَرِحة وثقتها بنفسها على صداقتها، تعجبه المرأة الواثقة بنفسها من غير وقاحة وابتذال.. انبرمت بينهما صداقة خاصة، كانت تحكي له تفاصيل معاناتها وعذاباتها مع زوجها الغيور، الذي منعها من مواصلة دراستها، وتعوّد أن يُغلق عليها المنزل ويذهب إلى العمل، فتبقى حبيسةً حتى يعود، وكان بدوره يقصّ عليها معاناته في البحث عن العمل، والمواقف الحزينة التي كان يمر بها، وكان يحدّثها عن مجريات الدورة ويسهو فيبالغ في الحديث عن هيلين فتفتعل الغيرة، فينكر بشدة أي ميل له إلى هيلين؛ وربما أخذا في تقييم النساء من ساكنات الحي، فكان يعطيها رأيه من دون تردد، وهو ما لا يفعله إلا مع سليمان.

في منزل أهل عبود وجد عبد الرحمن في غرفة الضيوف السالمة وأختها وأمهما ورجلًا من أقاربهم، ووجد أختيه وأفرادًا من جيرانهم

مثله، ليس في منازل أهلهم تلفزيونات.. كانوا جميعًا مشدودين إلى ذلك الجهاز العريض الملوّن، وهي ميْزة نادرة في تلفزيونات الكبة، فأغلبها بالأبيض والأسود.

ارتجف فؤادُه من هول المشاهد، رأى البرجين العظيمين تلتهمهما النار، وأعدادًا هائلة من البشر في كل طابق يلوّحون بأيديهم طلبًا للنجدة، والبعض يرمي بنفسه من شاهقات الطوابق.. يتهاوى البرجان واحدًا تلو الآخر.. غلالة هائلة من الدخان والغبار تلف المكان، والحطام يطير في كل اتجاه.. أبينة مجاورة تتداعى ولا نهاية للهرج والفزع الذي أصاب المدينة.. القنوات امتلأت بمشاهد الرعب.. تُبدِّل السالمة بنت عبود من محطة إلى أخرى.. إم بي سي، الجزيرة.. وتي في 5 التي طلب قريبهم مشاهدتها.. كانت التعليقات تأتي متقطّعة من هنا وهناك، من الحاضرين:

"الله أكبر، لقد دمروا والعياذ بالله.."

"يستحقّون ذلك، إنهم أعداء.."

"لا تقل هذا، هؤلاء ناس أبرياء.. آمنون في منازلهم.. لم يرفعوا سلاحًا ولم يعتدوا على أحد.. فكيف يستحقّون القتل؟!.. هذا فساد في الأرض وسفك لدماء حرام."

"ياي.. أعوذ بالله، انظروا إلى تلك المرأة التي تقفز من رأس العمارة،

هذا فظيع.. أليس هناك من يستطيع أن ينقذ هذه المسكينة؟!.. إنّا لله وإنّا إليه راجعون."

"نفسها نفس كلب، انظري إليها عارية.."

"حرام عليك، هذه نفس إنسان مثلك، نفس بريئة.."

لم يشفِ التلفزيون غليلَ عبد الرحمن تمامًا، فبعث الزهرة لتجلب له جهاز الراديو.. ذلك المذياع من نوع صانيو ذي الإطار الخشبي الذي لم يفقد بريقه على الرغم من أن عمره يقارب الخمس عشرة سنة.. لا شيء يضاهي ذلك الصانيو في قوة التقاط المحطات، على الرغم من انكسار الهوائي وسقوطه.. ظل كلما انتهت فترةٌ إخبارية في محطة أدار زر المذياع إلى محطّة أخرى فيأتيه البث قويًّا صافيًا.. أمام عينيه المحطات التلفزيونية تعرض الصور، وعلى ركبته المنصوبة يستقر الراديو، وهو يميل عليه بأذنه وقد خفض صوته حتى لا يشوش على بقية المشاهدين.. على الشاشة.. أمريكا تحترق.. أمريكا تحت النار.. برجا مركز التجارة العالمي في نيويورك يحترقان بعد هجوم بطائرتين، وقد سقطا، تهدّما تمامًا، ومستوى الدمار والموت يفوق الخيال.. في إذاعة البي بي سي الرئيس بوش لم يظهر، ومصيرُه غامض، ومبنى البنتاغون في أورلنغتون استُهدِف هو الآخر بطائرة ثالثة.. إم بي سي: حسني مبارك غير قادر على استيعاب

الصدمة، وكيف يقع ذلك لأمريكا.. إذاعة فرنسا الدولية: حديث عن منظمة إسلامية متشدّدة تُسمّى القاعدة، ورجل لا يذكر هل سمع عنه من قبل، اسمه أسامة بن لادن.. على قناة الجزيرة: الرئيس بوش يظهر أخيرًا ويتوعّد العالمَ بأن أمريكا ستنتقم، وأنَّ انتقامَها سيكون مدمِّرًا، ويتلفظ بألفاظ معادية للإسلام.. إسرائيل في حالة استنفار قصوى.. ردود الفعل العالمية تتواتر منددّة ومتضامنة مع أمريكا.. القذّافي يهزأ من أمريكا ومن السي آي إي.. توني بلير يتميز من الغضب وقد استدعى مستشاريه الأمنيين كافة. كم من الوقت مرّ عليه وهو على تلك الحالة، يبدّل الراديو بين ركبتيه وتارة يطرحه أرضًا ويتّكئ على جنبه.. لم ينتبه إلى أنَّ كل الذين كانوا في الغرفة قد انفضوا من حوله، ولا يذكر متى وصل الريموت إلى يده فأصبح يقلب بين المحطات.. شيء ما يشغل باله وحيرة لا يدرك ما هو كنهها، ولا يستطيع أن يحدد ما إذا كان فرحًا بتلك الأحداث أم حزينًا، ولم يترك له تلاحُقها فرصة للتفكير.. كان يبحث عن نهاية ينتهي إليها سيل الأخبار.. كذّب نفسه، وخال أنّه في حلم، وأنه نائم في سقيفة منزل أهله، فرفع بصره عن التلفزيون وتلفّت حولَه، لكنّ جدران الكوخ الخشبية المطليّة بالأزرق المائي، وصفوف الحشايا الفخمة على طول تلك الجدران، والزربية

التركية الحمراء البديعة الزركشة في وسط الصالة حيث يجلس الآن، ذلك كلّه يخبره أنه في منزل أهل عبود.. سمع والدتهم تنادي على أحد أبنائها أن يعطيها سجادة الصلاة، انتبه إلى أن الوقت عصر وأنه نسي صلاة الظهر في غمرة تركيزه على الأخبار، وعندما أراد الوقوف آلمته عضلاته التي تجمد الدم فيها من طول الجلوس، وأحس بمعدته تتشظى من الخواء، وكان قد ردَّ زينبَ مرتين جاءته فيهما تطلبه للغداء.

عاد إلى المنزل وصلى ثم جلس للغداء ووضع الراديو عند ركبته، وجد الطعام يابسًا ماسخًا، وانسدت شهيتُه مع أول لقمة استعصى عليه مضغها، ولم يبتلعها إلا بجرعة من الماء، ولولا أنه وجد قطعة أو اثنتين من اللحم لظن أنهم صنعوا الأرز من دون إدام، ولم يكد يضع اللقمة الثالثة في فمه حتى جاءه صوتُ مذيع البي بي سي قويًّا، فعضّ على لقمته وتوقف عن المضغ يسمع النبأ:

"الخارجية الأمريكية تصدر أمرًا إلى رعاياها في الدول العربية وبعض الدول الإسلامية بمغادرة تلك البلدان في أسرع وقت، وتخفّض تمثيلها الدبلوماسي في عدد من تلك الدول."

جمدت أعضاؤه، وظل يبحلق في الراديو، وقد غاب عمّا حوله.. هذا ما كان يخشاه منذ أن سمع خبر الهجوم، تابع كل صغيرة وكبيرة في

أحداث ذلك اليوم ويده على قلبه مخافة أن يقرع أذنه مثلُ ذلك الخبر، لأنه يعني نهاية مشواره.. لم تغب هيلين عن ذهنه طوال تلك الساعات.. كان طيفها يظهر ويختفي، لكنه كان يؤجّل التفكير في الأمر، مصغيًا إلى الأخبار.. الآن، وقد أُعلِن النبأ، ماذا سيفعل؟

قالت له زينب: "ما لك توقّفت عن مضغ لقمتك؟!"

انتبه ونظر إليها غضبان، ثم قرّب مغسل اليدين ورفع غطاءه وتفل فيه ما في فمه وقال لها: "بسم الله الرحمن الرحيم منك.. حتى اللقمة في الحلق لا تسلم من نظراتك.. أنت قطعًا (سلالة) مصّاصة دم."

أصيبت الفتاة بالصدمة وانكفأت على حجر أمها الجالسة قربها وأجهشت بالبكاء، ربتت النّاه على ظهرها وقالت لعبد الرحمن: "هل هذا هو جزاء خوفها عليك أن يقتلك الجوع؟.. أنت اليوم لست طبيعيًا.."

ومدّت يدَها إلى الراديو وجذبته إليها وأدارت زرّ الإغلاق بانفعال، فأسكتته، وأضافت: "فلتحترق أمريكا وبلاد الكفر كلّها."

نفض يديه من الأكل وغسلهما من دون أن يتكلم، فقالت له أمه:

"أكمل غداءك."

"لقد شبعت."

"كيف شبعت وأنت لم تأكل؟"

خرج إلى السقيفة.. كان كالمخنوق، وقد بدأ جسمه يتصبّب عرقًا، فتح أزار قميصه ونزع يديه منه ثم سحبه من تحت درّاعته وطرحه جانبًا، ورفع كُمّيه ليترك الهواء يتسرّب إلى جسمه، وأسند ظهرَه على أحد أعمدة السقيفة، وأغمض عينه.. ما زال صدى صوت المذيع يمزّق دماغه كالسكين الحادة.

أين أنت يا هيلين؟ هل يُعقل أنهم سيُرحّلونكم ويتركونه هو من غير منحة؟!.. هل يرضيكِ أن تذهب جهودُكِ من أجله أدراج الرياح؟!.. لا شكَّ أن رسالة الموافقة قريبة إن لم تكن الآن قد وصلت إلى مكتب الهيئة، وسيستلمها ويبدأ في إجراءات السفر فورًا.. خذوه معكم إذا كان لا بدَّ لكم من المغادرة.. لقد عقد العزم على السفر ولن يبقى هنا بعدك.. ألم تَعِدِيه بأنكم ستنادونه بلقب الدكتور؟.. لا تخلفي الوعدَ، فقد وثق بك.

فتح عينيه، وأرسلهما في الخارج متأمّلًا في الفراغ: "لا داعي للقلق، فمثل هذه الأوامر التحذيرية توجّه عادةً للذين يسكنون في الدول التي فيها خوف عليهم.. أنتم في أمان هنا، والناس مسالمون في هذه البلاد.. لن تغادروا.. لن تغادري، قبل أن تكملي معه ما بدأتماه، كي يعرف أستاذ النظم أن ذلك الطالب الذي منعه منحةً كان يستحقها يستطيع أن يهزمه، وتعرف اطويْلة أنها هي من يحمل

ظهرُها خطوط سوء الحظ، ولكي يستعيد من اغزافييه ما نهبه من خيرات بلاده ويطرده صاغرًا ذليلًا.. ستنتهي الدورة وسوف تسافران معًا إلى أمريكا، وهناك سيبوح لك بكل شيء."

أمالَ عبدُ الرحمن رأسَه المُثقل على الدعامة الخشبية، وأخذ نفَسًا عميقًا.. صدرُه يزداد ضيقًا.. الحلم كساه الضباب.. وها هي أسراب الحمام البيض، التي ظن أنه أمسك بها بقوة، ترفع رؤوسها إلى الأعلى استعدادًا للطيران بعيدًا..

رأى أخاه عليًّا قادمًا يحمل كيسًا من النايلون، وقد تعوّد عليّ منذ أن انصرف إلى العمل في السوق أن يحضر مؤونة الأسرة من الخضار وما يتيسّر له من الفواكه، وكان دخولها المنزل قبل ذلك حدثًا نادرًا، وأحيانًا كان عليّ يأتي باللحم أو بأي شيء من المؤونة مما توصيه عليه الناه.. اعتدل في جلسته وحاول أن يطرد عن نفسه تلك الوساوس ليتلقّى أخاه بذهنٍ حاضر، بادره عليّ وهو يقترب منه متهلّل الوجه: "هل سمعت بالخبر؟ لقد دمّرت أمريكا، بوش هرب والجيش تفكّك، وهناك جيشٌ سريٌّ من المسلمين أمدّه صدام حسين بالسلاح وموّلته السعودية وهو يستعد للهجوم عليها الليلة."

ابتسم دحان من سذاجة تصوّر أخيه، وقال له:

"يبدو أنك لم تسمع الإذاعة.. إنهم يهدّدون العالم."

"لدى محمود راديو، لكن إذاعاتهم تكذب، ولا أحد يصدّقهم، هناك إذاعة صينية يقال إنها هي وحدها التي تقول الحقيقة."

"الصين! وهل لدى الصين إذاعة بالعربية؟"

"نعم، وهي التي ينقل الناسُ عنها هذه الأخبار."

قرّر أن يبحث عن تلك الإذاعة ليعرف ماذا تقول، وطلب من الزهرة أن تختلس له الراديو، ففعلت، وحين سمعتْ أمُّه صوتَ الراديو، رفعت بصرها إليه وقالت بصوت فيه قلق: "يا ولدي، لا ترهق نفسك بالانهماك الدائم في متابعة الأخبار."

أدار مفتاح البحث يمينًا وشمالًا مرات عديدة من دون أن يحصل على تلك الإذاعة، واستعان بعلي، لكنَّ عليًّا لم يكن لديه عن تلك المحطة سوى ما سمعه من أهل السوق، جرّبَ الموجات كلّها، فلم يصل إلى شيء.. في التلفزيون، الذي عاد إليه في منزل أهل عبود، الاجتماعات الأمنية دائرة في أمريكا وفي أوربا كلّها.. أنباء عن بعض الاعتداءات على أفراد الجالية المسلمة هنا وهناك.. في البي بي سي: بوش يقول إن الحرب المقدسة قد بدأت، والمحللون يتنبّؤون بحرب صليبية جديدة، ودول العالم الإسلامي كلّها تتبرأ من التفجيرات وتدينها.

لم تكن الغبطة والحماس تخفى في وجوه الجميع وألسنتهم.. حتى الأطفال الذين يلعبون في الشوارع أقبلوا في تلك الليلة على المفرقعات النارية، وأخذوا يفجرونها ويتصايحون: "أمريكا تحت النار.." أبوه، الذي لم يكن يهتمّ بالسياسة ولا يكثر من الحديث فيها، تحدث كثيرًا على العشاء، وخالُه كان متحمِّسًا جدًّا، حتى إنّه تمنّى أن يجد طريقة للالتحاق بذلك الجيش السرّي الذي سيهاجم أمريكا حسب زعمه، وقد أثار ذلك مخاوف أخته العالية التي قالت له مستنكرة: "هل تريدني أن أموت كمدًا؟!.. لا تعدْ إلى مثل هذا الحديث."

هو وحده لم يكن يجد ذلك الحماس.. كان مهمومًا بمصير طلب التسجيل، وهيلين والحلم الكبير.. أصابه سيلُ الأنباء عن التداعيات السيّئة للحادثة بالكآبة.. تعلّق بفكرة محلّل أمريكيّ سُئِل عن الرعايا الأمريكيين في أندونيسيا، فقال إنَّ الأمرَ في الأغلب سيُترك للبعثات الدبلوماسية لتقدير حجم الخطورة على الرعايا ثم اتّخاذ القرار بالمغادرة أو البقاء.

هناك أملٌ إذًا، فليس لدى سفيرهم هنا مسوِّغٌ لتقرير ضرورة مغادرة الرعايا.

حين أوى إلى فراشه في تلك الليلة بات يكابد الأرق، لا تكاد تأخذه

غفوة حتى يستيقظ بجوارحه كلّها، كأنه قد شبع نومًا.. قبيل الفجر زاره زائر النوم فنام، لكنَّ صخبًا من أصوات التفجيرات ومفرقعات الأطفال والصور الملتهبة وفحيح الاشتعال وأصوات البشر وضحكات اطوئلة المقرفة ظل يضج في رأسه، وجسمه ينتفض ويعرق تحت تأثير تلك المشاهد..

في الصباح كان منهكًا بتعب شديد، اجتهد في إخفائه حتى لا تلومه أمُّه وتعزو ذلك لانشغاله المفرط بمتابعة الأخبار.. لم يبارحه التعب طوال اليوم.. كان يحس بحرارة داخلية وتشظٍّ في عضلات جسمه، تابع رحلته مع الراديو وتلفزيون أهل عبود.. مزيد من التحليلات المتشائمة والتهديدات والمخاوف من حرب جديدة.. أخبرته السالمة بنت عبود، التي عادت مبكّرًا، أن تلاميذ مدرسة تكوين المعلمين التي تَدرس فيها خرجوا إلى الشارع هم وبعض تلاميذ الثانوية الوطنية، وأنهم كانوا يهتفون بسقوط أمريكا، وأنّ الشرطة اعترضت طريقَهم وفرّقتهم، وحرّك النبأُ مخاوفَه من جديد فتقبضت معدته وأحس بمغص شديد.

ماذا لو وصل الخبر إلى السفير الأمريكي أو تطورت الأمور إلى الأسوأ؟.. على ماذا يحتجّون؟.. أمريكا غارقة في مصيبتها.. تبًّا لهم، ليس ذلك سوى وسيلة فوضوية للإفلات من حصص يوم من

الدراسة.. كم هم أغبياء وأنانيون، لا يلقون بالًا إلى حجم الضرر الذي يمكن أن يسببوه للآخرين.

أحس بمرارة في فمه وهو يمضغ قطعةَ لحمٍ من (الأطاجين) الذي جاءته به السالمة، كان فاقدًا للشهية تمامًا، لكنه لم يشأ أن يقابل كرمَها بعزوف، واكتفى بلحمتين أو ثلاث مع قضمتين صغيرتين من الخبز المغموس في المرق ورفع يده، فقالت له:

"لا تبدو اليوم على ما يرام.."

"أحس بانقباض وضيق نفس."

"لعل الأحداث في أمريكا أثرت فيك."

"أخشى أن تغلق الهيئة مكاتبها قبل انتهاء الدورة، أو ألّا يصلني جوابٌ على طلبي."

"لا تخشَ شيئًا.. سيصلك الجواب، وإن لم يصلك فسيصلك جوابٌ آخر، ربُّك كريم.. إلا إذا كنت تريد جوابًا بشعرٍ بنّيّ وعينين زرقاوين."

تبسم على الرغم من حجم الكآبة الذي يحس به.. كان قد حكى لها مرات عن هيلين وما فعلته معه في سبيل المنحة، وكانت قد تابعت معه مراحل الطلب الذي تقدّم به للمنحة، وقد ساهمت في نسخِ بعض أوراق ملفّه وتصديقها لدى الدوائر الرسمية، وقد اعتادت حين يحدّثها عن هيلين، أو عندما تجهّز له إحدى أوراق الملف،

أن تقول بحسرة مفتعلة: "مسكينة أنت أيتها الحرطانية السوداء، تتعبين لتذهب النصرانية البيضاء بالحظ."

فيجيبها متبرّئًا: "وهل تبحث نصرانية بيضاء عن حظ في بيظاني فقير؟.. إنها لا تراه ولا تفكر فيه.. الحرطانية أولى به وهو أولى بها." ويضحكان.

لاحقًا سمع من الإذاعة أن الرجل المسمى أسامة بن لادن صديق لحكومة طالبان التي تستضيفه هو ومنظمته على أرض أفغانستان، واستمع إلى تكهّنات بعض المحللين عن احتمالات شنّ أمريكا هجومًا على أفغانستان، وأنه إذا وقع فسيدفع المتشددين في باكستان إلى الانقلاب على السلطة، مما ينذر بحرب نووية شاملة، لن يكون صدام حسين وإيران وحتى السعودية ومصر بعيدين عنها، وستأكل تلك الحرب إسرائيل.. تحليلات بدت له بعيدة، لكن الحديث لم ينقطع عن تلك المنظمة السرّية التي ينتشر أفرادُها في أمريكا وأروبا، والقادرة على تهريب السلاح، حتى النووي منه، مما يمكن أن يدمّر العالم بأسره.

انتهاء اللعبة

كان يوم الأربعاء الموالي ليوم الهجوم هو أحد الأيام الدراسية في جدول الدورة، وكانت الدراسة مساءً، وقد ذهب في الموعد، وحين اقترب من مقر باب الهيئة وجده مردودًا على غير عادته، ارتاب في الأمر، وانتقلت ريبته إلى قلق حين رأى غير بعيد شرطيين بكامل عدتهما واقفين كأنما هما في دورية.. تردد في الدخول لكن التحاق بعض الطلاب به شجعه على الولوج فدفع الباب برفق.. كان السكون الرهيب يخيم على المكان، ما من حركة ولا صوت.. كان أول ما يسمعه الداخل ويراه هو ضجيج الطلاب وضحكاتهم وحركاتهم أمام الحجرة الدراسية، وحركة بعض أفراد الإدارة الذين يبدو أن بعضهم لديه دوام مسائي، لكن لا شيء من ذلك.. ليس هناك سوى الصمت.. الحارس الزنجي ينعس على كرسيه في ظل الجدار.. ألقى عليه السلام فرده له، وأشار إليهم أن يتوجهوا إلى الحجرة الدراسية، سأله:

"هل هم موجودون؟"

"كريستوفر موجود، وقد أمرني أن أدخلكم إلى حجرة الدراسة."

"وهل ستحضر هيلين؟"

"لا أعرف."

لم تكن لهم بكريستوفر أية علاقة، فقد كانوا يرونه يدور بين مكاتب الهيئة.. لكن قامته القصيرة وبنيته الرياضية القوية وملامح وجهه المتجهم لا تترك انطباعًا حسنًا لدى من يراه، ولم يكن ظهوره في ذلك الوقت بالذات مبشرًا بالخير، فهو لا يذكّر بشيء من رقة هيلين ولا لطف منسق الهيئة.

توجّه إلى الحجرة وتبعه الآخرون، وأخذ البقية يتوافدون واحدًا واحدًا.. بدأ اللغط، ومثله كان بعضهم حيارى متلهفين على معرفة مصير الدورة، ويتساءلون هل ستأتي هيلين أم لا، لكن آخرين كانوا يروون بحماس تفاصيل ما حدث، ويتكهنون بنهاية قريبة لأمريكا، ويتحدّثون عن الجيش السرّي وأسلحة صدام حسين النووية والتمويلات الخفية من السعودية وبعض دول الخليج.. عبد الله بهذره المعتاد يؤكد أن لدى أخيه، الذي هو ضابط سامٍ في الجيش، معلومات سرية عمّا سيحدث، ويرفع صوته: "انتهت اللعبة، سوف نزحف عليهم وندكّ بلادهم.. سوف ننتقم منهم لذلك الاستعمار

والاضطهاد الذي عشناه على أيديهم."

اتّجه بنظراته إلى عبد الرحمن، وأضاف: "لن نعود بحاجة إلى منح للدراسة، سيكون كل شيء عندنا وسنفرض لغتنا."

أشاح عبد الرحمن بوجهه بعيدًا عنه، وانشغل بسليمان الذي رآه يدخل من الباب، ووجده هو الآخر مكتئبًا وقلقًا.. لم يطل بهم الجلوس حتى دخل عليهم كريستوفر وحياهم، فأخذوا جميعًا أماكنهم على الطاولات، هدأت الحركة وساد الصمت والترقب، ارتجف فؤاد عبد الرحمن، وسرت في جسمه رعشة شديدة، وانطلق صوتُ الرجل كالطلقات بعربيته الملحونة بلكنة غربية: "أعزائي، نحن إخوة من طينةٍ واحدة، لنا المشاعر الإنسانية نفسها والقيم والطموح نفسهما، ما يجمعنا أكثر ممّا يفرقنا، وسنبقى دائمًا كذلك..

لقد جئنا هنا من أجل خدمتكم، ومن باب أننا جميعًا إخوة في الإنسانية، ومن واجبنا أن نتحابَّ ونتواصل وأن يساعد بعضُنا بعضًا، بغض النظر عن الجنس أو اللون أو العقيدة، وأن نسعى لكي يسود العدل والمساواة على وجه الأرض، هذه هي رسالتنا جميعًا بوصفنا بشرًا.

أصدقائي، لقد كانت الدورة رائعة، وقد كنتم رائعين بانضباطكم

واجتهادكم، وحظيتم بمدرّسة رائعة، وهي بالمناسبة تبلّغكم تحياتها الحارة، ومع أننا نطمح إلى فرصة أخرى لاستكمال ما بدأناه إلا أنني مضطر إلى أن أخبركم الآن، وبكل أسف، وفي ظل هذه الظروف الصعبة التي نمر بها، أن دروسكم سوف تُعلّق إلى حين."

شهق عبد الرحمن وهو يسمع الخبر، اشتدت ضربات قلبه تسارعًا، وأحس برأسه يكاد يتصدّع، وانبعثت من هنا وهناك تعليقات مستنكرة:

"لا، غير ممكن.."

"غير معقول.. "

"بهذه البساطة؟"

سأله واحد من الطلاب: "ومتى تظن أنه يمكن استئناف الدروس؟"

أجاب بشكل قاطع: "للأسف، لا أعرف.. لا شك أنكم تتابعون الأخبار، وفي ظل هذه الظروف السيئة لا يمكن التنبّؤ بشيء.. لقد أوقفنا عمل الهيئة كلّه، سواء في نواكشوط أم في الداخل."

سأله آخر:

"وهل ستعطوننا شهادات على ما درسناه؟"

"لقد أعطيتم شهادة في الحلقة الأولى وفي الثانية، وأما هذه فلم تكتمل."

"لم تكن سوى إفادات فقط، وهذه المرحلة هي الأهم لأنها هي مرحلة الشهادة."

"لا أستطيع أن أعدكم بشيء.. أنصحكم لكي لا تضيعوا وقتكم في الانتظار أن تتجهوا إلى معهد حرٍّ لتكملوا هذه المرحلة وتحصلوا على الشهادة."

مع كل كلمة يلفظها كان ذلك الرجل القوي المتماسك يتقلص ويتضاءل أمام عيني عبد الرحمن.. من هو هذا المشؤوم الذي ظهر لهم فجأة ليحدثهم عن الإنسانية والأخوة، وهو يمرر سكينه ببرودة على آخر آمالهم.. حديث مستفيض عن الإنسانية وحقوق الإنسان ويد خفية تقتل وتدمر وتعبث بالإنسانية.. يا له من راعي بقر حقير.

غطّت غشاوة الظلمة على عيني عبد الرحمن وسربل العرق كامل جسمه.. لم يعد يرى سوى خيالات تتحرك أمامه.. سؤال فائزة أنهى كل شيء:

"وأين هيلين؟"

"لقد غادرت البلاد البارحة.."

أجالت نظراتها بين الطلاب، وقالت غير مصدقة: "غادرت!"

أضاف كريستوفر:

"لقد غادروا جميعًا، ولم يبقَ سواي، وسأغادر هذا المساء.. آمل أن نلتقي ثانية في ظروف يسود فيها السِّلْم العالمي، لكي نتمكن من مواصلة ما بدأناه، أتمنى لكم التوفيق."

مع كل كلمة لكريستوفر كان يصعد إلى عالم آخر.. وكانت الغشاوة تتكاثف أمام عينيه.. غاب القسم وغاب الطلاب.. لم يبقَ سوى ضجيج القنوات التلفزيونية ومحطّات الإذاعة.. صور جورج بوش وهو يهدد العالم، وحسني مبارك مذعورًا.. وخاله وهو يتحدث عن جيش صدام.. هيلين تتلاشى في أفقٍ بعيد.. كلمات كريستوفر المرتّبة الأسيفة بدت له كأنها صراخ يخرج من فم جورج بوش المسعور.. انتصب واقفًا قبل أن يشير إليهم كريستوفر وصاح في وجهه: "لقد انتهت اللعبة.. خدعة القيم الإنسانية التي سيطرتم بها على العالم لم تعد تنطلي على أحد.. انتهت العظمة الأمريكية والاستعمار الجديد.. القواعد الأمريكية تدمّرت، جيوشنا سوف تزحف عليكم وتحتلكم.. سننتقم لفلسطين والعراق وليبيا، ولكل خيرات بلداننا التي سلبتموها منا.. نحن قادمون يا رعاة البقر، وسنعيدكم عبيدًا إلى حظائركم، وأنت أيها الحقير ستكون أولهم اليوم وعلى يدي أنا.."

كان يتكلم وهو يحاول أن يدفع سليمان الذي يتقاسم معه الطاولة ليفسح له الطريق كي يخرج إلى كريستوفر وسليمان يمنعه من

الخروج، ونجح في زحزحته حتى خرج، لكن سليمان تشبّث بيسراه وأخذ يشده إلى الوراء، وهب بعض التلاميذ ليعترضوا سبيله.. أحسّ كريستوفر بالخطر، فوقف وأسرع إلى الباب، وقبل أن يختفي عن الأنظار كان عبد الرحمن قد أطلق فردة نعله تجاهه، لكنها اصطدمت بالباب الخشبي، وتحلّق الطلاب حول عبد الرحمن الذي لم يتوقّف عن سبِّ أمريكا وشتمِها، واستجداء الطلاب أن يتركوه يخنق ذلك الأمريكي، ولومهم على الذلة والتخاذل عن قتل ذلك العدو وهم يحيطون به ويدفعونه تجاه باب مقر الهيئة، وتبعهم الحارس متأهِّبًا صامتًا على الرغم من السبّ والاتّهامات بالتجسس والخيانة والردة التي كان يوجّهها له عبد الرحمن، حتى إذا تعدّى الجمع عتبة الباب أسرع البواب بإغلاقه.

الغيبوبة

كان خدر النعاس لا يزال يغشي دماغه، وصوت مسترسل في قراءة القرآن يتناهى إليه كأنه قادم من بعيد، ويبعث في نفسه دعةً تنقله شيئًا فشيئًا من النوم إلى اليقظة.. لم يكن قد استعاد بعدُ وعيه حين أخذ ذلك الصوت في أوصاف الجنة من سورة (محمد) {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاء غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِن رَّبِّهِمْ}، خال نفسه يسبح في تلك الأنهار، يغتسل بمائها، ويعب من لذيذ أشربتها.. غمرته المياه وبحار اللبن الأبيض، ودغدغت بنعومتها جسده العطشان، وحملته موجاتها الحنون أعلى فأعلى حتى خرج رأسه إلى السطح.. فتح عينيه.. كان متمدِّدًا على حشية في ركن الكوخ، وزينب على مقربة منه منحنية على المصحف تسترسل في القراءة، وجذعها يهتز من الأمام إلى الخلف سابحًا في خشوع مع عذوبة الآيات..

من هو؟.. متى تمدد هنا؟ وأين كان قبل ذلك؟.. يحاول أن يتذكر.. هذه التي تقرأ يظن أنه يعرفها.. أليست هي زينب؟.. بلى.. بلى، إنها زينب أخته.. هو إذًا دحّان.. آه دحان، لكن أين كان؟.. فجأة جاءه صوت مألوف من قبل الباب: "السلام عليكم.."

توقّفت زينب عن القراءة، وردّت السلام، ثم سمع صاحبة الصوت تسألها: "هل دحّان نائم؟"

استدار تجاه الباب، وكأنما انقشعت غلالةٌ عن ذهنه، فخاطبها بلسان تُثقله آثار النوم:

"السالمة.. مرحبًا.. كيف أنت؟ منذ وقت طويل وأنا لم أرك."

"كنت أزورك تقريبًا كل يوم، لكنك كنت مشغولًا عني.."

"أنا أنشغل عنك؟! وبماذا؟!.."

كادت تسترسل في لعبة التلميح، لكنها خشيت أن تحرك ذاكرته تجاه المنطقة الحرجة، فتعيده إلى ذهوله، لذلك بادرت بقولها:

"طمئني أولًا، كيف حالك، وهل ذهب عنك الصداع؟"

"أنا بخير، وكيف أنت وكيف هي مريم الصغيرة؟"

"هي بخير، أبوها موجود الآن في نواكشوط وقد أخذها معه لمدة أيام."

بدا أنه يستعيد صفاء ذهنه، حين سألها بمكر وهو يبتسم:

"ولماذا لم يأخذ معها أمها؟"

"يتمنى ذلك، لكنّ طمعه بها طمع إبليس بالجنة."

"أنت مخطئة.. مهما كانت عيوبه فهو رجل كريم، ويحبك، وأنت فتاة عاقلة قادرة على ترويضه."

كانت زينب قد رفعت عينيها عن المصحف وأخذت تنظر إليه غير مصدقة، ومكثت السالمة برهة تنظر إليه مدهوشة من صفاء ذهنه، ثم أجابته:

"لقد أراني من الويلات ما لا أستطيع معه العودة إليه."

"لا بد أنه أدرك أخطاءه، وندم على أفعاله.. عليك أن تفكّري جدّيًّا في العودة إليه."

انهمرت دموع زينب وسمع نشيج دعائها وهي تقول: "يا رب لك الحمد.. ها قد استعاد أخي وعيه."

نادت الناه الجالسة في السقيفة السالمة التي لا تزال تقف في الباب، وسألتها:

"مع من تتحدثين؟"

"مع دحّان.."

"دحّان!.. وهل استيقظ؟"

"نعم.. وهو في كامل وعيه."

"رب، لك الحمد."

أجال عبدُ الرحمن نظراته بين السالمة وزينب: "ما لكم؟! هل كنت مريضًا أم كان مغمًى عليّ؟.."

لم تجبه أيّ منهما، وأثناء ذلك دخلت الناه تحمل في يدها قدحًا به زريق، ووضعته على جنب وأقبلت عليه وعيناها تترقرقان بالدموع:

"بنيّ، كيف حالك؟"

"أنا بخير.. أين كنت؟ وماذا وقع لي؟"

"أصابتك حمى شديدة أفقدتك الوعي أيامًا."

تحسس جسده، وقال لها:

"أيام وأنا غائب عن الوعي بسبب الحمى!.. لكن جسمي صحيح، وأحس بنشاط."

خاطبته السالمة:

"دحّان أنا ذاهبة لتفقد الكسكس، فقد تركته على النار.. سأعود إليك لاحقًا."

"سآتيك أنا.. شغّلي التلفزيون أريد أن أشاهد أخبار العالم.."

فجأة قفزت إليه الصور.. انقشعت الغلالة.. صور الهجوم على المبنيين في التلفزيون، والأخبار التي غرق بها رأسُه على مدى يومين، ومساء الهيئة الحزين، وكريستوفر يخرج مذعورًا، وهو يجاهد

ليتخلّص من زملائه الطلاب، والحارس الزنجي المسكين يغلق الباب خلفهم.. ثم شاشة سوداء مشوشة وشريط طويل فيه خيالات.. في منزلهم، ومع هيلين، وأثناء حرب مقدسة، وفي مختبر للبحوث النووية.. غبش وتشويش طويل لا يتضح منه شيء.

كان الوقت قريبًا من الغروب.. دفعت إليه الناه الزريق ليشرب، وحلّت عقدة من قطع النقد كانت في طرف ملحفته، وصبتها في يمينها، وقبضت عليها، ثم شرعت ترسم بيدها دوائر حول رأس عبد الرحمن، وهي تقرأ بالإخلاص والمعوذتين وأدعية الشفاء، ثم أعطت زينب قطعة، وخرجت لتوزع الباقي على أطفال الجيران.. أغلقت زينب المصحف، وحملته لتعيده إلى صندوق الكتب والألواح في كوخ النساء، وقبل أن تخرج سألها عبد الرحمن:

"كم هو تاريخ اليوم؟"

"الأول من أكتوبر."

"الأول من أكتوبر، تقولين؟"

"نعم، الأول من أكتوبر سنة 2001، واليوم يوم الأحد."

حسبها بسرعة.. تسعة عشر يومًا.. شهق من المفاجأة.. هذه المدة وهو غائب عن الوعي.. ربما أرادت زينب مغالطته بتاريخ مكذوب.. زينب لا تكذب، وإن غالطت أحدًا فلن تغالطه هو.. لكن ما حقيقة

تلك الخيالات التي بدأ ذهنُه يستعيدها.. متى كان جالسًا مع أبيه وسيد أحمد الكبير وقد أغلقوا عليهم الكوخ، وسيد أحمد يكتب بقلم العود وبحبر الزعفران في ورق أبيض وهو يقلب صفحات المصحف، ويتمتم بآيات من القرآن ينقلها على الورقة، وبأدعية الرُّقيْة يسمعهم بعضها، وبين الفينة والأخرى يرفع نظراته ليركزها على وجهه الذي يتفصد عرقًا في تلك الساعة، وحين يملأ الورقة بالكتابة يناوله الغوث قنينة مياه الشافي، فيسمي الله ويقطع الورقة ويدخلها في القنينة، ويتركها تتشرب الماء، ثم يحركها بعود أراك طويل.. فيبدأ لونُ الماء في التغيّر إلى الأصفر، ويحكم إغلاق القنينة ويخضها بقوة ويعطي للغوث ليخضها حتى تتحلل مزع الورق ويصفر الماء، فيتناولها سيد أحمد ويصب منها في كأس من كوب وضع على فتحته مصفاة حتى يمتلئ، ويسمي عليه ثم يعطيه له ويأمره أن يشربه، فيتردد في شربه.. لماذا يشربها؟! فليس مريضًا كما يعتقدون.. لكنّ والده يتناولها من سيد أحمد الكبير، ويقربها من فمه وهو يقول له بتودد: "هذا حجاب من والدك سيد أحمد، ولا يمكنك أن ترده.. إن فيه بركة وشفاء."

لا يبدي أية حركة ويستسلم له تمامًا.. لا يتكلم في حضرة والده أو الرجال الكبار فلا يريدهم أن يسمعوا حواراته مع هيلين.. نعم

إنه يتذكر الآن كان يكلمها، وزينب والزهرة تبكيان، وأمه تحثه على الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، وتنفث عليه دعاءها، لكنه لم يتكلم أمام سكينة.. لا يتحمل دمعتها، لذلك سكت.. لا يريد أن يحملها همًّا على همها.. لم يحدثها عن المنحة والسفر إلى أمريكا، ولا عن هيلين ومشاريعه معها.. وحده عليّ كان صلبًا ومتماسِكًا، يقطّع له التفاح ويقشّر له البرتقال ويقص عليه يومياته في السوق، يمازحه فيضحكان، ويسأله دائمًا متى سيرافقه ليشاركه العمل.. لم يلاحظ في عينيه مسحة الحزن التي كان يراها في أعين الآخرين حين ينظرون إليه يتأملونه، وما أكثر ما زاروه وتأملوه بفضولٍ.. كم هو رائع هذا الفتى! وهم يحسبونه مراهقًا طائشًا.. حين يسقيه أبوه ثلاث كؤوس متتابعة، يصب سيد أحمد من ماء القنينة في يده ويدهن له بها صدره ورأسه ويديه وقدميه.. في المرة الثالثة قال له أبوه: "هذه هي المرة الثالثة التي نسقيك فيها الدواء، وينبغي أن تشفى وتقوم.. لسنا نريدك لهذه القعدة."

لا يعرف من أين جاء بتلك الفكرة لكنها كانت الجملة الوحيدة التي نطق بها في حضرته:

"لست مريضًا.. وإذا أردتموني أن أترك هذه القعدة فخذوني إلى محظرة أهل العباس."

"سنأخذك إليها، لكن بعد أن نطمئن إلى أنك شفيت."

تظن أمُّه أنه كان في غيبوبة، لكنه لم يكن غائبًا.. كان هنا قريبًا في مكان ما يستمع إليهم، ويراقب أفعالهم، وهم لا يشعرون به، عرف تلك الغرابة في نظراتهم، وألسنتهم المعقودة، حتى الأطفال رآهم يقفون بعيدًا، ويشيرون إليه ويضحكون وتنعقد ألسنتهم حين تلتقي نظراتهم بنظراته، ويدهمهم الخوف من شيء لا يعرفه، فيهربون.. سليمان كان غاضبًا منه، ويخاطبه بحدة، ووجهه يكاد يقطر دمًا: "دع عنك هذا الهذر وانتبه لنفسك.. هذا الذي تقوله وهم، ولا يليق بك."

ما الذي قاله مما لا يليق به ويُغضِب سليمان؟! لا يستطيع أن يتذكر، لعل ذلك كله لم يحدث.. ما يذكره هو أنه كان يريد من أمه أن تبيع عنزاتها الداجنة، لأنها ستكون في غنًى عن لبنها، فهو سيجلب لها أنواع اللبن سائلًا ومسحوقًا من بلاد رعاة البقر، لم تطاوعه، لكن إحدى الجارات سقت إحدى العنزات سمًّا خلسةً فماتت، وخسرت أمه ثمنها.

سمع صوت الزهرة، فناداها وسألها عن تاريخ اليوم، فترددت في أن تقول له، وبدلًا من ذلك سألته عمّا يريد بمعرفته، وتحت إلحاحه أكدت له ما قالته زينب، طلب منها أن تأتيه بالراديو، لكنها

قالت إنها لا تعرف مكانه، تركها تذهب، ووقف وتمدد على طول قامته.. قدر أنه أكثر رشاقة وقوة الآن، توجه إلى كوخ النساء، ووجد الراديو مدسوسًا بين المتاع على الطاولة الكبيرة، وعاد إلى كوخ الرجال، وشغّله ودوّر زرّ الموجات حتى التقط إذاعة فرنسا الدولية، استمع إلى تحليلات سياسية فهمَ منها أن أمريكا تشنّ هجومًا على أفغانستان لإسقاط حكومة طالبان، وتردّد اسم بن لادن والحادي عشر من سبتمبر..

ابن لادن هو من كان وراء اختفاء هيلين.. آه من ذلك الرجل المجنون؟ ما الذي رماه عليه ليحطم حلمه، ويتمالأ مع كريستوفر على سرقتها منه ليلًا وإغلاق الهيئة؟.. لكنه سيمسك بهما، وينتزعها منهما.

نهبت الزهرة أمها التي كانت تُدخِل العنزات في سقيفها إلى أن عبد الرحمن عثر على الراديو، فجاءت إليه مسرعة مذعورة، ولما رأت وجهه محتقنًا ونفَسه متصاعدًا قالت له لائمة: "لماذا تفتح هذا الراديو الملعون، وأنت تعرف أنه لن يجلب لك إلا الأحزان؟! هذا وقت مسبّعات الذكر، وليس وقت الإذاعة والفضول."

الهجرة

ها هي السيارة تودّع شارع الأمل وتغوص في بحر الرمال، وها أنت تخلّصت أخيرًا من تلك المسرحية السطحية التي عشتها منذ أن أفقت من غيبوبتك.. كانوا جميعًا يبدون كأنّهم ممثلون على الخشبة.. تدرك أنك كنت غائبًا عن الوعي لمدة أسابيع، لكن كل شيء ظلّ محايدًا فاقدًا للأهمية، حتى النظرات الغريبة التي يحدّقون بها فيك لم تكن ذات أهمية بالنسبة لك.. تراهم وتسمعهم وتتجاوب معهم بشكل طبيعي، لكنك بعيد عنهم، كأنما تجلس على قمة جبل وتنظر إلى تلك الكائنات المسطّحة التي تتحرك عند السفح.. أردت أن تبتعد أكثر وأن تنزل من الجبل في الاتجاه الآخر حتى تغيب عن ناظريك تلك الكائنات، وتغيب أنت عن أنظارها.. لا معنى لبقائك في مدينة لا يعنيها من أمرك شيء ولم يعد يعنيك من أمرها شيء.. هناك في البعيد وفي كنف ذلك (المرابط) المتبتّل ستجد نظرات أقل حدة وأكثر سكينة، وستجد ما يمكن أن يثير اهتمامك.. ها أنت

ودعت تلك المدينة الصماء وكبّتها الميتة.. ليس هذا وقت الحزن ولا الفرح، وأبوك هذا الجالس على حافة السيارة سدًّا يحول بينك وبين السقوط يعرف كيف يروض الحزن بحركة فكه السفلي من تحت لثام العمامة وهو يتلو في سره آيات القرآن، دُبِغَتْ نفسُه على ذلك الانصراف الخاشع منذ ترك محظرة أهل العباس مضطرًّا للقيام بأمر أمه وأخته، ثم كنت أنت.. أوه لا تحاول أنت أن تتذكر.. مهما اضطربت هذه اللاندكروزر وغاصت في الرمل ودفعتك يمينًا وشمالًا وأعلى وأسفل لتصطدم بأجساد الركاب الآخرين فلا تحرّكْ ما هو راكد في نفسك وذاكرتك التي عليك أن تجتهد في تركها خاملة..

"كم هي المسافة؟"

"حوالي خمسين كيلو متر، لكن مع بحر الرمل هذا تأخذ من الزمن أضعاف المسافة العادية."

"معنى هذا أننا سوف نصل متأخرين؟"

"في العادة نصل مع صلاة العشاء."

"سمعت أن هناك طريقًا آخر خاليًا من الرمال."

"هذا صحيح، لكنه طويل جدًّا، وقد يتيه فيه من لا يعرفه.."

لستَ مثلهم، فلا يهمك متى وصلتم.. الزمن أمامك ممتد وقد أغلقت الذاكرة، ولن تعود إلى الوراء.. أمَلك الوحيد أن يستقبلك المرابط

الطاهر ولد العباس بترحيب، وهو أمل ليس ببعيد، فأنت ابن تلميذه وتلميذ أبيه، وستكفل لك قرابة الأمومة بين أهل بوكبش وأهل العباس معاملة خاصة منه، وسيعود أبوك إلى نواكشوط مطمئنًّا مرتاح البال، ولن تأسف إذا زحفت الرمال على الطريق وقطعتكم عن شارع الأمل وعن كل صلة بنواكشوط.. ستكون وقتها مرتاحًا تحت شجرة في خلاء تكرر لوحك، وتستدعي طاقات الحفظ الكامنة في مادتك الرمادية، لتحفظ.. وتحفظ.. يتمدَّد صوتك أفقيًّا على صفحات ذلك الرمل الأصفر غناءً أبديًّا لتلك الأم النافرة.. الصحراء التي لا يرد جماحها سوى لحون الكلمات تسري في عروقها فتهدِّئ من شرودها.. هكذا روّضها آباؤك منذ ذلك الزمن الغابر، وهكذا عليك أنت اليوم أن تروضها لتعيش على بساطها ملكًا منفردًا.

في حضرة المرابط

تعلقت نظرات عبد الرحمن بالمرابط الطاهر عندما رآه ضحوة ذلك اليوم الذي بدأ فيه مشواره مع المحظرة، وكان جالسًا وسط حلقة التلاميذ في السقيفة الكبيرة المنصوبة أمام رصٍّ من البيوت الإسمنتية المسقوفة بالزنك، هي مسكن أهل المرابط الطاهر.. وجد في هيئته وقارًا ملأ قلبه هيبة له، وكان المرابط يشارف الستين، آدم البشرة، وسيم الطلعة، نوراني الجبهة، تعلوه سيماء السجود، غضوضًا لا يحدق النظر في مجالسيه، بشوشًا كثير التبسم، تفتر شفتاه عن أسنان طويلة ناصعة البياض، تامة ليس فيها ثلم، يجتهد في إخفائها بعذبة عمامته التي يغطي بها فمه كلما تبسم، يتحدر الحديثُ من فمه هادئًا مسترسلًا كأنه خرزات مسبحة، ويقال إنه حفظ متون المحظرة كلها قبل أن يبلغ العشرين، وأجازه عدد كبير من شيوخ العلم الذين طاف بهم، وجلس للتدريس جنبًا إلى جنب مع والده مؤسس المحظرة، وقد شهد والده الغوث ذلك

الجلوس أيام كان في المحظرة.

تناوب الطلاب على القراءة من غير ترتيب للمواد أو المستويات، يقرأ الطالب جملة من درسه الذي يكون حفظه من قبل فيشرحها له باستفاضة مقدّمًا الشواهد والأدلة على شرحه، وأثناء الشرح يكتب الطالب تعليقات في الحاشية يستدل بها على ما قاله المرابط ويثبت بها الشواهد من آيات وأحاديث وأنظام وأشعار، حتى يستطيع استظهارها عند المراجعة، وكلما فرغ واحد من التلاميذ يبدأ آخر في القراءة، ولا يغادر أيٌّ منهم الحلقةَ حتى يفرغوا كلهم، يستمعون بخشوعٍ وانتباه، ويطرحون ما يشاؤون من أسئلة في الموضوع الذي يقرأ فيه الطالب، ثم إذا فرغ آخر واحد منهم انفضّوا لكتابة دروس جديدة.. وهؤلاء التلاميذ الذين يقرؤون على المرابط هم من كبار الطلاب الذين تجاوزوا مراحل في التحصيل وحفظ أغلبُهم القرآن وأوليات العلوم، وانتقلوا لدراسة المتون، ولدى المرابط شيوخ آخرون من طلابه القدماء الذين تخرج بعضهم على يده، وأصبح البعض الآخر قريبًا من التخرج، وهم يتولون تدريس تلك المراحل الأولية، وفيهم اثنان يحفظان القرآن.

كان فراغ الطلاب في ذلك اليوم قريبًا من الزوال، فبقي عبد الرحمن وأبوه مع المرابط ومعهم رجال من كبار السن من أهل القرية،

والتحق بهم آخرون، وقد تعرّفوا جميعًا على الغوث ورحّبوا به، وكان معهم اثنان من كبار الطلاب الذين أكملوا الدراسة وأصبحوا يلازمون الشيخ لمساعدته في التدريس والبحث في مسائل العلوم، والاستماع منه إلى نوادر علمه، وغير ذلك من مشاغل العلم الذي هو حياة المرابط الطاهر، وهي فترة تربص قبل أن يكتب لهما الإجازة ويودعهما ليبدأا بدورهما مشوارهما في بث العلم؛ كان الحديث في تلك الجلسة مفتوحًا على مواضيع عامة، ولاحظ عبد الرحمن أن الشيخ مصغٍ أكثر الوقت، وإذا تكلم فإنما لنصيحة أو حكمة، وأثناء الجلسة قدم لهم شراب (الزريق) ثم الأطاجين ثم الشاي، ولم يأكل المرابط معهم الأطاجين، واكتفى بكأس واحدة خفيفة من الشاي، على الرغم من أن جلساءه شربوا الشاي كاملًا ثلاث كؤوس.

كان عبد الرحمن يميل إلى أن يبدأ مشوار دراسته في المحظرة بـ (ألفية محمد بن مالك) في النحو، أو (مرام المجتدي من كفاف المبتدي) لمحمد مولود بن أحمد فال اليعقوبي، لكن الشيخ قرر أنه سيبدأ بالقرآن، على الرغم من أنه حفظه صغيرًا وما زال قادرًا على استظهار معظمه، وقد سوّغ المرابط قراره بأن العلم حمل ثقيل لا يقوى على النهوض به إلا من كان ثابت الجنان قوي

الفؤاد، والقرآن معين الثبات وانشراح الصدر إذا بدأ به الطالب، وربما كان الشيخ يريد من وراء ذلك علاج عبد الرحمن الخارج من فترة اضطراب، وكان الغوث بعد وصولهم البارحة لقي الشيخ وحدثه عمّا أصاب عبد الرحمن وقال له: "لقد جئت به إليكم للتبرّك والاستشفاء والعلم."

لم تطل الجلسة أكثر من ساعة دخل بعدها المرابط إلى الحجرات ليتفقد أحوال أهله ويتغدى ويغفو قبل صلاة الظهر، وانفض الرجال إلى منازلهم، وذهب الغوث إلى منزل الضيوف التابع للمحظرة، وقد أوكل المرابط عبد الرحمن إلى إبراهيم، وهو أحد محفّظي القرآن في المحظرة، ليختبره ويعرف من أين ينبغي عليه أن يبدأ، واصطحب إبراهيم عبدَ الرحمن إلى غرفة ملحقة بالمسجد مخصصة لحفظ المصاحف والمحابر وألواح طلاب القرآن، وكانت واسعة عالية السقف كبقية بناء المسجد، الذي يبدو فريدًا لأنه، وعلى غير عادة المساجد في تلك المنطقة، مبنيٌّ بالإسمنت المسلّح، واسعٌ مرتفع السقف، مجهز بمحوّل للطاقة الشمسية للإضاءة، ومكبرات للصوت، وميضأة وحمام، ويقال إن امرأة محسنة من أهل الإمارات العربية المتحدة هي التي موّلت بناءه وبناء سكن المرابط، وذلك بسعي من أحد تلاميذ المحظرة السابقين، يعمل

شرطيًّا هناك.. بدأ إبراهيم يستمع إلى عبد الرحمن، وكان عليه أن يخصّص له عدة جلسات حتى يمر معه على القرآن كله، ويدون المواضع التي تحتاج إلى إعادة حفظها.

نفض الذكرى

على الرغم من أن عبد الرحمن كان قد وطّن نفسه على ألّا يفكر فيما ترك خلفه، إلا أنه أحس بفراغ في صدره صبيحة يومه الثاني في المحظرة عندما وقف يشيّع بنظراته السيارة وهي تغادر قرية (العلكة)، وقد حملت أباه عائدًا إلى نواكشوط.. كأن شيئًا انقطع في داخله، صلته بعالمه الحقيقي، بكيان ذلك الشاب الذي كان يحلم بمجد كبير في عالم مختلف.. لم يبكِ، ولم تترقرق دموعُه.. كانت عيناه جامدتين ونظراته ساكنة على السيارة حتى اختفت خلف الكثيب، فنقل نظراته فيما حوله، وكأنه ينتبه لأول مرة إلى المكان وحدوده.. الشحوب يخيم على كل شيء.. قيل له إنها سميت قرية (العلكة) لأنها أُقيمت على حافة واد كانت فيه غابة كثيفة من شجر القتاد تُنتج الصمغ العربي بكميات هائلة، وذلك قبل سنين الجفاف التي أكلت الأخضر واليابس خلال عقدي الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، ويروي المعمرون من أهلها

حكايات كثيرة عن زمن بعيد عرفوا فيه سعة العيش بسبب ربح الصمغ، والآن ها هي منثورة على سهل من الرمل الأصفر جعلته أشعةُ الشمس الأولى شاحبًا، يكاد يبتلع أبنيتها الهزيلة.. في الشمال قطَعٌ متفرقة من السقائف القماشية والأكواخ الخشبية والبيوت الطينية، وفي الجنوب، على بعد ثلاثمئة متر، إقامة الطلاب، مجموعة من السقائف الصغيرة والأكواخ الخشبية الواطئة التي لا تُذكّر إلا بالمقابر، وفي الوسط تربع المسجد فارعًا ببياضه الشاذ وسط ذلك الشحوب الحزين..

طاف بذهنه مشهدُ هيلين وهي تمرر سبابتها برشاقة على الورقة وتشرح له صور الجامعة التي قدّم الطلب للالتحاق بها.. واجهة السور الطويلة ذات الأبراج الأربعة تحتها البوابة المقوسة الواسعة، على جانبي المدخل توجد الساحات الخضراء والنوافير تنطلق من أجواف تماثيل أسود..

"هذا البناء يحاكي المعمار الإسلامي الإسباني، لقد صمَّمه مهندس لاتيني.. لقد نقلوا حضارتهم إلى أمريكا.. انظر إلى الأقواس والنقوش والمقرنصات والزخرفة المشجرة، وهذه الأسود التي تذكر بقرطبة.. يا له من جمال هائل.. هذا أيضًا جزء من تاريخكم أنتم، لا شك أنك ستجد ألفة في هذه المكان، وستعيش الحلم حقيقة."

هل قال لها إن ألفته وحلمه هو أن يكون إلى جانبها؟.. لعله فكّر في ذلك ولم يجرؤ على قوله.. لا يذكر بالضبط، هناك غبش يغطي ذاكرته، تراودُه صورتهما وهما يطوفان في ساحات تلك الجامعة وهي في لباس أميرة أندلسية تقرأ له بصوتها الرخيم أشعار ابن زيدون، ربما تكون تلك خيالات حلم سابق.

هز رأسه بعنف لينفض عنه تلك الذكرى وأغمض عينيه ثم فتحهما، ولام نفسه على جموح تفكيره نحو ذلك الماضي بعد أن قرّر إسقاطه من حسابه.. انتبه إلى صوتٍ يناديه، فالتفت فإذا الشيخ إبراهيم، على باب غرفته، فتحرك نحوه، وحين سلم عليه قال له إبراهيم:

"لقد تأخرت كثيرًا، نحن نبدأ مع أذان الفجر."

"كنت أودّع والدي."

"آه، عذرًا.. أستودعه الله الذي لا تضيع ودائعه."

انهمك عبد الرحمن في عرض القرآن على الشيخ إبراهيم، وكانت حناجر الطلاب ترتفع بالقراءة من هنا وهناك وقد تناثروا في ظل المسجد، أمام غرفة الشيخ إبراهيم، وفي داخلها كان بعض التلاميذ منشغلين بكتابة واجبهم اليومي، والشيخ إبراهيم يتنقل بينهم يستمع لقراءة القارئين وينظر في كتابة الكاتبين، وفي يده قِشاط من

جلد البقر، ربما ضرب به أحدهم بعد أن ينبهه على خطئه مرتين أو ثلاثًا فلا يتنبه، ولا يشغله ذلك عن الاستماع لعبد الرحمن الذي يتبعه حيثما ذهب، حتى ارتفعت الشمس عالية وأنهى آخر التلاميذ قراءتهم أوقف الشيخ إبراهيم عبدَ الرحمن وتركه يذهب على أن يعود ظهرًا.

في الكوخ الذي انتقل إليه للسكن مع اثنين من كبار طلاب المحظرة لم يزد على أن ألقى على رفيقيه السلام، وتهالك منهكًا في زاوية منه، وراح في نومة عميقة لم يستيقظ منها إلا عند أذان الظهر فوجد غداءه ينتظره، وقدم له اسلامه، وهو أكبر رفيقيه، كأسًا ساخنةً من الشاي نشطت دماغه ليبدأ بعد الصلاة نوبة جديدة من القراءة؛ وخلال ثلاثة أيام أتم عرض القرآن على الشيخ إبراهيم، فقرر له المواضع التي ينبغي أن يعيد كتابتها وحفظها، ووضع له وِردًا يوميًّا من ستة أحزاب عليه أن يقرأها استظهارًا تحت إشرافه هو أو بالاستعانة بالمصحف، لكي يمر على القرآن كل عشرة أيام، وكانت قواعد تدريس القرآن في محظرة أهل العباس صارمة، ويُؤخذ طلابُها بالشدة، فيكتب الطالب القطعة من عشر آيات إلى نصف ثُمْن فثمن فَوَجْهِ لوح كبير، حسب قدرته على الحفظ، يجلس عليها صباحًا ومساء، يكررها مئتي مرة ثم مئة مرة من صباح

الغد، ثم يكتب مثلها من جديد، ويبقى الدرس الأول في لوحه، لا يجوز أن يغسله حتى يُكمل قراءة خمسمئة تكريرة ويحفظه تمامًا، ونظرًا إلى أنّ عبد الرحمن سبق له أن حفظ القرآن فلم يكلّفه مرابطه بأكثر من مئتين وخمسين تكريرة للدرس الواحد، وكان يكتب وجه لوح كبير بكامله، وعندما بدأ أراد أن يجتهد في التكرار كي يتسنّى له أن يكتب مرتين في اليوم، لكن إبراهيم أطلع المرابط الطاهر على ذلك، فمنعه وطلب إليه أن يخصّص النهار كله للقرآن وفي الليل يحضر إلى حلقة المباراة العلمية التي كانت تجري تحت إشراف المرابط الطاهر أو أحد مساعديه، ولم يكن طلاب القرآن يلزمون بحضورها، لأنهم صغار عليها ولانشغالهم الدائم بالقرآن، لكنه ربما راعى بذلك سن عبد الرحمن ووضعه النفسي فأراد أن يرفّهَ عنه بها، وحتى لا يرهقه التعلم فتذهب جذوة حماسه، ويعرف المرابط الحماسة التي يأتي بها أمثاله عندما يأتون إلى المحظرة، وكيف تنطفئ سريعًا عندما تصطدم بقسوة الدوام على طريقة الدراسة في المحظرة.

وجد حلقة المباراة الليلية حدثًا شائقًا، كانت تُعقد بعد صلاة المغرب وتمتد إلى صلاة العشاء، يطرح الشيخ خلالها أسئلة في الإعراب والشعر والفقه والقرآن، ويتبارى الطلاب في الإجابة، وقد اكتفى

عبد الرحمن في الأيام الأولى بوضع المستمع لكنه مع الوقت أخذ يسابق في أجوبة الإعراب خاصة لأنه كان حاذقًا به أثناء دراسته، وأما أسئلة الفقه وحفظ القرآن والشعر وارتجاله فلم يشارك فيها، واكتفى بالاستماع، ومتابعة المتبارين.

انهمك في القرآن يومَه كله.. لم يعد يجد وقتًا للتفكير، وتلاشت الخيالات من ذهنه، ولم يعد هناك سوى التكرار الدائم لآيات القرآن يملأ منها وجه لوحه ويظل جالسًا عليها يكررها.. لا يريد أن يعود بفكره إلى الوراء، يخاف من جموح الخيال، والشحوب الذي آلت إليه حياته، والذي يقض مضجعه حين يستسلم للتفكير فيه.. جميل هو القرآن حين يملأ على المرء وقته ويشغل فكره.

في الكوخ الذي يسكن إليه لم يكن يترك الحديث يخرج عن العلم والمعارف العامة، ولا يتطرق إلى ماضيه، على الرغم من تآلفه مع رفيقيه اسلامه والتراد اللذين يقاربانه سنًّا، وقد وصلا إلى مراحل متقدمة في التحصيل في المحظرة، فكانا يحدّثانه في علوم القرآن والفقه واللغة، ويسمعان منه أحاديث عن علوم الرياضيات والفيزياء والتكنولوجيا والطب والاكتشافات المهمة في تاريخ البشرية، وقد تطوّع بتعليم التراد الفرنسية، ولاحظ أن اسلامه يحرص خلال الأحاديث معه على أن لا يتطرق إلى السياسة،

خصوصًا حرب أمريكا على أفغانستان التي كانت رحاها دائرة تلك الأيام، وإذا أراد أحد الطلاب أن يتحدث فيها، فإنه يعترض عليه وهو يركز نظراته تجاه عبد الرحمن، ويقول: "ما لنا وللسياسة، لقد جئنا لتحصيل العلم."

آلمه ذلك، لأنه يذكّره بمرضه السابق، لكنه أيضًا أراحه، فهو لا يعرف إلى ماذا سيجرّه الحديث في السياسة، وابن لادن، والحادي عشر من سبتمبر، وذكريات دورته الموؤودة ، وفقيدته الجميلة.. هرب من نواكشوط إلى هذه القرية النائية في الطرف الجنوبي الغربي لمقاطعة بوتلميت ليبتعد عن تلك العيون الصامتة بحزن وهي تتفحصه، وقد ارتسم التساؤل الحائر على قسماتها.. جميعهم يسألونه السؤال نفسه: "كيف حالك يا دحان؟" وتستطيل نظراتهم وتتّسع، فيرد ببرودة وهو جالس محدّق في كآبة صفائح الخشب التي نخرها السوس من تقادم عهدها؛ كان كوخًا مستعملًا حين اشتراه أبوه منذ أكثر من عشرين سنة، ولم يبدّلوا منه خشبة واحدة بعد ذلك، لكنهم يغيرون مواضع المسامير حين تصدأ وتتخلخل، ليظل متماسكًا في وجه زعازع الرياح التي لا تمرّ إلا واقتلعت بعض أكواخ الكبة وسقائفها.

سئم من كثرة ما سُئل وأجاب، وفقد الاهتمام بما حوله، حتى

أصبح حاضرًا غائبًا، وقريبًا بعيدًا، جالسًا يتفرّج على شريط الحياة وهو يدور أمام عينيه.. لم يلوموه علنًا على هيلين، لكن نظراتهم كان فيها احتجاج واضح، حتى الزهرة كانت تطيل النظر إليه، وعندما يسأم منها يرمقها بنظرة استنكار، فتحوّل نظرها عنه، لكنها تظل تختلس النظر إليه، كأنها تريد أن تلتقط عليه زلة لسان أو تبحث له عما يدينه، لا شك أنها تحفظ كل كلمة وكل حركة صدرت منه في تلك الأيام، على الرغم من أنها كانت في بعض الأحيان تبكي حسرة عليه.. لكنه يعرف براعتها في التقاط سقطات الناس ونشرها لهم عند الحاجة.

أكمل عبد الرحمن إعادة حفظ ما كان مطلوبًا منه حفظه، وواظب على ختم القرآن كل عشر ليالٍ حسب ما حُدِّد له، حتى استعاد حفظ القرآن كاملًا، يسرده بلا تردد أو خطأ، في ستة أشهر، وأجاز المرابط الطاهر حفظه بعد اختباره.. فرح بما حققه وتحفز للمرحلة الجديدة التي كان يحلم بها منذ أن وطئت قدمُه أرض تلك المحظرة، وهي أن يطرق باب الفقه واللغة فيكتب أحد المتون؛ وبتوجيه مرابطه بدأ في حفظ كتاب (كفاف المبتدئ من فنّي العادات والتعبد) لمحمد مولود بن أحمد فال اليعقوبي، وشرع في دراسته، ليبدأ مسيرته مع الفقه.

مرت الأشهر سريعة وهو مشغول بالتحصيل، وقد قرّبه الشيخُ فأصبح يدعوه في أوقات فراغه ويستبقيه معه، مع من يستبقيه من الطلاب المشرفين على الإجازة، فيسمع أحاديثهم ومداولاتهم في مسائل الفقه، وربما دعا الشيخ بكتاب فدفعه إليه ليقرأ له منه، وكان عبد الرحمن قارئًا جيّدًا سريعًا، وقد ملأ عليه ذلك وقتَه وسرّه، خصوصًا في أيام الإجازة المحظرية الأسبوعية، إذْ يذهب الطلاب إلى القرى المجاورة أو إلى مدينة بوتيليمت إن وجدوا وسيلة إليها، فلا يبقى في المحظرة سواه أو واحد أو اثنان ممن قد لا تكون بينه وبينهم ألفة؛ وكانت الإجازة من ظهر الأربعاء إلى صلاة الجمعة كئيبة طويلة على نفسه، لا يُسمح للطلاب من غير أبناء الحي بدخول بيوت الحي أو التجوّل فيه، وإذا فعلها أحدُهم يُنذر، فإن عاد طُرد نهائيًّا من المحظرة، وربما يكون الشيخ أراد أن يمنع عنه تلك الوحدة ويطرد الكآبة حتى لا ينتابه المرض من جديد، كما أن الطلاب الذين يغشون مجلس الشيخ يحظون بفرصة أن يطعموا من الطعام الذي يُقدَّم للضيوف، وهو طعام كثير اللحم، شهي، بخلاف طعام الطلاب القليل اللحم الماسخ؛ منذ سنوات عديدة أصبحت محظرة أهل الطاهر تتكفل بأكل الطلاب وسكنهم، وكان الطلاب قبل ذلك يأتون بزادهم من عند أهلهم، وربما ساقَ واحدٌ

منهم بقرة لتكون عنده يحلبها، لكنَّ المرابط الطاهر، الذي لم يسعَ يومًا في جمع المال وذهب عمرُه كلُّه بين الكتب والتدريس والعبادة، قد تجمّع له مالٌ كثير من إرث والده مؤسس المحظرة، ومن العطايا والزكوات التي تُعطى للمحظرة، وقد كثر ذلك واتّسع في العقود الأخيرة مع اشتغال أجيال من طلاب المحظرة القدماء بالتجارة ووصول آخرين إلى وظائف سامية في الدولة، وسفر البعض الآخر للعمل في دول الخليج، وكانوا في أغلبهم أوفياء لمحظرتهم، يبعثون لها الأموال من كل مكان، ويبعثون لها بالهبات والزكوات، ويتدخلون لإشراكها في المخصّصات التي تخصّصها الدولة للمحاظر، وأوكل المرابط الطاهر تصريف تلك الأموال وتنميتها إلى أخيه عبد الله وبعض أقاربه، وأمر بأن يصرف منها على المحظرة، فبنوا لهم الأكواخ والمراحيض، وجاؤوا بطباخة لتطبخ لهم، وصاروا يصرفون لكل مجموعة منهم الشاي والسكر والصابون مع بداية كل شهر، حتى إن الشيخ كان يأمر لهم بدراريع في عيد الأضحى.. كان الشيخ الطاهر يحب الإنفاق وصلة الرَّحِم، ويعرف أوضاع أُسَر طلابه، فإذا جاءه الطالب الفقير لاستئذانه في السفر يتحفه بعطيّة نقدية أو عينيّة.

نهاية مشوار

خرج عبد الرحمن سيرًا على الأقدام إلى مكان الحفل الدعائي الذي نظّمه عبد الله ولد العباس أخو المرابط الطاهر لمصلحة مرشح الحزب الجمهوري عن بوتلميت في الانتخابات البرلمانية، ودعا إليه وجهاء القرى المجاورة وسكّانها والمسؤولين الإداريين وقادة الحزب في بوتيلميت، وقد نُصبت خيام الحفل على بعد خمسة كيلومترات عن قرية العلكة، احترامًا للشيخ الطاهر والمحظرة، حتى لا تصله أصواتُ الطبول والمزامير، وهرج الناس ومرجهم، وأمر الشيخ النساء بلزوم بيوتهنّ، لكنهنّ ذهبنَ خِلسةً، ولم يبقَ في القرية سوى العجائز والشيوخ الهرمين، واستقل طلاب المحظرة سيارات الحفل مبكرًا لتوصلهم إلى الحفل، لكن عبد الرحمن فضّل أن يبقى حتى المساء لأنه لا يريد أن يصل قبل ابتداء الحفل.

كان يأمل أن يجد سيارة في اللحظة الأخيرة توصله من دون عناء إلى موقع الحفل، لكنه لم يجدها وبدأ مسيرته تجاه الحفل بعد

صلاة العصر، مطمئنًّا إلى أنه سيصل في الوقت المناسب، إذ سيبدأ الحفل بعد صلاة المغرب؛ وبينما كان يسير رأى على الطريق أمامَه امرأتين تسيران تجاه الحفل، انحرف قليلًا على يسار الطريق لكي يترك مسافة بينه وبينهما عندما يوازيهما. أحس بشيء من الحرج، فهذه أول مرة يقترب فيها من نساء أهل القرية، فطلاب المحاظر محظور عليهم الاختلاط بأهل القرية أو الاقتراب من النساء، وخلال تلك المدّة التي قضاها في قرية العلكة لم يحدث أن اختلط بالنساء أو دخل القرية، كان لا يراهن إلا من بعيد، لكنه في تلك المرة قرر أن يمر غير بعيد من المرأتين، ويلقي عليهما السلام.. غلبه الحنين إلى مخاطبة امرأة، وكسر ذلك الطوق ولو بسلام عابر، ومن يدري فقد تكونان تحتاجان إلى مرافق في تلك المسافة البعيدة نسبيًّا على النساء، وسيتطوع بتوصيلهما إذا طلبتا منه ذلك.. اقترب منهما، وتباطأ في مشيته حتى يأخذ وقتًا كافيًا لتبادل السلام معهما، كانت إحداهما متراخية خلف الأخرى، وقد سمعها تقول لها: "لقد تعبت، علينا أن نستريح قليلًا."

التفتت إليها صديقتها، ففاجأها وجودُه خلفهما.. وجهها يوحي بأنها شابة في العشرينات، فصاحت بصاحبتها: "ويلك، هناك رجل يتبعنا."

التفتت الثانية مذعورة، فرأته قريبًا منها، وصرخت مذعورة مبتعدةً عن الطريق: "وُووْ.. لقد هلكنا، إنه المجنون دحّان.. ياي.. يا بوي."

على إثرها انطلقت صديقتُها، وابتعدتا شمالًا.

المجنون دحّان.. صعد الدم إلى رأسه.. ليست مرتابة ولا واهمة، فهي ذكرته بالاسم وتعرف شكله.. لماذا يقف محتارًا؟!.. عليه أن يمارس الدور الذي ألبسته إياه فيمسكَ بها ليريها أنه مجنون حقًّا.. من أين جاءت بهذه الصفة المدمرة؟.. الرجال في مجلس المرابط الطاهر لا يشعرونه بتمييز.. يتعاملون معه بسلوك عادي.. طلاب المحظرة أيضًا، على قلة اختلاطه بهم، لا يبدو عليهم التوجس منه، فقط صغار طلبة القرآن يطيلون النظر إليه، لكنه كان يظن أن ذلك بسبب سنّه التي لا تناسب أعمارهم.. أو بسبب أنه قادم من المدينة.. فما بال هذه الحقيرة تطلق عليه تلك الرصاصة.. رفيقتها أيضًا تخافه.. هل هذه هي النظرة التي ينظرون إليه بها؟!.. لماذا يحكمون عليه بصفة لم يختبروها فيه؟!..

سامحك الله يا أبتاه.. كنت غنيًّا عن أن تحدّثهم بغيبوبته.. كانت مجرد غيبوبة وانتهت.. لم يتجرد من لباسه، ولما يمد يده إلى أحد.. فقط صمت وراقب الحياة عن كثب، وكان حين يسرح به الخيال

في عالم هيلين يوشوش سرًّا لمن يثق به من أسرته أو أصدقائه.. لم يُرعبْ أو يُرهبْ أحدًا، فلماذا تهربان منه كأنه قاتل مسعور؟!.. يا لها من قرية خائنة! طعنته طعنة غادرة.. كان يحسبها مأوًى وديعًا لناس طيّبين يتحلّقون حول ذلك الشيخ الوقور الوضيء.. لكن يبدو أنهم مجرد قطيع من الذئاب الجائعة فرشت لحمه وبدأت نهشه..

دارت به الأرض وبدأ جسُمه يرتجف وقدماه تختلطان، ولم يستطع التقدم أكثر، تحامل حتى انتحى ناحية يمين الطريق وتهالك في حضن كثيب.. في دماغه لولب يدور بقسوة مؤلمة، يلف معه الأعصاب والشرايين كلّها، فتتقطع إربًا ويتفجّر الدم في داخله شلالًا جارفًا، يتسرّب من كامل جسمه، غاب سابحًا في فضاء بعيد.. سمع طبولًا وأغانيَ وصخبًا كثيرًا، ورأى الخيام وعبد الله ولد العباس أخا الشيخ الطاهر ووجهاء الحزب والجماهير، وبدأت الخُطَب الحماسية تشيد بحكمة الرئيس معاوية وأياديه البيضاء التي حوّلت الصحراء إلى جنّات خضراء، وجعلت المواطن يعيش في رغد من العيش، وتؤكد أنهم سينجحون في الانتخابات وتدعو المواطنين إلى التصويت بكثرة لمرشحي الحزب، وفجأة توقف كل شيء وانشدت العيون إلى فتاتين تفرّان بعيدًا وتوغلان في مفازة لا حدود لها، ثم تستحيلان إلى شخص واحد على هيئة هيلين وهي تفر

من أمامه، وهو واقف في قلب المفازة يعوي ككلبة فاقد، ثم بدأت الصور تتلاشى في ذهنه ويغوص في سواد سحيق.

حين أفاق أدرك أن الدوخة التي أصابته أسلمته إلى غفوة، كانت الشمس قد مالت إلى الغروب ولم يجد الرَّغبة في المواصلة إلى الحفل.. لا يريد أن يواجه تلك العيون المحدقة والنظرات الشاخصة فيه، حتى القرية لم يكن راغبًا في العودة إليها، فلن يستطيع تحمل تلك النظرات الوجلة، بعد أن أفشت سرها تلك الفتاة البغيضة، التي لا تعرفه إلا بالوصف.. لن يستطيع أن ينسجم مع حذرهم وخوفهم منه، لكن لم يكن لديه خيار في تلك الساعة، قرر العودة، والتفكير بهدوء في خياراته.

كان لا يزال مضطربًا مهزوز الكيان حين أوى إلى الفراش في تلك الليلة، ولم يستطع أن ينام.. ما زالت صرخة تلك الفتاة تشقّ أذنيه، وبعض قطرات من الدمع تسيح على خده حين يشط به التفكير، وقد أحس بالحرارة الشديدة، على الرغم من أن الجو كان جو شتاء، وساعده أن رفيقيه باتا في خيام الحفل، وقد كانت ليلة جمعة، وهي من أيام الإجازة المحظرية الأسبوعية، فترك الكوخ مفتوحًا وصار كلما أحس بالضيق والحرارة يخرج ويجلس ساعة أمام الكوخ، حتى كان قريبًا من الصبح، فاستطاع أن ينام.

في عصر اليوم الموالي كان خارجًا من المسجد حين ناداه اسلامه باسمه الكامل مداعبًا: "عبد الرحمن ولد الغوث."

فوقف ينتظره، ولاحظ أن الشاب المار غير بعيد منه في زمرة من الطلاب قد رفع بصره بحثًا عنه حين نطق اسلامه باسمه كاملًا، وتوقّف محوِّلا نظراته بينه وبين اسلامه حتى عرف أنه هو صاحب الاسم، فقلب نظره فيه، كأنما يبحث عن صورة أو معلومة من خلال تلك المعاينة.. لم تشغله زمرة الطلاب التي التفت حوله لتلقي عليه السلام عن متابعة عبد الرحمن بدهشة، ونظراته تتفرسه.. كان ذلك الشاب من أبناء القرية، وقد وصل ليلة البارحة قادمًا في إجازته الدراسية من ألمانيا التي يدرس فيها.. أُحرِج عبدُ الرحمن من نظراته فجعل يتشاغل باسلامه الذي لحق به، لكنّ الشاب تقدم منه مسلّمًا، وقال له:

"كأني أعرفك أو سمعت اسمك من قبل.. عبد الرحمن ولد الغوث، هذا الاسم أعرفه جيّدًا."

"لا أعرف، لكن أين تكون قد عرفتني؟"

قال الشاب وكان يرسل نظراته في عينيه مباشرة:

"لا أتذكر بالضبط! لا.. لا، لقد تذكرت، كنا في بوتلميت سنة 1998 نحضّر للباكلوريا، وكانت لدينا نسخ من حلول لبعض معادلات

الرياضيات والفيزياء موقعة باسم مطابق لاسمك عبد الرحمن بن الغوث، أذكر جيّدًا تعريجاته، وتفنّن صاحبه في كتابته والنجمة الخماسية التي يختم بها طرف الثاء.. آه عفوًا يمكن أن يكون اسمًا على اسم."

"عجيب!.."

"أيْ نعم، عجيب! الأسماء قد تتطابق ولا يكون بين أصحابها أية رابطة."

"1998 كنت في السنة النهائية من كلية العلوم وكانت قد مرت أربع سنوات على تلك التمارين.. فكيف وصلت إليكم أنتم في تلك السنة وفي بوتلميت؟!"

"هو أنت إذًا.."

"إنه أنا. تسمعَ بالمعيدي خير من أن تراه."

تضاحكوا جميعًا، ثم صعّد الشاب النظر فيه يتفرّسه غير مصدّق.. وجه يكسوه الشحوب، وشعر أشعث قد استطال، وهيكل نحيف، ودراعة بالية؛ قال له:

"سمعنا أنَّ تلميذًا عبقريًّا هو من أنجزها.. وتوقّعنا أنه سيكون عالِمًا رياضيًّا كبيرًا."

"للأسف لم يصرْ شيئًا.."

وقال محوّلا الموضوع، وقد نُكِئتْ جراحُه:

"لا شك أنك عبد العزيز."

"أنا هو."

"كيف هي الدراسة في ألمانيا؟"

"الظروف جيدة، لكنّ الدراسة صعبة، تتطلّب جهدًا غير عادي، خصوصًا في تخصّص علوم الفضاء الذي أدرسه."

"ذلك تخصّص هائل، وأرجو أن نراك غدًا عالمًا في أنظمة الفضاء."

"شكرًا لك.. وأنت فيمَ تخصّصت؟"

قال متنصّلًا:

"هذه قصة تطول، سنجد الوقت للحديث فيها، أما الآن فأنا كما ترى، طالب محظرة."

"تفضّل معي إلى المنزل لنواصل الحديث."

"شكرًا، أنا مشغول الآن، لكن سنلتقي لاحقًا."

افترقا، وذهب عبد الرحمن مع زملائه إلى أكواخ الطلاب.. لكن صورة عبد العزيز لم تفارق مخيلته.. حديثه هادئ لكنه واثق من نفسه.. نظراته قوية وهو يرسلها مباشرة إلى داخل أعين محدّثيه، كأنما يريد أن يهزمهم ويقول لهم: "أنا المتفوق.. أنا الذي تنكسر نظرات الآخرين أمام نظراته.. أنا الذي صقلتني بلادُ أوروبا وجمّلتني

وعلّمتني، لذلك عليكم أن تكسروا نظراتكم المنطفئة، وتطأطئوا جباهكم الكالحة أمامي."

لقد هزمكَ فعلًا.. وجعل نظراتك أنت ترتد إليك خانسة في كل مرة تتقابل نظراتكما.. لم تتعود على تحدي النظرات في غير الخصومة والشجار، لكنّ عبد العزيز يستخدمها في السلم.. لا شك أنهم في ألمانيا علّموه أن ذلك هو أحد أساليب التفوّق وإخضاع النظراء.. لن تعتب عليه بسبب ذلك، لأنه يستحق أن يتعالى ما دام متفوّقًا، مع أنك أنت لم تكن تتعالى حين كنت تحصد الدرجة الأعلى.

مرة واحدة تحدّيت فيها أحد التلاميذ، وكنت ضمن مجموعة من تلاميذ الإعدادية المتفوّقين الذين اختيروا للمشاركة في مسابقة كأس والي نواكشوط للرياضيات، لم تكن تعرف ذلك التلميذ، لكنكما في الفسحة بعد أحد الاختبارات اختلفتما على حل مشكلة، فغضب التلميذ وقال إنك لم تفهم السؤال وإنه سوف يتفوّق عليك، لكنّك تحدّيته وراهنته، وعند إعلان النتائج تفوّقت عليه، وبحثت عنه فلم تجده.. ها هو عبد العزيز يهزمك.. لكن، لقد فعل ما لم تستطع فعلَه، سافر إلى ألمانيا ليرتع في مرابع أينشتاين وماكس بلانك وهايزنبرغ وينهل من نظرياتهم.. عرف طريقه الذي يجب عليه أن يسلكه، وضاع منك الدرب فلم تعرف أين تتّجه.. كان ماكس

بلانك يرى أن (ثابت بلانك) الذي اكتشفه لا يمكن الاستغناء عنه، وكنتَ تعده بأنك يومًا ما ستتوصل إلى طريقة للاستغناء عنه، لكنّك أخلفت وعدك.

كنت السادس على المستوى الوطني في امتحانات البكلوريا، أخّرتك الإنجليزية والتاريخ والجغرافيا، لأنك لم تُعِرْها اهتمامًا، لأنها مواد ثانوية، ومع ذلك كنت مؤهلًا للحصول على منحة خارجية، لكنهم قالوا لكم يومها إن الوزارة قررت أن لا تبعث أي طالب إلى الخارج، لأن لديها كلية للعلوم تتضمّن قسمًا للفيزياء، وستجلب له خيرة الأساتذة، وستوفر له أحدث الوسائل التكنولوجية للتدريس؛ وعلى الرغم من ذلك بعثوا العشرات خلسة، ورموا بكم أنتم في تلك المقبرة، ولم تأتِ الوسائل التكنولوجية الحديثة التي وعدوكم بها، وجاؤوا بأسوأ الأساتذه، فغدروا بكم؛ وحين مدّت لك هيلين يدَها لتنتشلك خطفوها..

تهت في بيداء يأسك، لم يعد هناك من حبل يتدلى لينقذك، ثم ظننت أن المحظرة يمكن أن تنقذك وتشفي داءك.. نسيت أن جرثومة الفيزياء قد أكلت دماغك، ولا يمكن قتلها إلا بفصله ، لكنّ أهل قرية (العلكة) لم ينسوا أنك مريض بتلك الجرثومة، ولم يسلموا بأنك تلميذ محظرة عادي.. يتعاملون معك بشكل استثنائي

وبحذر، حتى المرابط الطاهر على طيب نيته وسلامة صدره..
أنت شخص غير طبيعي، وقد شهدت بذلك تلك الفتاة مساء أمس..
ماذا تنتظر هنا، في قريةٍ كلُّ شيء فيها يلفظك خارجه؟!.. سنتان ونصف وأنت تناور.. تمتنع عن الذهاب لزيارة أهلك، على الرغم من الرسائل التي كان عليّ يرسلها إليك يدعوك فيها إلى زيارتهم ويعبر لك عن اشتياقهم إليك.. حتى حين ظهرت الهواتف الجوالة ووصلت إلى القرية عن طريق بعض أقرباء عبد الله وبعض شيوخ المحظرة، واقتنى أحد الطلاب واحدًا منها، وصار أهلك يتصلون بك عن طريقها، كنت دائمًا تَعِد النّاه بأنك ستزورهم.. كنت تعرف أن الجرثومة قد أكلت عقلك، فعلاقتك بالمحظرة تختلف عن علاقة الطلاب الآخرين بها، فهم يستطيعون أن يذهبوا في إجازات ويعودوا، أما أنت فإن شيئًا ما في داخلك يحذّرك على الدوام بأن خيارك الوحيد هو أن تبقى، مهما طال فراقك لأهلك واشتياقك إليهم، لأنك إن ذهبت فقد لا تعود، وقد كدت تفعلها منذ أشهر حين أبلغك عليّ بأن صديقك سليمان سافر إلى نواذيبو للعمل في الشركة الوطنية للصناعة والمناجم، وأنه يدعوك للالتحاق به، لعلك تجد عملًا هناك، لكنك اعتصمت باليأس من الحصول على عمل، فتراجعت.

اليوم لم يعد هناك مجال للمراوغة، لم تأتِ هنا لتكون عالمًا حافظًا، ولا تخطط لأن تكون شيخ محظرة.. لن يعترف أحدٌ بأنك طالبٌ عاديٌّ من طلاب المحظرة، على الرغم من تفوّقكَ في الحفظ وسرعة تقدمك في تحصيلك.. لقد قضت تلك الفتاة بنهاية مشوارك مع المحظرة، وقد غسلت الدموع التي سهرت عليها ليلة البارحة كل علاقة بينك وبين هذه القرية، وها هو ذا ابنها يوقظ بنظراته المتحدّية لوثة الفيزياء في نفسك، ليذكرك بأن هذا المكان ليس هو المكان المناسب لك.. لقد انتهى المشوار وعليك أن تحزم أمتعتك وتعود من حيث أتيت.

مشروع عليّ

عندما حزم عبد الرحمن أمتعته وغادر المحظرة في صباح اليوم الموالي عائدًا إلى نواكشوط كان على علم بالتغيرات التي طرأت في أسرته، من زواج زينب وانتقالها إلى زوجها في البادية، وشراء علي لقطعة أرضٍ في المناطق الجديدة في مقاطعة عرفات، وانتقالهم إليها، وتحسّن حال محمد يحي زوج سكينة بعد أن اشترى له إخوته سيارة أجرة وصار يعمل فيها؛ ومنذ اليوم الأول لعودته عرض عليه عليّ أن يساعده في عمله الذي توسع ولم يعد شخصٌ واحدٌ يستطيع القيام به، ولن يجد خيرًا منه لمساعدته. وكان علي فتًى موهوبًا في صناعة العلاقات، وقد فتحت له علاقتُه بالمرأة الفرنسية التي أنقذها من السرقة بابًا للتعرف على كثير من صديقاتها الفرنسيات والأوروبيات في نواكشوط، وتزويدهن بالخضار في بيوتهن، فكان يطوف بهن مساء ليعرف طلباتهن للغد ويجلبها إليهن، وشيئًا فشيئًا تعرف على مؤسسات أجنبية، وعلى أصحاب مطاعم، فصار

يزوّدهم بالخضار، وتعلم السياقة وتدبر أمره حتى اشترى سيارة مستعملة استغنى بها عن سيارات الأجرة التي كانت تكلفه كثيرًا، ومنذ أشهر تعرّف على مسؤول مشتريات في أحد الفنادق الكبيرة، وأصبح يزوّده بحاجته من الخضار.

كان يستيقظ فجرًا ويتجه إلى سوق الخضار ليشتري حاجته مباشرة من التجار الذين يزودون السوق، فذلك أرخص له من شرائها من باعة السوق، وقد استأجر مخزنًا في السوق ليحفظ فيه بضاعته، ثم يبدأ بعد ذلك في توزيعها على زبائنه حسب طلباتهم، وفي المساء يدور عليهم من جديد ليعرف طلباتهم للغد، ويحصّل منهم ثمن الطلبات السابقة، وكان ذلك شاقًّا عليه وحده.. ساعدته الناه في إقناع عبد الرحمن بالعمل معه، وقَبِلَ أن يعمل معه بصورة تجريبية حتى يعرف حجم العمل وهل يستحق أن يواصل فيه أم لا.

بعد أيام من التدريب على العمل وكلَ عليّ إلى أخيه مهمة التبكير إلى السوق وشراء البضاعة من التجّار المزودين وإعداد الطلبات ليأتي هو بعد ذلك ويوزعها على الزبائن، وبدأ عبد الرحمن التدرب على السياقة حتى يستطيع أن يتولى عملية التوزيع بكاملها، ويترك لعلي مهمة بناء العلاقة مع الزبائن واستلام الطلبات وتحصيل النقود، كما وضع عبد الرحمن نظام محاسبة أصبح يتتبع من خلاله

المداخيل والمصروفات بدقّة، وافتتح حسابًا في البنك ليدّخر فيه النقود الفائضة عن حاجة العمل اليومي، واتّفق مع علي على أن يكون لكل منهما راتبٌ شهريّ ويتركا نسب الربح للحسابات السنوية.. بدا الثنائي متكاملًا، فتًى طموح لا تعوزه الحيلة لصناعة الزبائن وتطوير علاقات تجارية متميزة معهم، وشاب متحمس لتدبر مختلف أوجه العمل الأخرى وقادر على الإحاطة بالحسابات بدقة متناهية.. كان ذلك هو الأساس الصحيح للانطلاق نحو المستقبل، فلا شيء يمنعهما إذًا من بناء مؤسسة تجارية عملاقة.

يبكيان كالأطفال

ألقى نظرة على الكيس المعبّأ بالثياب المستقرّ بين ساقيه.. اختار أن تكون تلك فاتحة خير لأول راتب يقبضه من عمله مع علي، ليعبر لأولئك الصغار عن حبه لهم.. استقرت نظرته على بدلة زاهية تبرز فوق الأثواب الأخرى فالتقطها وقلبها أمام عينيه، كانت لا تزال في عبوتها التي خرجت بها من المصنع، فقد اكتفى بتأكيدات البائع أنها على مقاس ابن سنة من الأطفال.. بدت له أكثر جمالًا تحت ضوء النهار من رؤيته الأولى لها تحت مصابيح الدكان.. كانت أغلى ثمنًا من أثواب سعيد ومريم وآمنة، على الرغم من أن مقاسها يصغر مقاساتهم بكثير.. لكنه اختارها بعناية، وحرص على أن تكون من القطن الخالص، وأن تكون جميلة المنظر.. حين بعث إليه عليّ برسالة قبل سنة يخبره فيها بأن سكينة أنجبت صبيًّا ذكرًا، وأنها سمّته باسمه، ولقبته دحّان، أصيب بذهول وتألم كثيرًا لذلك.. حتى إنه همَّ بأن يكتب لها رسالة يطالبها فيها أن تغيّر اسم الولد

وتسميه على اسم شخص صالح لأن يكون قدوة، وأن تكف عن آمالها الخيالية فيه هو، فقد استقال من الحياة، ولم يعد يريد منها شيئًا، يكفيه أن يعيش كما هو الآن طالب محظرة في كنف شيخ زاهد في الدنيا.. كان سيقول لها إنّ دحانها الذي تتعلق به هو وَهْمٌ صنعته بمحض خيالها، وليس له وجود في الحياة.. لكنه لم يكتب لها، احترم مشاعرها وقلبها الكبير، وخشي أن تكتشف قساوة الإحباط والألم الذي يعيشه فتصطدم بذلك.

انتبه إلى صوت السائق يقول له: "لقد تجاوزنا ثانوية بوحديدة، فأين نتجه الآن؟"

رفع بصره إلى الأمام يتأمل الطريق، وأخذ يدلّه بيده على المداخل التي يدخل منها حتى أوقفه أمام المنزل، أعاد البدلة إلى مكانها، وأمسك بعرى الكيس بعد أن دفع أجرة السائق ونزل.. على الباب تلقاه سعيد فحمل عنه الكيس وجاءت مريم وآمنة تجريان لاستقباله ودحان الصغير يخطو ويتعثر في إثرهما، وهَوى فالتقطه وأخذ يقبّله.. دخل إلى الصالون واستخرج اللبسة من الكيس وخلع عن الصبي لباسه وبسط البدلة الجديدة ليلبسها له.. خرجت مريم لتستدعي أمها من عند جارتها عائشة، فجاءت مسرعة، وعندما وقفت في باب الصالون، ورأت الأطفال منهمكين كل منهم يقيس

ثوبه على نفسه، وعبد الرحمن يسوّي للصغير دحان لبسته، ويضحك ويقول له: "أنت جميل." ويقبّله؛ لم تستطع السيطرة على دموعها التي انهمرت بشدة.. بكت بكاء عميقًا حيَّر عبد الرحمن الذي وقف لاستقبالها، وحيّر الأطفال معه، فتوقفوا مدهوشين.. تهالكت على طرف الحشية القريبة من الباب، وهي تتنهد، ودفنت وجهها في طرف ملحفتها وانكبت به على ركبتيها.. اقترب منها عبد الرحمن حتى جلس بجانبها، وقال لها ووجهه يكاد يتقاطر دمًا: "سكينة.. ما بك.. هل تتألمين من شيء؟"

قالت له من بين دموعها: "لا، لست متألمة من أي شيء."

قال بانزعاج: "إذًا لمَ هذا البكاء الذي يفطر الكبد؟!"

رفعت رأسها إليه وقالت: "أنا أبكي من شدة الفرح.. هذه لحظة انتظرتها سنين طويلة.. حتى يئست واسودّ قلبي.. ها هو دحان الذي حلمت به وأردته يتحقّق أمامي.. لقد كنتُ دائمًا على يقين من أنك سوف تعود وسوف تعمل وتنجح.. وكنت أتضرّع إلى الله أن لا يخيّب أملي فيك.. لن يمر عليَّ يومٌ في حياتي أسعد من هذا اليوم."

لم يتكلم.. أشاح بوجهه بعيدًا عنها.. تشاغل بآمنة يسوي لها فستانها.. ويخفي وجهه وراء قامتها القصيرة.. كان في غربته في المحظرة حين يتذكر دندنتها له وهي تقول: "دحّانِي، يا دحّاني.. يا

شِيخْ القومانِ.. لاَهِ ترفع لي شاني.. وتحَقّق لي الاماني." يخاطب خيالها قائلًا: "دحّانك يا سكينة وهْم.. أنتِ صنعتِه بخيالكِ، وحاولتِ أن ترفعيه به، لكنه مجرد اسم غير قابل للتصنيع في الواقع.. هيكل لشخص نسجت حياته من إحباطاتٍ فقد معها الأمل في كل شيء." انتبهت الصبية إلى دمعة سقطت على خد خالها، فقالت مستغربة: "ما لكما تبكيان كالأطفال؟!"

وقف وأسرع خارجًا من الغرفة واتّجه إلى الحمام، ومكث فيه وقتًا يجفّف دموعه.. لا يتحمل دموع أخته، حتى وإن كانت دموع فرح، لأنه يخاف أن تكون مخدوعة في فرحها.. بكاؤها يكشفه أمام نفسه، فتبدو تفاصيل حياته البائسة مسارات مترنحة أمام ناظريه.. تنفتح جراحه كلّها دفعة واحدة، فيغرق في آلام سوداء.. في أيام مرضه كان يمسك عن الكلام حين تزوره، يكبح جماح خياله، ويطبق شفتيه بإحكام، حتى لا يثير دمعتها، ومع ذلك فقد كانت تغرق في بكاء قاسٍ لا يتوقف حتى تأتي الناه فتأخذها خارج الكوخ.

عاد فوجد أخته قد توقفت عن البكاء، وقدّمت له الزريق وشرب معها الشاي، وأمرت أطفالها بخلع الثياب الجديدة، وطوتها وأرجعتها إلى الكيس في انتظار عيد الأضحى الذي سيحلّ بعد أسبوع. وجدت الفرصة سانحة لتعرض عليه مشروعَها، فصرفت الأطفال

إلى ساحة المنزل ليلعبوا، وقالت له:

"دحّاني، الآن وقد عدت إلينا وبدأت في العمل فقد آن الأوان لأن تفكر في نفسك.."

قال باستغراب:

"وكيف أفكر فيها؟"

"كما يفكر الرجال!"

"أنا لست مثل الرجال.. أنا مريض وعاطل عن العمل."

"أنت خير الرجال وزين الرجال جميعًا.. وجدير بخير النساء."

اتّسعت نظراتُه وقال لها:

"ومن التي ستقبل بي؟"

"كثيرات.. وأعرف واحدة مستعدة على الفور."

حدق فيها غير مصدّق وقال:

"إما أنك تسخرين مني، أو أنها امرأة مخبولة."

"كلا.. إنها فتاة عاقلة وجميلة، وهي معلّمة."

"مثل هذه لن تنظر إلى مثلي."

"ما رأيك لو قلت لك إنها معجبة بك."

"لا أصدق ذلك."

"ولماذا لا تصدقه؟! لا تنسَ أنك دحاني الذي ظل الأول على فصله

حتى تخرج، وما زال باستطاعتك أن تكون الأول في الحياة."

صمت، فقالت له:

"اسمها مريم بنت سيدي، وجدّتُها خديجة ابنة خالة الناه، هي من أهل عبد الصمد أخوال الناه."

"خديجة أعرفها، ولا أنسى ابنتها لأن اسمها سكينة على اسمك، لكن لا أظن أنني أعرف حفيدتها تلك."

"هم من سكان التيارت، وقد قالت لي إنها تعرفك، وإنها سبق أن التقت بك."

"ربما.. لا أذكر ذلك."

قالت مغتنمة دهشته:

"ما رأيك أن أزورهم أنا وأنت ليلة العيد؟ إنها فرصة جيدة للتعارف."

"لا، زيارة ليلة العيد بمنزلة خطوبة مؤكدة، تمامًا كيومه، لا.. لا، لا أريد أن تحسب علي خطوبة وأنا لم أتبيّن بعد ماذا أمامي."

"لا أحد يتقيد بتلك العادات اليوم، وبعد فهذه فتاة واعية تدرك أن قرار الزواج لا بد أن يسبقه تفاهم."

لا تخلف سكينة موعدها مع ما يبهجه.. تخطط وترتب ثم تأخذه معها في رحلة التنفيذ، كأنه ما زال ذلك الصبي الذي ظلت تتعهده بالتنظيف والدهان وتداوي جراح قدميه التي تسببها قطع الزجاج

والمسامير وحجارة الطريق.

من أدراها أنه سيعود من المحظرة حتى وثّقت العلاقة مع تلك الفتاة ونسّقت لتجمعه بها؟!.. تؤكد له أنها فتاة جميلة.. فيغمض عينه مطمئنًا إلى حُسْن اختيارها، ويترك خياله يسرح ليتصور هيئتها، وعندما يأوي للنوم في تلك الليلة ستدهمه عينان زرقاوان، تخترقان خياله، فيغرق في بريقهما.. ليست هذه عيني مريم، من أين لها بتلك الزرقة النافذة؟!.. ينبغي أن تكون عيناها سوداوين كبيرتين تتسعان وتبتعدان كلما ازداد انفتاحُهما، تجذبان إليهما الأشياء بهدوء وعمق، لكنّ هاتين العينين زرقاوان تقتربان وتلهبان ببريقهما كلما ازداد انفتاحُهما، وهذا الوجه الأبيض الناصع لن يكون وجهَها، لا بد أن بياضها مشرب بحمرة، وهذا الشعر البني المكشوف.. آه، يا له من غبي!..

ليست هذه مريم التي يبحث عنها، إنها هيلين.. ها هي تتجسّد أمامَه بكامل هيئتها، لباسها القصيف وقامتها الرشيقة تخطو تجاهه، تصعد درجات السلم الخشبي الأسمر.. تأتي حتى تقف في وجهه تمامًا، تغمره بضوئها وتحجب عنه كل رؤية.. أخيرًا جاءت بعد هذا الغياب كلّه.. بعد أن ظلّت لفترة طويلة تهرب منه.. تطلّع في وجهها لم يرَ الابتسامة الرقيقة، وقرأ في عينيها وعيدًا.. سحب نظراته

جانبًا لكنها سدت نظره بيدها، كأنما تخفي عنه شيئًا، خُيِّلَ إليه أنه رأى خيالًا لامرأة خلفها، من بين قدمي هيلين تبدَّى طرفُ ملحفة مصبوغة بألوان هادئة منسّقة، وارتفع رأسُ صاحبتها من خلف رأس هيلين، حتى تبدى وجهُها الجميل، وعيناها الواسعتان.. أطبقت هيلين يدها على عينيه، وضغطت عليهما بشدة آلمته، فحاول أن ينزعهما برفق، وأمسكت رأسه ولوت عنقه بعنف، لكي لا يرى التي خلفها، وكادت تكسره، وبردّة فعل لا إرادية أمسك بساعديها، وقذف بها عن يساره، وقبل أن يتبيّن ملامحَ المرأة التي أصبحت أمامَه من غير حاجز كان الألم يسري في مرفقه الأيسر ففتح عينيه، ليدرك أنه قد ضرب به بقوةٍ خشب جدار الكوخ في منزل أهله.

ملامح مريم

كان الوقت زوالًا، وكان يستعدّ لإغلاق المخزن والذهاب للغداء عندما دخل عليه ذلك الشاب مسؤول مشتريات مؤسسة (جسور الخير لكفالة الأيتام)، وهو زبون تعرّفوا عليه منذ أسبوعين، ويبدو أن مؤسسته تكفل مئات الأيتام بالنظر إلى الكميات التي يطلبها يوميًّا، أخذ الشاب يطقطق على لوحة مفاتيح جوّاله بحثًا عن اسم في قائمته.. لم يستبشر بمجيء ذلك الشاب في تلك الساعة، فقد حمل إليهم عليّ طلبيّتهم منذ الصباح، والحقيقة أنه في الآونة الأخيرة لم يعد يرتاح لزيارة أي من زبائن علي إلى المخزن، فبعد ما يقارب الشهرين من العمل تكشّفت له بوضوح طريقة أخيه في جذب الزبائن، خصوصًا مسؤولي المشتريات في المطاعم ومؤسسات التموين الغذائي، إذْ يتّفق مع كل واحد منهم على نسبة من الربح عن كل فاتورة يشتريها من عنده، مع رفع السعر بأضعاف سعر السوق، حسب المؤسسة وإمكانياتها ودرجة خوف مندوبها من

الرقابة أو عدم خوفه منها؛ ووجد عبد الرحمن في ذلك غشًّا لا غبار عليه، وعزم على أن يكاشف أخاه به وبرفضه له، تردد أيامًا حتى يجد وقتًا مناسبًا ليحدثه بهدوء، ويقنعه برأيه أو يترك العمل من دون ضجة، لكن مجيء ذلك الشاب أقلقه..

أخذ الشاب يكلّم عليًّا ثم دفع إلى عبد الرحمن الجوال ليتحدث إلى عليّ، الذي طلب منه أن يعطي للمندوب شيكًا بخمسين ألف أوقية.. حاول أن يتملّص من الأمر لكنَّ عليًّا ألحَّ عليه.. لم يجد بدًّا من اتّخاذ القرار.. انتهت فترة التردّد وأصبح أمام لحظة الحقيقة، فليخترْ أن يجاريهما في جريمتهما فيكون مثلهما أو أن يمتنع عن ذلك، ووجد نفسه يقول لأخيه والمندوب يسمعه: "هذه جريمة، ولن أشارك فيها، لأنها ضد الإنسانية، وقد حرمها الله بنص القرآن: إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُون فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا."

أغلق النقاش في وجههما وخرج المندوب يتميز غيظًا، وحين جاءه عليّ عصر ذلك اليوم وضعه أمام خيار أن ينتهي نهائيًّا عن رشوة مندوبي المؤسسات ويبيع بيعًا سليمًا، أو أنه هو سيترك العمل، لكنّ عليًّا فاجأه ببكائه بين يديه واحتجاجه عليه بأنه يريد أن يهدم ما بناه من أجلهما ومن أجل أسرتهما، واستجداه ألا يتركه، ثم

وعده بأنه سيعيد النظر في علاقاته مع الزبائن..

كان يعرف أنه لن يعيد النظر فيها ولن يستطيع التخلّي عن ذلك الأسلوب التجاري، فمردوده أضعاف مردود البيع العادي، لقد أصبحت تلك الطريقة شائعة لدى التجّار والسماسرة الجدد وزبائنهم، ينهبون بها المؤسسات العامة والخاصة.. ماذا يفعل؟.. هل يتخلّى عن أخيه الأصغر الذي وقف معه في محنته ولم يبخل عليه بالنقود واللباس، وتحمل أعباء الأسرة بعد أن عجز هو عنها؟!.. ستكون تلك نهاية علاقتهما إذا هو فعلها.. أقبل عليه ذلك المساء وهو قلق خائف، يقلب أمره ولا يكاد يستقر على رأي.. قرر ألا يذهب للقاء مريم، على الرغم ممّا تركه لقاؤه الأول بها صحبة سكينة من ارتياح لديه، لكن ما جدوى الذهاب إليها إذا كانت أشرعته تتهاوى والزورق انحرف وبدأت المياه تغمره.. لقد خسر وظيفته في مكتب التنقيب وما كان يمكن أن تدره عليه من أموال لأنه لم يقبل بالخيانة.. خطة مشروع المؤسسة التي أراد أن يشيدها مع أخيه انتهت الآن، ولن يورّط نفسَه مع مريم في زواج لا يستطيع تحمل تبعاته.. ها هو حلمٌ آخر من أحلامه يتلاشى، وتعصف الريح في فجواته.. انحدر بخطوات متثاقلة مع طرقات حي سوكوجيم تجاه حي بغداد، الذي سيسلمه إلى طريق روصو ومن ثم إلى عرفات.. لا

يريد أن يركب، فليس هناك ما يعجله.. من الآن سيعاني من طول الوقت وكآبته.. إلى أين سيهرب من نظرات أمه الحزينة وصمت والده المعذّب؟.. إلى أين سيتّجه بعد أن جرّب المحظرة وخرج منها إلى غير رجعة؟.. آه، لقد صدقت فراسة تلك الملعونة اطويلة.. عليه أن يقبل بأن ظهره مخطط بخطوط سوء الحظ، ولن يفلح في شيء، فلْيُرِحْ نفسَه، وينزعْ عنها كل تعلق بالحياة.. لِيَنْسَ أنه كان هناك في يوم ما طالب ذكي في قسم الفيزياء اسمه عبد الرحمن، وكان يحلم بمنحة دراسية عليا، وبمستقبل بارز.. دحّان الذي اخترعت له سكينة المواويل ليس سوى خيال، ولم يكن له وجود أبدًا.. ذلك الشاب الذي عضَّ والدُه على أضراس صبره انتظارًا له ليحمل عنه عبْء الأسرة والحياة، لم يُخلق إلا في عقله أو عقل زوجته الحزينة المتألّمة.. انتهى الوهْم وسيعيش منذ اليوم هائمًا على هامش الحياة، غير عابئٍ بشيء، وإذا نادوه بأحد تلك الأسماء فسيقول لهم إن ذلك الشخص غير موجود.

فجأة رنّ جوّالُه.. تردد في استخراجه من جيبه.. لا يريد أن يكلّم أحدًا.. كان يتمنى أن تغرب الشمس أو يجد ملجأ يأوي إليه ليبكي حتى يشبع بكاء.. آه، ما أقسى حياة التي لا يجد المرء فيها متَّسعًا ولو للبكاء!.. مدّ يدَه إلى الهاتف، وتأمل الرقم.. شعر بشيء من الراحة،

سيبوح له بكل شيء.. لعله يخفّف من وطأة هذا الكابوس، انحرف إلى مكان خالٍ من المارة، خشية أن تسيل دمعتُه أمام أحدهم، وجاءه صوتُ سليمان الودود.. نزل عليه ثلجًا يُطفِئ حرائق صدره، ومن دون أن يترك له فرصة للحديث طلب إليه أن يجهّز أوراقَه الوطنية وشهاداته ويلتحق به في نواذيبو ليخضع لاختبار اختيار موظف ستبعثه الشركة الوطنية للصناعة والمناجم (اسنيم) إلى ألمانيا للتدرب مدة ستة أشهر، يعود بعدها ليستلم وظيفته خبير تنقيب، وأكّد له سليمان أن علاقته جيدة بمدير قطاع البحث والتنقيب في الشركة وقد حدّثه عنه، وكان ردّ المدير أن هذه المواصفات هي بالضبط ما يريدونها، وطلب إلى سليمان أن يأتيَه به فورًا، وسيؤخّر المديرُ قرارَه يومين حتى يتسنّى لعبد الرحمن الحضور.

انتهت المكالمة.. ارتجف فؤادُه بعنف.. هل هو في حلم أم حقيقة؟.. وجد نفسَه يفتح يديه لا إراديًّا، كأنما يريد أن يحتضن سليمان بقوة، ويبكي على كتفه، ليغسل عن قلبه تلك الكآبة، ويرتاح في حضن صديق.. لن يستطيع أن يكافئ سليمان على ما يفعله من أجله.. لا ينساه ولا يتخلى عنه أبدًا.. دائمًا تمتدّ إليه يدُه لينتشلَه من قاع التردّي ويرفعه عاليًا ليجدد في نفسه الأمل.

مسح دمعة على خده واستدار راجعًا، وأوقف أول سيارة تاكسي

لتقلّه إلى (التيارت)، حيث تسكن مريم.. إنها في انتظاره الآن وعليه أن لا يخلف الموعد بعد أن انقشع الغم، وبدأت تباشيرُ فجر جديد..

كانت مريم تسكن مع أمها وأخيها وأختها الصغيرين، وقد أصبحت هي التي تُعيل الأسرة بعد وفاة والدها الذي كان ضابط صفٍّ في الجيش في أطار، وقد حصلت مريم على قرار بالنقل للتدريس في نواكشوط، وعادت الأسرة إلى منزلها في التيارت.

كان جلوس عبد الرحمن ومريم شبه منفردين في الصالون يمنحهما فرصة للحديث أكثر وللدخول في تفاصيل حياة كل منهم، على الرغم من أن اللقاء كان تحت عيني والدتها التي تجلس في الردهة منهمكة في تطريز ملحفة تعدها للصباغة، وقد تركت بشكل متعمد ابنتها الصغرى تجلس معهما، ولم يقلقه ذلك، لأنه أسلوبٌ رقابيٌّ شائعٌ لدى الأمهات.. جاءت مريم بالمواعين وبدأت تعدّ الشاي له بتراخٍ يسمح بإطالة الحديث.. اجتهد في السيطرة على انفعالاته ونشوة جسمه الذي لم يهدأ من فرط الفرحة منذ جاءه اتصالُ سليمان.. ما زال غيرَ مُصدِّقٍ لما يحدث له.. انشغلت مريم بالشاي فجعل يغمض عينه مصطنعًا غفوة حالمة على صوت المسجّل الهادئ وقد شغلته بشريط (عيد المولود) للثنائي سدوم ولد أيده بصوته الشجي

المتحكّم بعذوبةٍ في أداء النغمات، وديمي بنت آبه بآردينها الفريد وصوتها الرخيم الصداح الذي يصعد بالأحلام إلى عنان السماء كلما ارتفع نشوة بأداء سدوم وهو يغني أبيات نزار قباني:

قولي أُحبُّكَ كي تزيد وسامتي
فبغير حبِّكِ لا أكون جميلا
قولي أحبّكَ كي تصير أصابعي
ذهبًا وتصبح جبهتي قِنديلا
قولي أحبّكَ كي يتمَّ تحوّلي
فأصير قمحًا أو أصير نخيلا
الآن قوليها ولا تتردّدي
بعض الهوى لا يقبل التأجيلا

كم هي كمية الحب التي تحتاجها هذه النفس المغيّبة منذ سنوات كي تكون جميلة.. ما هو عدد فولتات المشاعر الذي سيحوّل هذه الجبهة الحنطية إلى قنديل مضيء.. لم يكن يتوقّع من مريم أن تقول له: "أحبك"، فهذا ليس سوى لقائهما الثاني، وكان الأول رسميًّا في حضور سكينة.. يكفيه أن يكوّن تصوّرًا نهائيًّا عنها يمكّنه من إبقاء الصلة معها أو قطعها قبل أن يسافر، ومع ذلك فهي

لم تؤجّل الهوى، وقد قالت أشياء كثيرة بمذاق الحب وروائحه، ازدادت منها وسامتُه بالتأكيد، وسكن قلبُه هانئًا في كنف تلك النظرات الغافية.. حدّثته بشيءٍ كالبوح عن ذكرى ذلك الشاب الذكي المتوقّد العينين الذي رأته أول مرة عندما جاء بطلب من ابنة عمّته ليحل لهنّ بعض التمارين، وكنّ مجموعة طالبات يُحضِّرنَ لشهادة البكلوريا العلميّة؛ ما زالت تذكر ذلك الخط النائم كالهلال فوق حاجبه، وفي أطار كانت صديقتها المعلّمة أسماء، التي درست في قسم نهائي مجاور لقسمه في ثانوية الميناء، تُحدِّثها كثيرًا عنه.. هو ولا شك يذكر أسماء، تلك الفتاة الذكية التي كانت تتردّد عليه في القسم وفي ساحة المدرسة لتناقشه في مسألة أو تسأله أن يحل لها معادلة، وكانت ترتجف وهي تحدّثه، وقد ظلّ يتهرّب منها خوفًا من أن يلصق به التلاميذُ تهمة حبّ فتاةٍ ليست بالجميلة.

كان عليه أن يحتفظ بشيء من ملامح مريم كما احتفظت بأشياء كثيرة عنه.. هذا الوجه الجميل لا يمكن أن يمر من دون ملاحظة.. يا له من بليد، لكن ربما لم تكن ملفتة في صغرها، فبعض الفتيات تتغيّرُ ملامحهنَّ وينمو معهن الجمال.. فتح حديثُها صناديقَ سوداء ظلت مقفلةً في قلبه منذ أيام المراهقة.. لا يعرف كيف أغرته بالبوح فتناثرت أشلاؤه بين يديها، وهو الذي ظلّ دائمًا يحافظ على

تماسكه في حضرة الأنثى.. بسهولة وجد نفسَه منكشِفًا أمام مريم كصفحةٍ من كتاب، يحدّثها عن إخفاقاته، وعن قلقه وخوفه مما تخبّئُه له الأيام، لكنها فاجأته بتفاؤلها، وثقتها فيه بأنه قادر على أن يصنع لنفسه مستقبلًا زاهرًا، وفي حضٍّ ضمنيّ طلبت منه أن يتّخذها مستشارةً، وقالت وهي تبتسم بكيدٍ وثقة: "إذا اجتمع عقلي وعقلُك فلا بد أن يخرج الصواب."

أغرته نظراتُها التي تزداد عمقًا واتساعًا حين تتحدّث، وذاب في عينيها الحالمتين حين تُصغي إليه وهو يتحدّث.. يحبّ ذلك التقلّبَ العجيبَ بين القوّة والضعف، والثقة والحلم، يغريه بالتحدي ويجذبه بمغناطيس خفي.

حين خرج من عند مريم في تلك الليلة حاول مرارًا أن يستحضر وجه هيلين، فلم يستطع، كان في كل مرة يأتيه بملامح مختلفة وبزيادات غير التي عرفها.. تشوّشت ذكراها في مخيلته.. كان يريد أن يقول لها إنه استغنى تمامًا عن خدماتها، ويطلب منها أن تبلغ علماءهم بأنه في طريقه إليهم.

بلغ الشارعَ العام وأوقف سيارة تاكسي، وحين اعتدل على الكرسي بجانب السائق قال له: "نواذيبو.."

نظر إليه السائق مستغربًا، فتنبه إلى غلطه، فقال له: "عرفات..

أقصد عرفات."

تبسّم الرجل وهو يضغط على البنزين لتنطلق السيارة، وتنفّس عبدُ الرحمن الصعداء، وحمد الله على أنه لم يقل: "ألمانيا."

فيظن السائق أنّ به مسًّا من الجن.

المؤلف

محمد ولد سالم كاتب من موريتانيا، حاصل على شهادة الإجازة في اللغة العربية وآدابها من المدرسة العليا للأساتذة في نواكشوط سنة 1991. محرّر صحفي في جريدة الخليج الإماراتية، رئيس اللجنة الثقافية في النادي الثقافي العربي في الشارقة، كاتب روائي، صدرت له روايات هي: «أشياء من عالم قديم»، «ذاكرة الرمل»، «دروب عبد البركة».